مركز البحوث العربية والأفريقية

فرانز فانون والثورة الجزائرية

جائزة حلمى شعراوى للدراسات الأفريقية

بإشراف مركز البحوث العربية والأفريقية
ومعهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة

طه طنطاوي

تقديم

أ.د. إبراهيم نصر الدين



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: فرانز فانون والثورة الجزائرية

اسم المؤلف: طه طنطاوي

رقم الإيداع :

2011 / 5864

الطبعة الأولى ٢٠١٢





إهداء

الى روح صالح سمرة ومحمد طه

وكـل الرفـاق الـذين غادرونـا، افتقـدنا وجـودهم المـادى في ميادين مصر وأحسـسنا بأرواحهم تبتهج معنا في بشاير النصر،

وكل الشهداء الذين افتدونا وصنعوا النصر في يناير

إلى كـل الثـوار في كـل ميـادين الحريـة علـى امتـداد وطننـا العربي

المجد للشهداء



تصدير

هذه هي أول رسالة علمية- على حد علمي- عن أعمال المفكر الأفريقي العظيم فرانز فانون، ورغم أن مولده ونشأته المبكرة كانت خارج القارة الأفريقية- فقد ولد عام ١٩٢٥ من أسلاف العبيد الأفريقيين المحررين في جزر المارتنيك- إلا أن مسارات حياته، تعليمًا ومعايشة، قد جعلته من أبرز المفكرين الأفارقة تأثيرًا في فكر ، وحركة النضال التحريري الأفريقي. ورغم عمره القصير الذي لم يتجاوز ستة وثلاثين عامًا، إلا أن أفكاره وأفعاله ونضالاته ربما سيستمر تأثيرها لقرون عدة ، تلهم كل الشرفاء المناضلين من أجل الحرية والعدالة.

ولد فانون في أسرة ميسورة الحال مكنته من دراسة الطب النفسي في مدينة ليون بفرنسا، وبحكم حمله للجنسية الفرنسية فقد كان من غير المتوقع في ظروف كهذه أن يظهر كمفكر وكمناضل على الساحة الأفريقي، غير أن أحداثا عدة غيرت مجرى حياته تغييرًا كليا منها، إحساسه بمظاهر التفرقة العنصرية بشكل مبالغ فيه بعد لجوء فريق من البحرية الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية إلى بلدة- جزر المارتنيك- وممارسة هؤلاء أبشع أنواع العنصرية ضد سكانها على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية بحكم كونهم من الجنس الأبيض، ومنها إحساسه بممارسة قدر كبير من العنصرية ضد أبناء جلدته حين التحق بالجيش الفرنسي لمقاومة النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم طريقة التعامل معه في فرنسا أثناء دراسته للطب النفسي ، وتخرجه عام ١٩٥١ ، وأثناء عمله في مستشفي سان- البان بفرنسا، فضلا عن معايشته لتجربة الحرب بين فرنسا والجزائر ، حين انتقل للعمل بالجزائر ، وإدراكه لجسامة الجرائم التي ترتكبها فرنسا ضد المناضلين الجزائريين، كل هذا وغيره دفعه للاستقالة من عمله كطبيب في مستشفي بليدة ، وتخليه عن الجنسية الفرنسية ، والالتحاق بجيش التحرير الوطني الجزائري ، ليحمل الجنسية الجزائرية ، بل وليكون الممثل لجبهة التحرير الوطني الجزائري في المؤتمرات الدولية .

لذا كان من الطبيعي أن يكون فانون – رغم عمره القصير – حاسمًا في رؤاه الفكرية ، وحازمًا في انحيازاته للشعوب الأفريقية دون مواربة ، بل وانحيازه للفلاحين بصفة خاصة بحكم كونهم يشكلون الغالبية المضطهدة ، والمقاومة للظلم على الساحة الأفريقية .

ويكفي هنا أن نشير إلى بعض من مقولاته :

" أنا أريد شيئًا واحدًا ، ألا وهو نهاية استعباد الإنسان للإنسان ، واستعباد الآخر لي ، ذلك سيضمن لي أن أكتشف وأن أجد الإنسان في أي مكان يكون "

وفي خطاب استقالته من مستشفي بليدة وانضمامه لثوار الجزائر يقول :

"منذ شهور عديدة وضميري يخضعني لنقاش حاد ، خلاصته عدم اليأس من الإنسان ، أي عدم اليأس من نفسي ، ولذلك صممت على ألا أتحمل مسؤولية أي موقف سلبي ....بالاستمرار في العمل .

وفي خطاب له أرسله وهو على فراش المرض ، وقبل وفاته بوقت قصير يقول:

" ما أريد أن أقوله : هو أن الموت يلازمنا دائمًا ، فليست المسألة هي كيف نهرب منه؟ ولكن ما إذا كان كنا حققنا أقصى ما نستطيع للأفكار التي عملنا من أجلها؟ والذي يهزني حقيقة في سرير مرضى ليس حقيقة أنني سأموت ، ولكن أن أموت بمرض اللوكيميا في واشنطون ، بينما كان يمكن أن أموت منذ ثلاثة أشهر في مواجهة العدو (فرنسا) ".

ولذلك ليس من المستغرب أن يكتب أحدهم عنه بأنه: " من صنف المثقفين الذين يتخذون المواقف القصوى ولا يهضمون المواقف المترددة ، وأن الظروف التي تحكمت في حياته قد هيأته لهذه الجذرية" .

وأن يقول آخر عنه:

" لقد كان الباب مشروعًا أمام فانون ليلتحق بالنخبة السوداء ، ولكن بعض السجايا والقوى الشخصية المميزة للرجل دفعت به بعيدًا عن الاستفادة من مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة ، ذلك أنه غدا متمردًا ثم ثوريًا ".

.... ألا يستحق هذا المفكر الثائر الإنسان بعد ما ذكر – وهو قليل – أن يخلد ، وأن يكرم ؟

ولعل أقل تكريم لهذا الإنسان هو هذه الرسالة العلمية ، التي آمل أن تصل إلى أسماع وقلوب المثقفين العرب والأفارقة ، ليربطوا الفعل بالقول ، بدل الحديث عن

الثورة والنضال والتحرير والعدل من وراء ستار الصالونات المكيفة، والحوارات المتلفزة التي يدفعون بها الجماهير إلى الثورة ليركبوا قمتها دون عناء .

... أما الباحث العجوز فإني أوجه له شكرًا خاصًا لتصديه لهذا العمل، وقد كنت مشفقا عليه . فقد أثبت بدأبه ونبله أنه مازال شابًا ، وأن في داخله إنسانا ربما يدفعه إلى سلوك مسلك الشاب المفكر المناضل فانون ، وأظن أن الوقت ليس متأخرا ، ومازال في عمره بقية للنضال بالقول والفعل .

أ. د. إبراهيم أحمد نصر الدين





مقدمة

في السادس من ديسمبر ٢٠١١ تحل الذكرى الخمسين لرحيل المفكر والمناضل فرانز فانون عن عالمنا، وتزامن طرح هذا الكتاب وظهوره إلى النور في هذه الذكرى هو بمثابة رد اعتبار له واعتذار عن طول تجاهل النخب السياسية والثقافية والفكرية وعن غيابه عن ساحة الثقافة السياسية العربية.

وفرانز فانون ينظر إليه باعتباره مناضلاً ثوريًا منذ قرر التخلي عن جنسيته الفرنسية وهو القادم من جزر المارتنيك واكتسابه الجنسية الجزائرية، متدثرًا ملتحفًا بها ومشاركًا في ثورتها، كاتبًا وصحفيًا ومقاتلاً في صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية وهو أيضًا مفكرًا استثنائيًا، له إسهاماته الفكرية المتعددة المشتبكة مع قضايا العصر، وله رؤى استدعت جدلاً واسعاً بين أوساط المثقفين من كافة الاتجاهات بين مؤيد ومعارض. وعاش تجارب حياتية كان لها أبلغ الأثر في تكوينه، انضم للعمل في صفوف الثورة الجزائرية وساهم بنشاط في فعاليات وإحداث هذه الثورة، الأمر الذي ساعده على دراسة المجتمع الجزائري ورصد التحولات التي أحدثها الكفاح المسلح في بنيته، وقدم إسهامات نظرية وعملية كان لها تأثيرها العميق في مسيرة الثورة، وأصدر في ذلك كتابه المهم (خمس سنوات على الثورة الجزائرية) والذي تُرجم أحيانا تحت مسمى (سوسيولوجيا الثورة). وكانت له أيضا إسهاماته الفكرية في مجال العمل على تحقيق استقلال ووحدة أفريقيا والعمل على نهضتها.

ومما يشد الانتباه إلى الإنتاج الفكري لفانون، أن كتاباته لم تكن وليدة تنظير مجرُد مجافٍ للواقع، لكنها اشتملت على خبراته العملية الناجمة عن انخراطه في الجيش الفرنسي إبان حرب التحرير ضد النازية من جهة، وفي صفوف جبهة التحرير الوطني الجزائرية فيما بعد من جهة أخرى، ومن مشاهداته ومتابعته لنشأة وتطور حركات التحرير الوطني في أرجاء القارة الأفريقية

كما أن كتاباته لم تقف عند توصيف الاستعمار وتفسيره، لكنها تعدت ذلك إلى العمل على كيفية التخلص منه وسبل مواجهته، وهي تؤكد بشكل حاسم أن الاستعمار هو المسؤول عن ثقافة العنف، بخلقه مناخاً عاماً من الممارسات العنيفة والوحشية.

وفي هذا الكتاب نعمل على رصد وتحليل الإسهامات الفكرية لهذا المفكر

الأفريقـي في ضـوء المـشكلات التـي واجههـا، والأحـداث التـي عايـشها في عصره،واضعين في الاعتبار ،الظروف والعوامل التي أثرت على فكره وكذا سماته الشخصية، مع وضع كل ذلك في إطار قضايا العصر وسياقه الحضاري

وأتصور أن الدارس لفكر فانون،سيصل حتما إلى نتيجة مؤداها،أن منطقتنا وفي واقعنا المعاش الآن، أشد ما تكون احتياجاً إلى مجمل أفكاره الخاصة بمواجهة العنف الاستعماري، الذي يشمل هذه المنطقة من العالم في وقتنا الراهن.

كما أن القارئ لفانون لابد أن يلحظ أن لبعض أفكاره التي طرحها منذ ما يقرب من خمسين عاما ما زال لها جاذبيتها وصحتها في وقتنا الراهن، خاصة أفكاره حول:

-البورجوازية المحلية بسماتها التي قدمها لنا منذ خمسين عاما، تكاد أن تكون هي نفس سمات البورجوازية في مجتمعاتنا العربية والأفريقية في زمننا الراهن هي في رأيه بورجوازية بالفكر، ،لا تملك قوة اقتصادية،وهي بورجوازية متخلفة،راكدة قليلة العدد،متمركزة في العاصمة،ليست متجهة نحو الإنتاج ولا تملك رؤوس أموال كبيرة كنظيرتها الأوروبية، وإنما تتشبه بها في جانبها السلبي فتسيطر عليها روح التمتع والميل إلى الاستهلاك دون أن تكون قطعت مراحل الابتكار الأولى التي قطعتها البورجوازية الأوروبية، ويرتب على ذلك نتيجة مؤداها،أن علينا أن نعارض معارضة حاسمة في قيام طبقة من أصحاب الامتيازات، والدور الوحيد الذي يراه لها، هو أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال وأن تضع نفسها كاملا في خدمة الشعب وهذه الرؤية كفيلة في حد ذاتها أن ترد الاعتبار لتصورات فانون المبكرة حول دور البورجوازية الوطنية وخياراتها الاقتصادية والاجتماعية.

- المكانة التي استخلصها للمرأة في العمل الثوري، ترفع قضية المرأة إلى مكانة لم تستقر بعد في معظم دول العالم الثالث، حيث أن هذه القضية لم تخرج، في صياغاتها الحالية، عن برامج مواجهة الفقر والبطالة، وفق رؤية برامج المؤسسات الدولية. وبالتالي فإن الصياغات الحالية حول قضية المرأة ودورها المجتمعي، تحتاج لرؤية فانون المتقدمة.

- حالة القهر الاستعماري الذي خصص له معظم كتاباته، هي الحالة التي تستدعيها الآن الأحداث التي تجرى في دول العالم الثالث، من غزو مباشر لبعض دولها ومحاولات للهيمنة وتكريس التبعية والسعي لعولمة معسكرة تنفي الذات

والمجتمعات، الأمر الذي يؤكد الاحتياج لجملة أفكار فانون الخاصة بمواجهة العنف الاستعماري والعمل على مواجهة الليبراليين الجدد الذين يروجون للمشاريع التفتيتية للمنطقة.

والمتابع للحياة السياسية والثقافية والفكرية العربية،يدهشه أن يكتشف أن مثقفا ومفكرا بحجم فرانز فانون وإن لمع اسمه في النصف الأول من ستينيات القرن الماضي، بعد صدور كتابه (معذبو الأرض)، الذي عُد الأكثر رواجاً بين مثقفي العالم العربي آنذاك،إلا أنه في مرحلة لاحقة، جرى تغييبه وما يمثله فكره عن الثقافة السياسية العربية، ولم يتم تناوله بالقدر الكافي من الاهتمام، ويعود ذلك في المقام الأول إلى طبيعة القوى الاجتماعية المسيطرة آنذاك .

وإذ أتقدم بهذا للقارئ العربي، يلزم أن أنوه أن مادته الأصلية، قدمت في إطار دراسة عن الفكر السياسي الأفريقي تقدمت بها للحصول على درجة الماجستير في الدراسات الأفريقية(علوم سياسية) من معهد الدراسات والبحوث الأفريقية جامعة القاهرة،بإشراف عالمين جليلين هما الأستاذ الدكتور إبراهيم نصر الدين أحد رواد الدراسات الأفريقية البارزين على مستوى القارة، والدكتور صبحي قنصوة الذي يشهد له الجميع بغزارة علمه ودمث خلقه، فلهما ولكل أساتذة المعهد الكرام وجميع الزملاء كل الشكر والعرفان على ما قدموه من علم ومعرفة وجهد ساعدني على السير في الطريق، وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بموفور شكري وامتناني العميق للمفكر المناضل الأستاذ حلمي شعراوي على إمداده لي بالكثير من المراجع العلمية التي بدونها لم يكن لهذا العمل أن يرى النور، كما اشكره مجددا على ما حظيت به من ثقته وثقه فريق العمل المتميز في مركز البحوث العربية الأفريقية، من شرف نيل جائزته للدراسات الأفريقية .

آمل أن أكون،قد أسهمت بهذا العمل بإعادة التذكير بمفكر ومناضل يستحق كل التقدير للدور الذي أداه وقام به في حياته القصيرة .



الباب الأول

النشأة و التكوين- قضايا العصر- السياق الحضاري



ولد فرانز فانون في عام ١٩٢٥ في مدينة (فوردى فرانس) وهى عاصمة إحدى جزر المارتنيك وتوفي في إحدى مستشفيات نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية بعد معاناة طويلة مع المرض، دفن ووري الثرى حسب وصيته في أرض الجزائر العربية في نهاية عام ١٩٦١ عن عمر يناهز الستة وثلاثين عاما عاش فانون مابين الميلاد والوفاة أحداثا كثيرة لها تأثيرها على مجمل الحياة البشرية في تلك الحقبة من الزمن.

ونبدأ بالتعرف إلى ظروف النشأة والتكوين والعوامل المباشرة المؤثرة على اتجاهاته الفكرية والسياسية وعلى ممارساته، وكذلك التعرف إلى قضايا العصر في هذه المرحلة التاريخية، إلى جانب دراسة التيارات السياسية والفكرية التي تشكل في مجموعها السياق الحضاري الذي عاصره،لنرى كيف وإلى أي مدى انعكس كل ذلك على مسيرته وعلى أفكاره وأفعاله وإلى أي مدى كان تعبيرا عن المشكلات المطروحة في عصره وكيف استطاع التصدي لها،



المبحث الأول

ظروف النشأة والتكوين

ويلزم ابتداءً التعرف إلى الظروف التي صاحبت النشأة و التي كان لها تأثيرها على توجه فانون المستقبلي والتي أوصلته إلى مكانه، ثم نتعرف على العوامل التي ساهمت في تكوينه على مدى مسيرته في الحياة ،ونقف بعد ذلك على خبراته الواقعية وتجاربه التي خاضها والتي تعتبر منعطفات هامة في حياته والتي من الأهمية إبرازها لما لها من دلالات،وأخيرا نصل إلى تبين سماته الشخصية وذلك على النحو التالي:

ظروف النشأة:

خضعت جزر المارتنيك[1] (التي ولد فانون في إحدى عواصمها) للاحتلال الفرنسي منذ عام ١٦٢٥ وكانت هذه الجزر موقعا من مواقع جلب العبيد الأفارقة- منذ بداية هذه التجارة -للعمل في مزارع قصب السكر وذلك لفناء سكانها الأصليين، ومن المعروف أن السياسة الفرنسية أتبعت في مستعمراتها سياسة الاحتواء و الاستيعاب ،فقامت بمنح سكان الجزر المواطنة الفرنسية وعملت على خلق نخبة من الأهالي مكونة ما يمكن أن يسمى (بورجوازية سوداء)تتشكل أساسا من أبناء الطبقة الوسطى التي تسعى بدورها للاندماج والذوبان في الإطار الفرنسي.وإلى هذه الفئة كانت تنتمي أسرة فرانز فانون، فكان مولده من أبوين ميسورين الحال ،ينتميان إلى الشريحة العليا من هذه الطبقة (المتوسطة) فكان واحدا من ستة أخوة،عمل أبوه مفتشا في الجمارك، ساعدت الظروف الاجتماعية لعائلته من متابعته دروسه حتى تخرج من جامعة ليون بفرنسا متخصصا في دراسة الطب النفسي، وإذا كانت ظروف النشأة -أي نشأة- ترتبط إلى حد كبير بظروف المكان والزمان وبالأسرة التي ينشأ الإنسان في ظلها فإن ذلك قد انعكس على فانون على النحو التالي:

---

(١) وتعرف أيضا باسم جزر الأنتيل، وهى تتشكل من عدة جزر صغيرة ومتوسطة تتابع في خط يقع بين أمريكا الشمالية والجنوبية قريبا من قناة بنما.

أولا :ظروف المكان :

يرتبط المكان عند البعض باعتباره من قبيل الصدفة على اعتبار أن الإنسان لا يختار متى ولا أين يولد، ولكن يظل للمكان في كثير من الأحيان تأثيره الواسع المدى في التكوين الشخصي للإنسان ويذهب د جمال حمدان في ذلك إلى حد توصيفه لدور المكان "بالعبقرية"،حينما تحدث عن عبقرية المكان في سياق دراسة له عن شخصية مصر .وهذا التوصيف وإن كان يرتبط بخصوصية ما لدور الموقع في مصر، إلى أنه ينطبق وبدرجات مختلفة على أماكن أخرى ،فلكل مكان خصوصية تنبع من جغرافيته وظروفه التاريخية ،ويتبدى دور المكان هنا على النحو التالي :في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد هزيمة فرنسا أمام قوات النازي وكان الأسطول البحري الفرنسي موجودا وقتها في المحيط الأطلسي قبالة جزر المارتنيك و لما لم يستطع البحارة العودة إلى فرنسا ، توجهوا إلى الجزر،وكان عدد سكان الجزر في ذلك الوقت لا يتعدى الألفين ولم تكن تعرف أشكال التعصب العنصري الصارخ، وبوصول البحارة الفرنسيين ارتفع العدد إلى نحو عشرة آلاف،ومارس الوافدون الجدد وهم من البيض أشكالا من التمييز والتعصب العنصري لم يكن المواطنون من أهل الجزيرة يعرفونها من قبل، وكانت هذه التجربة هي الأولى من نوعها والتي عايش فيها فانون أشكال التعصب العنصري والتي جعلته يؤكد زنوجته ويصرخ بها في وجه البعض الذين توهم ذات يوم أنه مثلهم تماما (١) .

وفي المارتنيك التحق فانون بمدرسة الليسيه خيث تتلمذ على يد إيمي سيزير وكان سيزير شاعرا ومن رواد حركة الزنوجة إلى جانب ليوبولد سنجور،وأصبح فيما بعد من القادة السياسيين لشعبه وتجدر الإشارة إلى أن فانون اختلف لاحقا مع سيزير في بعض مواقفه السياسية إلا أن تأثيره عليه كان مؤكدا والقارئ لكتابات فانون وما يلمسه فيها من نفس شعري يجد تفسير ذلك في لقائه بسيزير وتلمذته على يديه ،هذا إلى جانب تأثيره الفكري عليه ،وفي هذا الصدد فان تأثير سيزير على فانون يمكن تلمسه على أكثر من مستوى ،فإلى جانب تأثره بأسلوب كتابته الشعرية ،فقد تأثر فانون وتفاعل مع أفكاره وخاصة فكرة الزنوجة وتمجيد قيم الريف على النحو ي

(١) المرجع السابق، ص١٧.

الزنوجة : وكان لإيمي سيزير دور بارز في إحيائها وذلك إلى جانب مفكرين أفارقة آخرين وعلى رأسهم الكاتب والسياسي الأفريقي ليوبولد سنجورو، وتفاعل فانون مع تيار وفكر الزنوجة سلبا وإيجابا هو أحد علامات تأثير سيزير عليه في هذا الشأن ،وكان سيزير من جانب آخر من المعجبين بفانون فكتب مثنيا عليه قائلًا: "إن كتاب بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، هو الكتاب الحاسم بـ شأن العواقب الإنسانية للاستعمار والعنصرية في حين أن كتابه معذبو الأرض يعتبر مفتاح عملية إزالة الاستعمار[1].

تمجيد قيم الريف ودور الفلاحين: كان لكتابات السياسيين الزنوج اللذين أعجب بهم فانون في المراحل الأولى من تكوينه الفكري وفي المقدمة منهم إيمي سيزير، دور في اتجاه فانون إلى تعظيم دور الفلاحين في الثورة، هذا بالطبع إلى جانب خبرته العملية المستقاة من الدور الذي قام به الفلاحون في الثورة الجزائرية[2] ، والنظر إليهم باعتبارهم هم الطبقة الثورية الوحيدة القادرة على القيام بالثورة ومواصلتها دونا عن الطبقات الأخرى، فهي الطبقة الوحيدة التي لن تخسر شيئا بالثورة بل تكسب كل شيء[3] .

ثانيا : الأسرة

لو لم يكن فانون من أبوين ميسورين الحال ينتميان إلى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة،ما كانت ظروفه العائلية لتمكنه من متابعة دراسته حتى وصوله إلى أرقى درجات التعليم في جامعات فرنسا ودارسا للفلسفة في نفس وقت تخصصه في دراسة الطب النفسي، ولما تعرف على الثقافة الغربية ولا احتك بالحضارة الأوروبية ، بما وفره له ذلك من إمكانات النماء الشخصي ومن تحقيق نجاحات شخصية. والمتتبع لسيرة حياة فانون يرى أن تأثير الأسرة عليه ينحصر في توفير الإمكانيات المادية التي ساعدته على النحو الذي سبقت الإشارة إليه.

(1) David Caute, **Fanon** (London: Fontana ,1970) P.52.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص٥٢.

(٣) فانون، سامي الدروبي وجمال الأتاسي (مترجم) معذبو الأرض (بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٠)، ص٦٣.

ومن ناحية أخرى فلقد كان بإمكان فانون بفضل سجايا وقوى شخصية يتمتع بها وبفضل ثقافة اكتسبها أن يحقق نجاحات فردية لكنه لم يسع لذلك ولا سعى للاستفادة من مهاراته على المستوى الشخصي وبالتالي" لم يلحق نفسه بصفوف النخبة المارتنيكية السوداء وكان الباب مفتوحا على مصراعيه أمامه للالتحاق بصفوف هذه النخبة"[1] ويؤكد دافيد كوت وهو أحد دارسي فانون على هذا المعنى بقوله: "إنه من الممكن تحديد الفئة أو الطبقة التي ينتسب إليها فانون من خلال ظروفه ومحيطه ولكن هذا التحديد لا يمكن أن ينسحب على أفكاره وحياته والإنسان الذي حول نفسه إليه ،فكان هناك دائما مجال للاختيار" [2]

ظروف التكوين :

من المسلم به أن وعى الإنسان يتشكل ويتكون ويتطور عبر كل مراحل حياته من خلال الاختبارات التي يواجهها والخبرات التي يكتسبها، وبقدر ما تتسع مساحة هذه الاختبارات وتتنوع، تتسع معها خبراته وتتنوع هي الأخرى، ويكون الإنسان أوسع وأرحب أفقا وأقدر على تلمس ما يعجز الآخرون عن فهمه وإدراكه، وبهذا المعنى فقد توفرت لفانون ظروف خصبة وغنية وتجربة حياة مفتوحة على كل الاحتمالات، ولعل هذا ما يفسر حجم عطائه الفكري والعملي ويفسر أيضا الصدى الذي أحدثته أعماله الفكرية وما وجدته من تقبل واسع، وباستعراض ظروف التكوين والخبرات المعاشة يتبدى الأثر الكبير الذي أحدثته في تشكيل فكره ووعيه وتطوره في آن واحد.

أولا : دراسته للطب النفسي :

درس فانون الطب في مدينة ليون بفرنسا وتخصص في الطب النفسي، وعمل بعد تخرجه في عام ١٩٥١ في مستشفي سان- البان للأمراض العصبية لمدة خمسة عشر شهرا،تعرف خلالها على حالات مرضية عديدة ، وعمل مع د. توسكيل وهو

(1) David Caute,**op.cit.**, P8
(2) Idem

طبيب إسباني الأصل، في أثناء عمله بهذه المستشفي عالج فانون المرضى من الجزائريين والمهاجرين الأفارقة الفقراء و بمتابعة مرضاه وبما يتمتع به من حس ونزعة إنسانية استطاع أن يكتشف السبب الأساسي وراء معاناتهم وهو مرض "الغربة" أو ما يعرف بمرض الاقتلاع من الجذور، سافر فانون بعد ذلك للعمل في مستشفي بليدة بالجزائر رئيسا لقسم الطب النفسي بها، وهناك اصطدم بواقع المرضى الجزائريين واكتشف العلاقة بين الاستعمار والمرض النفسي وأنها تقوم على:

ما يؤديه الاستعمار دائما من خلق للمعاناة الإنسانية وتقسيمه العالم إلى عالم مضطَهَدِين ومضطِهِدِين، عالم مستغَلين ومستغِلين "إن الوضع الاستعمارى يتميز بأنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا"[١] ، واكتشف كذلك العلاقة بين الاستعمار والعنف الملازم له ، وكيف أنه "يضيع الإنسان ويشوه الطبيعة الإنسانية"[٢] ، وبالتالي يفاقم من مضاعفات المرض النفسي.

استحالة علاج المرض النفسي في ظل وجود النظام الاستعماري، فالاستعمار باستخدامه للقهر والعنف يخلق ، ويفاقم المرض النفسي، ولذلك فالتخلص من الاستعمار هو ضرورة لتوفير الشرط الموضوعي لإمكانية شفاء المرضى.

ودراسة فانون للطب النفسي مكنته من التحليل العميق للظاهرة الاستعمارية من الداخل، ومكنه التفسير النفسي لهذه الظاهرة من التوقف أمام التأثيرات التي يحدثها الخضوع للمستعمر على نفسية المستعمَرين، والدور الذي يقوم به المستعمِر في مسخ المستعمَرين وتيسير خضوعهم له.

ويرى كوت "أن من أعظم حسنات فانون على الدوام أنه يعزو الحالة النفسية للفرد إلى مجتمعه دون أن يهمل النظر إلى الفرد نفسه "[٣] ، ويظهر اعتقاد فانون بأن" توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية"[٤] ، وهذا الاعتقاد يبدو واضحًا في رسالة الاستقالة من عمله في مستشفي بليدة والتي قدمها إلى الوزير الفرنسي المقيم"[٥] ،وفي صلب نص هذه الرسالة تتضح رؤية فانون لدور الطب

(١) فانون، م س ذ، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٦.

(3) David Caute, Op.cit., P.37.

(4) Ibid., P.39.

(٥) فانون، محمد الميلي (مترجم) من أجل أفريقيا (بيروت : دار الطليعة ، ط١ ، ١٩٦٦) ص٣٥ –ص٣٨

النفسي "من أنه هو الأداة التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به". وهكذا يتضح ما لدراسة فانون للطب النفسي من أثر عميق في تكوينه الفكري وعلى فهمه ورؤيته للاستعمار وعلى حتمية التخلص منه وضرورة القضاء عليه،كما كان لهذه الكتاب أيضا تأثيرها على كل إنتاجه الفكري اللاحق وعلى ممارساته العملية على النحو الذي سيتضح أكثر في ثنايا هذه الكتاب ويمكن القول إجمالا "بأن التزام فانون الثوري نشأ أصلا بشكل فطرى ومنطقي من ممارساته المهنية وزادت راديكاليتها من خلال التجربة الشخصية في النضال التحرري الجزائري"[١].

ثانيا: علاقاته بشخصيات أوروبية

في أثناء دراسته للطب في فرنسا كان" فانون يقوم في ذات الوقت بدراسة للفلسفة ويقرأ لكيركيجارد وهيجل و ماركس ولنين وهيدجر وسارتر ...الخ "[٢]،والتقى في هذه الأثناء بعديد من الشخصيات التي تركت بصماتها على تفكيره وعلى رؤيته وتوجهاته وترصد الكتاب ثلاثة من هؤلاء المفكرين.

١- جان بول سارتر:

وهو المفكر المرموق والفيلسوف الأشهر في تلك المرحلة، بدأ وجوديا وتطور فكريا وتجاوز الفلسفة الوجودية وأصبح في وقت لاحق ماركسيا . وكانت سنوات دراسة فانون في فرنسا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قد تزامنت مع الانتشار الكبير لأفكار سارتر، ويرى البعض ،أن فانون" مدين لسارتر بالشيء الكثير" [٣]، وأنه" لم يكن لكاتب من النفوذ لدى فانون ما كان لسارتر"[٤]، وأن فانون تأثر في تحليله للعنصرية وكذلك فيما يتعلق بفكر الزنوجة بأفكار سارتر إلى الحد الذي جعله يذكر "أن كتابات فانون هي إلى حد كبير صدى لمفاهيم سارتر"[٥]، وبصرف النظر عن

(1) Renate Zahar, **Frantz Fanon : colonization@ Alienation** (new York : Monthly Review Press ,1974) P×1.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص٢٩.

(3) David Caute, **Op.cit**, P.35.
(4) Ibid., P.82.
(5) Ibid., P.35.

مدى دقة هذا التقييم أو حجم المبالغة فيه ، فإنه يحمل معنى التأثير الواضح لسارتر على أفكار فانون وفي هذا السياق فإنه من المهم الإشارة إلى أن سارتر نفسه هو الذي كتب مقدمة كتاب فانون "معذبو الأرض" ويقوم ذلك دليلا على العلاقة الوثيقة التي جمعت بين الرجلين.

٢- فرانسيس جونسون :

وفرانسيس جانسون هو أحد مريدي سارتر وهو الذي كتب مقدمة النسخة الفرنسية من كتاب فانون الأول "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" والذي صدر في عام ١٩٥٢ ، ومكن فانون من تبوأ مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين ، و لجانسون كتاباته عن الجزائر وعن ما سُمى (مشكل عمال شمال أفريقيا) ويكون من السهل استنتاج أن صداقة فانون لجانسون و قراءته لما كتبه عن الجزائر قد ساعدته كثيرا في التعرف إلى الواقع الجزائري قبل عام ١٩٥٤، مما يحتمل أن يكون أحد الأسباب التي دعت فانون إلى التفكير في السفر لاحقا للعمل في الجزائر[١] .

٣- فرانسوا توسكيل :

وهو الطبيب الذي عمل معه فانون في مستشفي سان-البان، وهو من أصل إسباني، وكان معاديا للنظام الفاشي للجنرال فرانكو، ويمتلك معرفة وعلما واسعا بأساليب العلاج الإجتماعى ويرى أن العلاج النفسي يرتبط ارتباطاً وثيقا بالبيئة المحيطة بالفرد فكان يعمل دائما على تأهيل مرضاه للتكيف مع البيئة المحيطة والتعامل معها، "وشكلت معرفة فانون بتوسكيل تحولا حاسما في حياته سواء كان ذلك على صعيد الطب النفسي أو على صعيد التزاماته اللاحقة واتضحت لديه نقطة التقاطع بين الجسدي والنفسي والتاريخي "[٢] .

وتبدو آثار هذه المدرسة واضحة في موقف فانون وتقديمه لاستقالته من منصبه في مستشفي بليدة للأمراض النفسية لاقتناعه باستحالة علاج المرضى

(١) محمد الميلى، م س ذ، ص٥٧.
(٢) فانون ، معذبو الأرض، م س ذ، ص١١ .

الجزائريين في ظل وجود ظروف بيئية واجتماعية غير مناسبة وبسبب وجود نظام استعماري يفرض العنف والقهر على الأهالي، وتوصله إلى النتيجة الحاسمة بضرورة القضاء على الاستعمار أولا إذا ما أردنا للإنسان إن يتحرر ذاتيا.

ثالثا: المؤثرات الفكرية:

درس فانون الفكر الغربي واستوعبه بكل مدارسه، كما ارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة له، ويلاحظ هنا تداخل الصداقات والعلاقات الشخصية مع المؤثرات والمدارس الفكرية التي تأثر بها فانون، وكان لمجلة "بريزنس أفريكان "والتي تأسست في باريس في عام ١٩٤٧ وأشرف على تحريرها عدد من اليساريين الفرنسيين ومن بينهم أندريه جيد، البير كامو، وجان بول سارتر تأثير عميق في فانون "فقد اقتبس منها الشيء الكثير في كتابه بشرة سوداء وأقنعة بيضاء"[1] وذلك حسب ما أورده كوت في دراسة له عن فانون، ويرى أيضا " أن فانون في كتابه الأول (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) تعرض لأفكار هيجل و ماركس .... سارتر و ميرلو بونتي ......، وفيما يتعلق بالمحللين النفسانيين فإن فانون يؤثر الكبار منهم مثل فرويد و أدلر، فقد ظفرت دراسات جميع هؤلاء باهتمامه البالغ "[2] ويلاحظ أيضا " أن تطور أفكار فانون يوازى من بعض الوجوه تطور أفكار ماركس ولكنه أشد التصاقا بخط تطور أفكار سارتر"[3] وكذلك" فإن مفهوم العنف عند فانون مستمدٌ من هيجل عبر فلسفة سارتر"[4].

من جانبه يرى الميلى "أن الأصول الغربية لتفكير فانون ،هو أحد سببين رئيسين للصدى الكبير الذي حققته كتابات فانون في الغرب"[5]، ومسألة الأصول الغربية لتفكير فانون وما يمكن أن تستدعيه إلى الذهن من معنى سلبي، على اعتبار أن الغرب هو نفسه الذي مارس الاستعمار بأبشع صوره وهو الذي قام بنهب المستعمرات وأعاق تطورها الطبيعي وعمل على تجميد واقعها الاقتصادي،

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.28.
(2) Ibid, P.32.
(3) Idem
(4) Renate, Zahar, **op.cit.**,P.78.

(٥) محمد الميلى، م س ذ، ص٣٧.

الاجتماعي، والثقافي ،إن لم يكن قد قام بتدميره بالكامل، مما أدى إلى حالة التخلف الذي عانته المستعمرات،ومما يعزز من حالة اللبس التي تستدعيها إلى الذهن مقولة " الأصول الغربية" رؤية متميزة ومثيرة للجدل طرحها أستاذ دكتور إبراهيم نصر في محاضرة ألقاها أمام الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية في ديربان في مؤتمرها الرابع عشر في الفترة من ٢٦-٢٨ يونيو ٢٠٠٣ بعنوان" في نقد العقل والممارسات الغربية – نحو رؤية جديدة لتنمية أفريقيا" ويوجز هذه الرؤية في (أن المتأمل في مجمل التراث الثقافي الغربي سواء في ذلك فكره السياسي أو تقاليده أو أعرافه يدرك دونما عناء أن العقل الغربي هو عقل فصل من جانب وهيمنة من جانب آخر)(١).

ومن جانبنا نرى أن إزالة هذا اللبس أو التناقض يكون ممكنا إذا نظرنا إلى الغرب وإلى الفكر الغربي ليس على أنه كتلة واحدة ،فهناك الشعوب توجد إلى جوار الأنظمة، والأفكار نفسها تتراوح من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار،فالغرب الذي قام نظامه السياسي و الاقتصادي بالممارسات الاستعمارية المشينة، هو نفسه وفي مراحل أخرى ومختلفة من تطوره التاريخي الذي أفرز أفكارا ومدارسًا فكرية تقف على الشاطئ الآخر وليس أدل على ذلك من ظهور الأفكار الاشتراكية الثورية من داخل هذا المجتمع وقلبه،

هذا إلى جانب أن فانون لم يكن مجرد متلقي لمسلمات هذا الفكر على تنوعه، ولم يكن أيضا من نمط المثقفين الذين يمكن استيعابهم، وإنما هو في جدل دائم ومستمر مابين الواقع والفكر، وموقف فانون من اليسار الفرنسي واختلافه معه أثناء حرب التحرير الجزائرية وانتقاداته لليسار الفرنسي برغم ما كان من صلة قوية ووثيقة بينه وبين هذا اليسار، وكذلك خلافه مع إيمي سيزار في مرحلة لاحقة بسبب موقفه من استقبال أندريه مالرو(الوزير الفرنسي الديجولي) ولموافقته على التصويت بنعم لصالح الاستفتاء الديجولي الشهير على ضم جزر المارتنيك لتكون جزءا من فرنسا، وانضمام فانون فيما بعد وانتمائه للثورة الجزائرية فيما اعتبر أنه خلع نهائي للمواطنة الفرنسية، ذلك يؤكد أن فانون وإن تأثر بالمدارس الفكرية الغربية إلا أن ذلك كان في إطار تفاعل وجدل وحركة وضمن إطار ناقد وقدرة على الفرز وفي إطار استقلالية

(١) د. إبراهيم نصر الدين "في نقد العقل والممارسات الغربية : نحو رؤية جديدة لتنمية أفريقيا" آفاق أفريقية، (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، السنة الرابعة ،العدد ١٥) ص ص٤-٧

فكرية تامة.

وفي نفس السياق يقرر أحد الباحثين في دراسة له "..أن فانون كان مدركا في صميم عقله،تعليمه،ثقافته وخبرته في الحياة بأنه قد تأثر وبعمق بالمركزية الأوروبية ...ولكنه في داخل تراث القمع والهيمنة للمركزية الأوروبية كان قادرا على التمييز بدقة بين ما هو ضروري وغير ضروري لفهم الحاضر ولبناء مستقبل أفضل ...وكان قادرا على استخدام مفاهيم المركزية الأوروبية ضد ولإدانة هذه المركزية نفسها"[(1)] .

تجاربه الشخصية وخبراته الواقعية:

على قصر عمر فانون وتنوع الاختبارات التي تعرض لها، فإنه يمكن رصد تجربتين في حياته كان لهما تأثيرهما البارز على أفكاره وتوجهاته وعلى تطور هذه الأفكار والتوجهات ومع إدراك صعوبة اقتطاع تجربة أو أكثر من سياقها وتسليط الضوء عليها، ذلك أن مجمل التجارب المعاشة تشكل سبيكة واحدة، كل خبرة فيها هي سبب ونتيجة لخبرات أخرى وهكذا في عملية جدل مستمرة، إلا أنه وفي ذات الوقت من الممكن رصد ما يعتبر خبرات وتجارب حاكمة أسهمت بنصيب أوفر في تشكيل وعى ووجدان فرانز فانون، وهذا ما نحاول رصده، ففي هذا السياق يقف حدثان بارزان لهما دلالتهما كما كان لهما تأثيرهما الواضح على حياته وأفكاره.

أولهما: تطوعه للقتال إلى جانب جيش فرنسا الحرة ضد قوات الغزو النازي.

وثانيهما: انضمامه للثورة الجزائرية والعمل ضمن صفوفها ومع كوادرها.

أولا : الالتحاق بجيش فرنسا الحرة:

لم يكن فانون قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ،حين غادر جزر المارتنيك، بعد هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية أمام قوات النازي وانضم إلى قوات الحلفاء

(1) José da Mota-Lopes," Re-Reading Frantz Fanon: Language, Violence, and Eurocentrism in the Characterization of Our Time"
humanarchitecture:journalof the sociologyof self-knowledge
(Boston: Okcir Press,VSpecial,Double-Issue,Summer 2007) p.57.
http://www.okcir.com/Articles%20V%20Special/JoseMotaLopes.pdf

تحت قيادة الجنرال ديجول مقاوما للاحتلال الألماني لفرنسا ومنخرطا في صفوف المقاومة ضد النازية والفاشية وينسب إلى فانون قوله آنذاك "أنا لست على وجه الأرض لأدافع عن السود فقط وإنما عن كل مظلوم ومضطهد".

ومن البديهي أن تجربة الحرب، هي من أعمق التجارب التي يعيشها الإنسان، وتترك آثارا قوية على كل من وجدانه وفكره، وفيما يخص فانون، فقد حملت هذه التجربة له وعيا مبكرا في أكثر من اتجاه. ففيها عايش واقعا من الظلم وعدم المساواة والاستعلاء العنصري الذي مارسه الجنود الفرنسيون البيض على غيرهم من الملونين، فأثناء انخراطه في الجيش الفرنسي فوجئ بأن هناك كتائب تتشكل من الفرنسيين البيض وأخرى من الهنود الغربيين السود والمفترض أنهم مواطنون فرنسيون وأن الجنود الأفارقة السود قد عزلوا عن القوات الفرنسية،والمفارقة أن ذلك كان يتم في نفس الوقت الذي كان الجيش الفرنسي يواجه فيه النازية الألمانية بأفكارها عن النقاء العرقي.

وفانون وهو الأسود الذي جاء إلى فرنسا ليدافع مع الفرنسيين عن قضيتهم، فوجئ بسلوكهم العنصري، فتكرست معاناته من الممارسات العنصرية مما ساهم في تشكيل وعيه المبكر بوضع الإنسان الأسود ونظام العبودية وضرورة تحرير الإنسان من كل الأغلال والقيود ويذكر كوت "أن فانون كانت تتملكه مرارة التمييز العنصري، وفي مطلع شبابه كان قد توهم أن في وسعه التغلب على حاجز اللون مستندا إلى ثقافته وطاقاته الشخصية ،وهكذا تطوع في أثناء الحرب للخدمة بالجيش الفرنسي، وبدأ يدرك ويحس بأن الزنجي بصرف النظر عن مستواه العلمي والثقافي فهو في نظر الفرنسيين زنجي قبل أي شيء آخر،وهو في مرتبة متدنية [1].

والجدير بالذكر أن فانون كجندي في الجيش الفرنسي تلقى تدريباته القتالية الأولى في مدينة بجاية الجزائرية، وقد تكون هذه الخبرة وراء قبوله العمل بمدينة بليدة بالجزائر فيما بعد، (لسبق تعرفه إلى الجزائر الأرض والشعب) وتجربة الحرب هذه لابد وأن تكون قد أسهمت في تشكيل فهم فانون للعنف بعد أن مسه هذا العنف بعمق في لحظة فاصلة من حياته، لذلك لم يكن غريبا أن يتخذه موضوعا في كتاباته، كما كانت معايشة الاستعلاء العنصري بدورها مصدرا لكتاباته الأولى، وفي تركيز وإيجاز

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.9.

شديدين لخبرة فانون من هذه التجربة يمكن القول أنه اكتشف أثناءها الممارسات العنصرية الشائعة [١] كما اكتسب إلى جانب ذلك ثقافة المقاومة والتي قد تكون هي البداية الجنينية في وعيه والتي ترجمت نفسها فيما بعد بانضمامه للثورة الجزائرية.

ثانيا :انضمامه إلى الثورة الجزائرية :

تعرف فانون إلى الجزائر في البداية يوم أن تلقى تدريباته القتالية أثناء تطوعه في جيش فرنسا الحرة في مدينة بجايه الجزائرية ، وتعرف عليها فكريا من خلال قراءاته لكتابات فرانسيس جانسون عن الجزائر [٢]، كما تعرف عليها إنسانيا من خلال خبرته المستقاة من علاج الجزائريين الفقراء في فرنسا، وبتلقيه عرضا للعمل في مستشفي بليدة للأمراض النفسية رئيسا لقسم الطب النفسي بها وذلك في عام ١٩٥٣ بدأت منذ هذه اللحظة علاقته الأساسية بالجزائر والتي مهدت فيما بعد لالتحاقه بصفوف الثوار الجزائريين، ذلك أن تجربة الانتقال إلى الجزائر واحتكاكه بالجزائريين أتاح له أن يتعرف على الكثير من الحقائق التي كان يجهلها مما وجه أبحاثه وقراءاته وجهة جديدة ظهرت آثارها في كتاباته [٣] ومنحته أيضا درجة كبيرة من الوعي بالممارسات العنيفة والدموية التي كان الاستعمار الفرنسي يمارسها على الجزائريين المستعمرين، ورأى كذلك المعاملة القاسية التي كان يعامل بها المرضى الجزائريين ،ومن دراسته لمرضاه توصل فانون إلى قناعة بصعوبة شفاء المرض النفسي في ظل نظام استعماري تعسفي وأنه لكي يمكن مداواة المرضى الجزائريين بشكل مقبول فيجب إنهاء الاستعمار أولا وإنهاء كل أشكال العسف والقهر الملازمة له ، وانتهى فانون من ذلك إلى قناعة بأن استمراره في العمل الطبي والعلمي يصرفه عن الواجب الأكبر الذي يصغر إزاءه كل الواجبات الأخرى، فأقدم في نهاية عام ١٩٥٦ في تصرف لافت وذى دلالة على تقديم استقالته من العمل في مستشفي بليدة محتجا على ما لمسه ورآه، وبعدها وفي خطوة أبعد قرر فانون الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية عاملاً في صفوف الثوار الجزائريين ومساهما نشطا في فعاليات

---

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٣) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص ٦

وأحداث الثورة وبذلك يكون فانون قد وصل إلى نقطة اللا عودة ، قاطعا كل صلة له بفرنسا(الوطن الأم) وخالعا عن نفسه المواطنة الفرنسية في ذات الوقت و بانخراط فانون في فعاليات الثورة الجزائرية تمكن من دراسة المجتمع الجزائري ورصد التحولات الأساسية التي أحدثتها الثورة والكفاح المسلح في بنية الشعب ونسيجه الاجتماعي ،وضمن ذلك في كتابه المهم "خمس سنوات على الثورة الجزائرية"والذي صدر أحيانا تحت عنوان "سوسيولوجيا الثورة"

وبانضمام فانون للثورة الجزائرية يمكن القول أنه" وجد فيها ما كان ينشده، فقد كان ينشد ميدانا يؤدى فيه العمل الذي تفرضه عليه النتيجة التي توصل إليها، ميدان يسمح له أن يخوض معركة كلية ضد الاستعمار بجميع أشكاله الظاهرة والخفية الحسية والمعنوية، فقد كانت الثورة الجزائرية هي ميدانه المفضل، وكان فانون وهو"يقطع كل صلة له بماضيه .....يتهيأ؛ لأن يصبح جزائريا ..لأن يندمج كليا في الثورة الجزائرية؛ لأنه وجد في هذه الثورة ضالته ، أنها هيأت له فرصة الانتماء إلى وطن أفريقي، يشبع نهمه للنضال وحماسه للعمل، ومن ثم أصبح يشعر بأنه ارتقى إلى مرحلة أسمى من مراحل العمل النضالي "[1].

وفي نطاق الثورة الجزائرية تم أول اتصال لفانون بأفريقيا السوداء في نهاية عام ١٩٥٨ بتعيينه عضوا ضمن الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا عاصمة غانا وهناك تعرف على نكروما ..ولومومبا..كما تعرف على فيليكس مو ميه"[2].

وللثورة الجزائرية والممارسة الفعليةِ في إطارها دور كبير في إنضاج أفكار فانون للدرجة التي يمكن التمييز فيها بين مرحلتين من مراحل تطوره الفكري " فهناك عهدان منفصلان عن بعضهما في تفكير فانون : عهد ما قبل الثورة الجزائرية ، وعهد الثورة الجزائرية "[3].

وباندماجه في الثورة اندماجا كلياً كتب فانون كتابات عديدة هي خلاصة ملاحظاته على المجتمع الجزائري كما انه درس البنية الاجتماعية الجزائرية ولمس كيف

---

(١) محمد الميلى، م س ذ، ص ١٠٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٠.

أن هذه البنية تأثرت وتغيرت وتطورت جذريا مع تطور مراحل الثورة المسلحة، فظهر مؤلفه "خمس سنوات على الثورة الجزائرية" أو "سوسيولوجيا الثورة" وكتب عدة مقالات في صحف الثورة نشر بعضها فيما بعد في كتابه "من أجل أفريقيا".

ولقد اكتسب فانون بعد أن أوكل إليه مهمة تمثيل الثورة في كافة المحافل الأفريقية،خبرة في التعامل مع حركات التحرير الأفريقية، وانتقاله بسبب هذه الخبرة إلى ما اعتبره البعض مرحلة التفكير الأممي وهذه المرحلة هي التي قدم فيها أهم كتبه " معذبو الأرض".

وللتحدث عن فانون والثورة الجزائرية، فذلك عنوان عريض يغطى مساحة بأكملها ،وفي هذا المجال نكتفي بالقول، أن تجربة الانتقال والعمل في الجزائر والانضمام للثورة هي من الملامح الأساسية في حياة فانون وكان لها دورها الرئيسي في تكوينه وتطوره، ونظراً للدور المهم الذي كان يقوم به فقد حظي فانون باحترام بالغ في أوساط المفكرين والثوريين الجزائريين وعنه قال بن بيلا: " لم يكن فانون رفيقا في المعركة فحسب ولكنه كان مرشدا وموجهًا ؛ لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكري و السياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية"[(١)].

وفي حفل تأبينه ،ذكر أحد قادة جيش التحرير الجزائري " ..كان فانون مخلصا، ثار ضد الاستعمار والعنصرية ومبكرا منذ ١٩٥٢ وكان له دور نشط في حركات التحرير"[(٢)].

ومن كل ما سبق بتنين الدور الكبير الذي لعبته الثورة الجزائرية في حياة فانون الفكرية والعملية.

السمات الشخصية :

يمكن التعرف على صفات أي شخص وملامحه من خلال ما يقوله أو يكتبه عنه الآخرون ومن تتبع آرائه الشخصية حول مختلف القضايا و مواقفه العملية واختياراته في الحياة، وبهذا المعنى فإن معظم من كتبوا عن فانون وتعرفوا عليه

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٤.

(2) David Caute, **Op.cit.**, P.34.

شخصيا وعملوا معه يشيدون به، وأحد هؤلاء محمد الميلي وهو مثقف وسياسي جزائري عمل مع فانون في صحيفة المجاهد الجزائرية وهي أحد المنابر الإعلامية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، كتب عن فانون واصفا إياه "بأنه من صنف المثقفين الذين يتخذون المواقف القصوى ولا يهضمون المواقف المترددة، وأن الظروف التي تحكمت في حياته قد هيأته لهذه الجذرية وقال عنه أيضا "أنه عُرف بدقة الملاحظة ورهافة الحس" وعن نزعته الإنسانية يقول "إن موقف فانون من العنصرية وعنفه ضدها هو موقف إنساني"[(١)] وأنه "كان مؤمناً بالإنسان وكان يمجده كقيمة.... ولا شك أن هذا الإيمان قد هيأ فانون؛ لأن يحتضن قضية الإنسان في الجزائر".

ومن كتابات فانون نفسه نجد ما يعبر عن هذه النزعة فهو الذي كتب قائلا "لا أريد أن أتغنى بالماضي على حساب الحاضر والمستقبل، أنا أريد شيئا واحدا. نهاية استعباد الإنسان للإنسان، واستعباد الآخر لي، ذلك سيضمن لي أن أكتشف وأن أجد الإنسان في أي مكان يكون "[(٢)] وفي خاتمة كتابه معذبو الأرض يقول: "لا يجب أن نفرض على الإنسان إيقاعا سرعان ما يفسده ويفقده سلامته، يجب ألا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الإنسان وننزعه من ذاته وأن نحطمه ... نحن لا نريد اللحاق بأحد، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت، ليلا ونهارا، في صحبة الإنسان، في صحبة جميع البشر، وعلينا أن نجعل القافلة تسير متراصة وغير متباعدة وإلا لم يستطع أي صف من الصفوف ان يرى الصف الذي تقدمه"[(٣)].

وعن سجايا فانون يقول دافيد كوت: " لقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه أمام فانون ليلتحق بصفوف النخبة السوداء ولكن بعض السجايا والقوى الشخصية المميزة للرجل ،دفعت به بعيدا عن الإفادة من مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة،ذلك أنه غدا متمردا ثم ثوريا"[(٤)].

ومن ملامح تكوينه النفسي ،أنه كان متسائلا دوما وإنساناً دائم التساؤل هو إنسان دائم التطور والتجدد لا يقف أو يتجمد عند مرحلة معينة، وفي نهاية كتابه الأول يكتب قائلا:" ..صلاتي الأخيرة، اجعلني ذلك الرجل الذي يتساءل دائما"[(٥)]

---

(1) Ibid., P.64.
(2) David Macey, **Frantz Fanon : Abiografy** (N.Y.: Picador Press , 2000) P.12.
(٣) فانون، معذبو الأرض م س ذ، ص ٢٩٨.
(4) David Caute, Op.cit., P.8.
(5) Idem.

ويلمس الميلى في فانون هذه الروح المتسائلة فيكتب "...كانت بداية خرج بها فانون من التساؤل الأصغر إلى التساؤل الأكبر ومن التساؤل عن مصير الإنسان الفرد إلى التساؤل عن مصير الوطن "[(١)] هو إذن إنسان دائم التطور والتجدد.

ومن اختيارات فانون في الحياة وممارساته العملية ترصد الكتاب عددا من المواقف الدالة على سماته الشخصية وتكوينه النفسي...ومنها

تطوعه للقتال ضد الفاشية والنازية ،وهذه مسألة بالغة الأهمية يتوقف عندها الباحث ،ليرى أمامه فتى في السابعة عشرة من عمره يذهب بعيدا عن وطنه للقتال طواعية إلى جانب قضية يقتنع بعدالتها، و إنسانٌ بهذا التكوين ،تتملكه نزعة فطرية تدفع به إلى الوقوف بجانب قضية من قضايا العدل والحرية(حيث تنتفي أية دوافع أخرى) لابد أنه يمتلك نزعة إنسانية قوية وهى نفسها التي ستقود خطواته المقبلة المعززة بثقافة واسعة وبخبراته العملية ، مما حدا بالبعض أن يعتبره "مناضلاً أممياً يعشق الحرية ويقدس العدالة ويقف إلى جانب المضطهدين أينما كانوا"[(٢)] .

وتكتب عنه " Marcel Uwineza SJ " : أنه يعتقد أن الإنسان إذا كان قدره أن يعيش أو يموت ،فيجب أن يكون ذلك من أجل قضية، وهو مقتنع بأن الإنسان يجب أن يقبل خطر الموت من أجل ولادة الحرية"[(٣)] .

خطاب استقالته من عمله بمستشفي بليدة بالجزائر، وخطاب الاستقالة هذا، وثيقة كافية للدلالة على أي طراز من الرجال كان هو ومما جاء في هذا الخطاب: "منذ شهور عديدة وضميري مقر لنقاش حاد. وخلاصة ذلك النقاش هو التصميم على عدم اليأس من الإنسان، أي عدم اليأس من نفسي، ولذلك صممت على أن لا أتحمل مسؤولية موقف سلبي يقتنع بأن لا مكان لأي عمل"[(٤)] .

فحينما عايش فانون واقع المرضى المحزن وتوصل إلى قناعة باستحالة أدائه لوظيفته كما يراها هو قدم استقالته، ذلك يعنى كم هو صادق مع نفسه، ويعنى أيضا

---

(١) محمد الميلى، م س ذ، ص ١٢٠.

(٢) محمد الميلى ،م س ذ، ص ٤٣ .

(3) SJ Marcel Uwineza SJ, **Zimbabwe: the Prophetic Voice of Frantz Fanon** http://www.thinkingfaith.org/articles/20080623

(4) Fanon, Frantz, Haakon Chevalier (Translator),**Towards The Afrivan Revolution** (N.Y.: Grove Press,1988) P.54.

أنه لا يعرف المواقف المترددة وأنه يقرن الفكر بالعمل. ويعزز من مصداقية هذا التقييم انضمامه اللاحق للثورة الجزائرية ، والذي يجسد بدوره كل صفات وخصائص فانون النفسية والفكرية،ومن جذرية في السلوك وقدرة على اتخاذ أخطر القرارات و التجدد والتطور.

تعامله مع المرض

ودائما محنة المرض والألم كاشفة لجوهر الإنسان وخصائصه، فماذا والمرض لا أمل في الشفاء منه، فقد واجه فانون هذه المحنة بشجاعة، وبرغم نصح قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري له بالراحة والتماس العلاج إلا أن إجابته كانت دائما طالما كانت الجزائر مستمرة في نضالها، فلن أوقف نشاطي وأستمر في نشاطي حتى يومي الأخير "[1].

وفي خطاب أرسله لأحد أصدقائه في صيف ١٩٦١ ": لقد علمت أن لدى ثلاثة أعوام أو أربعة أخرى أعيشها ولهذا أصبح من الضروري أن أسارع إلى قول وعمل أقصى ما أستطيع "[2] ، ولهذا نجد فانون وقد بذل جهداً مكثفا للانتهاء من مؤلفه الهام (معذبو الأرض) ، لاستشعاره المسؤولية عن هذا العمل المهم ، والذي يعتبره البعض إنجيل المضطهدين ، وبالفعل انتهى من كتابة مؤلفه، وتم نشره قبل أيام من وفاته، هذه القدرة على الإنجاز ، وفي مثل ظروف كهذه ، تنبئ عن درجة عالية من الإخلاص للهدف والقضية التي كرس نفسه لها، وتنبئ أيضا عن روح جسورة لا تنكسر أمام هاجس الخوف من الموت ولا يقضي عليها إلا الموت نفسه، فقبل وفاته بأربعة أسابيع كتب لصديق له: " روجر ...ما أريد أن أقوله، هو أن الموت يلازمنا دائما فليست المسألة هي كيف نهرب منه ولكنها ما إذا كنا قد حققنا أقصى ما نستطيع للأفكار التي عملنا من أجلها، والذي يهزني حقيقة في سرير مرضى ليس حقيقة أنى سأموت ولكن أن أموت بمرض اللوكيميا في واشنطون، بينما كان يمكن أن أموت منذ ثلاثة أشهر في مواجهة مع العدو...نحن لسنا شيئا يذكر على هذه الأرض إذا لم نكن في المقام الأول عبيدا لقضية، قضية الناس، قضية العدل والحرية، أريدك أن

(1) David Macey, **Op.cit.**, P.3-4.
(2) David Caute, **Op.cit.**, P.65.

تعرف أنه برغم إحباطات الأطباء والظلمة المتجمعة، أنى مازلت أفكر في الناس الجزائريين، في ناس العالم الثالث، وأن كل ما قمت به كان من أجلهم "[1].

هذا النص وبدون حاجة إلى تعليق يكفي بكلماته المشحونة بالمضامين والدلالات ليكون دليلا على طبيعة التكوين النفسي لفانون.

(1) Renate Zahar, **Op.cit.**, P.XX.

المبحث الثاني

قضايا العصر والتحديات الكبرى

في المرحلة التي عاصرها فانون

والنطاق الزمني المناسب لتحديد الإطار التاريخي لهذه المرحلة، يبدأ منذ ما قبل بداية القرن العشرين بقليل، إلى سنوات انعقاد مؤتمر برلين في أخريات القرن التاسع عشر في عامي ١٨٨٤ / ١٨٨٥ وإلى ما بعد منتصف القرن العشرين، ويلزم التنويه إلى أن تحديد هذا النطاق الزمني هو مجرد مسألة إجرائية، باعتبار أن أي مرحلة تبدأ في التكون في زمن أبعد بكثير من بدايات تبلورها وبنفس المعنى يكون امتدادها في المستقبل، وتحديد هذه الفترة يجد مبرره في أن فانون ولد عام ١٩٢٥ م وتوفي عام ١٩٦١ م، فقد شهد هذا القرن منذ بدايته أحداثا جساما غير مسبوقة كما اتسمت هذه المرحلة بعديد من الأحداث الكبرى والقضايا المهمة التي تركت بصماتها وفرضت نفسها على مفكري ومثقفي العصر وكانت لهذه القضايا وأسلوب التعامل معها انعكاساتها المؤثرة سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الفكري، وفي هذا السياق يمكن رصد ثلاثة قضايا أساسية هي الأبرز والأكثر تأثيرا في سياق وحركة الأحداث ،يتم تناولها في على النحو التالي:

أولا : ويتناول قضايا الاستعمار والعنصرية.

ثانيا : ويتناول قضايا التحرر الوطني.

ثالثا : ويتناول قضايا التفاوت الاقتصادي مابين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث.



أولا : الاستعمار والعنصرية

نعنى بالاستعمار شكله القديم وهو الاستعمار العسكري المباشر ونمطه الحديث الذي تحول إليه متكيفا مع المتغيرات الدولية وهو ما أصطلح على تسميته بالاستعمار الجديد مرورا بالاستعمار الاستيطاني العنصري، مع توضيح آليات السيطرة والاستغلال والذرائع التي يقدمها المستعمُرون تبريرا لهذا الاستغلال ومنتهيا بآثار السيطرة الاستعمارية على القارة الأفريقية.

١- الاستعمار القديم

عرفت البشرية منذ القدم عمليات الغزو والاحتلال تحت شعارات ولأسباب مختلفة، اتخذت في بعضها رداءا عقيديا، يخفي ورائه الدوافع الحقيقية لعملية الغزو والتوسع الإمبراطوري ،فعرفت البشرية قديما فتوحات الإسكندر الأكبر وقيام الإمبراطوريات الكبرى كالإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية التي حكمت البحر المتوسط كله، مرورا بالحروب الصليبية وانتهاءً بالإمبراطورية العثمانية. لكن الاستعمار بمفهومه الحديث يعود إلى تاريخ قيام النهضة الأوروبية ابتداء من القرن الخامس عشر وتعزز السلطة المركزية في عدد كبير من الدول الأوروبية وتزامن ذلك مع بدء الثورة الصناعية الأولى وظهور الحاجة إلى البحث عن مناطق غنية بالموارد الأولية ،فتم التركيز على حركة الكشوف الجغرافية التي توصلت إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وصولا إلى الهند من ناحية وإلى اكتشاف الأمريكتين وأرض العالم الجديد من ناحية أخرى.

ومنذ ذلك الحين بدأت تجارة العبيد على الشاطئ الغربي لأفريقيا بعد ما أقامت البرتغال محطات تجارية في هذه المنطقة بما فيها محطات لتجارة العبيد، ويرجع بعض المؤرخين بداية ظاهرة الاستعمار الحديث إلى تأسيس المستعمرة البرتغالية في سبته على الشاطئ الغربي لأفريقيا واعتبارها أول عملية لتوسيع سيطرة دولة أوروبية خارج القارة الأوروبية خلال القرن الخامس عشر. ومنذ ذلك الحين تحول الاستعمار إلى أن يكون ظاهرة سياسية ،اجتماعية ،ثقافية واقتصادية بمعنى أنه ظاهرة شاملة تتضمن إقامة مستوطنات أوروبية خارج أوروبا منذ القرن الخامس عشر، والاستعمار

بمفهومه الحديث يعني سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها عليها بهدف استغلال مواردها المادية والبشرية بالاستيلاء على هذه الموارد أو فتح أسواق جديدة لتصريف منتجات بلادها أو البحث عن مجالات جديدة للاستثمار في الدول المستعمرة التي تعتبر بلادًا بكرًا لم تمس مواردها بعد وبهذا المعنى فإن الاستعمار يوصف بأنه عملية نهب وسلب منظم لثروات البلاد المستعمرة.

وتاريخيا فقد ازداد التوسع الاستعماري خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ويكمن تفسير ذلك في أن الدول الأوروبية بعد أن حققت ثورتها الصناعية الأولى وتمكن بورجوازياتها من تحقيق وإقامة الدولة القومية وانتهاجها أسلوب الإنتاج الرأسمالي اتجهت للتوسع ودخلت في مرحلة من التنافس والصراع فيما بينها من أجل الاستحواذ على المناطق الغنية بالمواد الخام والأولية اللازمة لمصانعها ولفتح أسواق جديدة أمام منتجاتها ،و أدركت الدول الأوروبية ضرورة تنظيم هذا الصراع حفاظا على مصالحها فبدأت في تقسيم مناطق النفوذ الاستعماري فيما بينها ،وهذا ما تم الاتفاق عليه في مؤتمر برلين المنعقد في عامي ١٨٨٤ / ١٨٨٥.

٢- الاستعمار الجديد

يعتبر الاستعمار الجديد هو التطور في الظاهرة الاستعمارية وانتقالها من الطور التقليدي المباشر إلى الطور غير المباشر والأكثر تنوعا وتعقيدا في أدواته وأساليبه[1]،واضطر الاستعمار للانتقال إلى هذا الشكل الجديد في استجابة وتكيف مع المتغيرات الدولية والتي تمثلت في ظهور دول الكتلة الاشتراكية بأيديولوجيتها القائمة على معاداة الاستعمار وكذلك زيادة الوعي السياسي والفكري لدى الشعوب المستعمرة وأتساع نطاق حركات التحرر الوطني وبعدما أدرك أن القوة ليست هي الوسيلة الوحيدة التي يتذرع بها للإبقاء على مستعمراته، ويكمن خطر الاستعمار الجديد في أنه يستخدم أساليب أكثر تمويها في السياسة الاستعمارية وينتهج أساليب

(١) محمد محمود ربيع و إسماعيل صبرى مقلد، موسوعة العلوم السياسية (الكويت :جامعة الكويت ،ج٤، دت) ص٧٧١.

السيطرة غير المباشرة على الدول المستقلة حديثا[١].

أساليب الاستعمار الجديد وأدواته.

ويعمد الاستعمار الجديد إلى اتباع طرق متعددة وأساليب وأدوات متنوعة لتحقيق أهدافه منها ما هو اقتصادي وما هو سياسي أو عسكري، فاقتصاديا يعتمد على سيطرة المصالح المالية الضخمة على الدول المستقلة استقلالا صوريا بغية الإبقاء على تخلفها الاقتصادي وضمانا لاستمرار نزح ثرواتها وتعتبر القروض والمساعدات المالية من بين الأدوات الاقتصادية التي لا تستخدم-في الأغلب- لأغراض التنمية والإنتاج ولكنها تخصص لتمويل الاستهلاك السلعي، وبمرور الوقت فإن الديون وفوائدها تتراكم وتشكل عبئا تعجز الدول عن سداده، مما يتيح مجالا للتدخل المباشر في شئونها ،وذلك ما أكدته حركة الأحداث منذ ثمانينات القرن العشرين. وعلى النحو الذي لوحظ في سياسات صندوق النقد الدولي وفرضه شروطا تعسفية على الدول المقترضة بضرورة تنفيذ سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي وتدخله بفرض سياسات معينة في غير صالح شعوب الدول الفقيرة وتصب في النهاية في صالح دول المراكز الاستعمارية السابقة، وسياسياً يتبع الاستعمار سياسات فرق تسد التقليدية بإذكاء حدة الخلافات باستعمار الجديدين الدول المستقلة حديثا وإثارة مشاكل الحدود بينها وإثارة النزاعات الوطنية المحلية الضيقة إدراكا من القوى الاستعمارية أن إدامة استغلالها لن تتأتى إلا نتيجة تقسيم القارة "وإن عملية التقسيم هذه هي السلاح الماضي في يد الاستعمار الجديد وسوف تجده في كل مكان يمارس فيه هذا الاستعمار الجديد "[٢] ،ويهدف ذلك الأسلوب إلى صرف أنظار البلاد المستقلة حديثا عن القيام بتنمية حقيقية تحشد لها مواردها وتستنزف جهدها كله بإغراقها في مشاكل من النوع الذي سبق الإشارة إليه. [٣]

وعسكريا يتم تكبيل الدول المستقلة حديثا بإدخالها ضمن منظومة من

(١) كوامى نكروما، عبد الحميد حمدى (مترجم) **الاستعمار الجديد آخر مراحل الإمبريالية** (القاهرة: دار القاهرة للطباعة والنشر، ١٩٦٦) ص٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠.

(٣) لمزيد من أساليب الاستعمار الجديد انظر ص ٥١-٥٢ من الكتاب

التكتلات والأحلاف العسكرية تحت دعوى توفير الأمن والحماية لها ولكن واقع الأمر أن هذه التكتلات تتم في مواجهة موجة التحرر وسياسات الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ولمحاولة حصر المد الاشتراكي ويذكر في هذا السياق محاولة إقامة حلف بغداد في عام ١٩٥٤ والتي منيت بالفشل في حينها.

أهداف الاستعمار الجديد

لا يختلف الاستعمار الجديد في أهدافه عن الاستعمار القديم، ويرى نكزوما "أن الاستعمار الجديد-مثل الاستعمار القديم-هو محاولة لتصدير الصراع الاجتماعي الموجود في البلاد الرأسمالية"[١] وإن كان "جوهره يكمن في أن يكون للبلاد المستعمرة استقلالا نظريا أما نظامها الاقتصادي ودفتها السياسية فتوجه من الخارج"[٢]، وفي هذه الحالة فإن رأس المال الأجنبي يستخدم في استغلال البلاد المتخلفة أكثر مما يستخدم للنهوض بها، ويؤدى الاستثمار في ظل الاستعمار الجديد على توسيع الهوة بين الدول الغنية والدول الفقيرة لا على تضييقها، كما أنه يعمل على تفتيت البلاد المستقلة حديثا لكيلا تستطيع النهوض بنفسها ويحول بينها وبين التنمية المستقلة وإبقائها على حالة من التخلف واحتياجها الدائم إلى الدول الاستعمارية الأم

و مجمل القول أن الاستعمار الجديد الذي حل محل الاستعمار القديم هو نفسه في أهدافه، الجديد فيه هو أساليبه المتبعة.

٣- أفريقيا والاستعمار

عرفت أفريقيا وعانت من كافة أشكال الاستغلال الاستعماري، بدءا من تجارة الرقيق وازدهار التجارة المثلثة عبر الأطلنطي وكانت البرتغال أول دولة أوروبية مارست تجارة الرقيق في أفريقيا عام ١٤٤١م وتركت هذه التجارة آثارها المدمرة على

(١) المرجع السابق، ص ٩.
(٢) المرجع السابق، ص ص ٣-٤

القـارة[1]، فتـدهورت الحيـاة الاقتـصادية فيهـا كـما كـان لهـا انعكاسـاتها النفـسية والاجتماعيـة البالغـة الـسوء عـلى الحيـاة في المجتمـع الأفريقـي فـضلا عـن امتـداداتها السياسية وما أدت إليه من تفكك سياسي[2] جعـل الـبلاد الأفريقيـة مهيـأة للوقـوع في القبضة الاستعمارية.

كما تعرضت القـارة الأفريقيـة إلى الحمـلات الاستكـشافية في القـرن الخـامس عشر الميلادي ولاسيما في المناطق الساحلية وتواصلت هذه الحملات حتى تم التوسـع الاستعماري في أواخر القرن التاسع عشر[3] "ولقـد وصـلت إلى هـذه الـبلاد أسـاطيل البلاد الكشوف الجغرافيـة ، ومـن بعـدها جـاءت أسـاطيل الـدول الأوروبيـة للتجـارة والغزو وعرف العالم نهب الثروات وتكريس خيراتها لخدمة أوروبا الرأسمالية[4].

وأمام التنـافس الاسـتعماري والتكالـب عـلى المستعمرات عقـد مـؤتمر بـرلين للاتفاق على تقسيم المستعمرات ،وهـدف مخطـط التوسـع الاسـتعماري الإنجليـزي في أفريقيـا إلى إنـشاء سلـسة قويـة مـن المـستعمرات مـن رأس الرجـاء الـصالح جنوبـا إلى الأسكندرية شمالا ،بينما كان المخطـط الفرنـسي يـستهدف إنـشاء مـستعمرات تمتـد مـن المحيط الأطلنطي غربا إلى البحر الأحمر شرقا[5]، والترجمة العملية لـذلك المخطـط أنـه يؤدى في النهاية إلى تطويق القـارة وإحكـام القبـضة الاسـتعمارية عـلى أركانهـا الأربعـة، ولأن للاستعمار أنماطه المتعددة كما ذكـر سـابقا فـإن أفريقيـا خـبرت عـلى طـول تاريخهـا كافة هذه الأنماط ،فخضعت أفريقيا بالكامـل للاسـتعمار التقليـدي المبـاشر مـن جانـب الـدول الأوروبيـة بريطانيـا وفرنـسا وإسـبانيا والبرتغـال وألمانيـا وإيطاليـا عـبر مراحـل وفترات زمنية مختلفة ،كما عانت أفريقيا من ويلات الاستعمار الجديد الـذي عمـل عـلى تفتيـت القـارة والوقـوف أمـام تحقيـق وحـدتها والإبقـاء عـلى تخلفهـا وزيـادة اسـتغلاله

(١) د. حمدى عبد الرحمن حسن ، دراسات في النظم السياسيه الأفريقيه (القاهره : كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ٢٠٠٢) ص ص ٥٧-٥٨

(٢) ى سافليف و ج فاسليف، أمين الشريف (مترجم) موجز تاريخ أفريقيا (القاهرة :دار الطبالة الحديثة، د.ت) ص٤٠

(٣) المرجع السابق، ص٤١

(٤) د. عبد الملك عودة، سنوات الحسم في أفريقيا ١٩٦٠/ ١٩٦١ (القاهرة:مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩) ص٣٣.

(٥) ى سافليف و ج فاسليف، م س ذ، ص ٦٠.

لمواردها الضخمة ،وأيضا فقد شهدت القارة الاستعمار الاستيطاني بدءا من الاستيطان الهولندي في جنوب لأفريقيا عام ١٦٥٢م والاستيطان البريطاني فيها منذ ١٨٢٣م، هذا الاستعمار الذي أفرز التفرقة العنصرية التي استمرت القارة تعانى منها حتى نهاية القرن العشرين قبل إنهاء نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا[١].

ويمكن إيجاز آثار السيطرة الاستعمارية على القارة فيما ذكره نكروما "من أن أفريقيا تدفع ثمنا باهظا على شكل أرباح خيالية تدخل جيوب الرأسمالية في الغرب، كان في أول الأمر نتيجة الاتجار في شعوبها ثم نتيجة الاستغلال الاستعماري، إن عملية إنهاء جانب عن طريق استغلال جانب آخر قد جعل الاقتصاد الأفريقي عاجزا عن التصنيع"[٢]، كما أن الدول الاستعمارية بسياساتها المتبعة عملت بدورها على توسيع الهوة مابين دولها والدول المستعمرة ذلك أنها أعاقت التطور الطبيعي الذي كان من الطبيعي أن يحدث في هذه البلدان كما عملت على تقويض الأبنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبذلك تكون الدول الاستعمارية قد وفرت كل شروط التخلف الذي ظلت أفريقيا تعانى منه طوال الفترة الاستعمارية والذي امتدت آثاره إلى اليوم.

ثانيا : قضية التحرير الوطني :

تم استعراض قضايا الاستعمار والتفرقة العنصرية، وكيف أن أجزاء كثيرة من العالم خضعت للنظام الاستعماري، ونتناول هنا القضية التي تناقض الظاهرة الاستعمارية وهى قضية التحرير الوطني التي سعت إلى تحرير الشعوب المستعمرة وإلى التخلص من الاستعمار برمته وتصفية آثاره تصفية نهائية،ولما كان الأمر كذلك وكانت المرحلة الاستعمارية ملازمة لمرحلة النمو الرأسمالي وكان التوسع الاستعماري واستغلال موارد الدول المستعمرة ضروريا أيضا لتوفير شرط التراكم الرأسمالي الضروري لعملية التوسع الرأسمالي، فإن ذلك يعنى "أن التلازم في حركة التحرير

(١) عن الآثار السلبية لنظم العبودية والاستعمار في أفريقيا انظر

Hussein Abdilahi, Bullhan, **Frantz Fanon and the Psychology of Oppression** (N.Y.: Plenum press, 1985).pp.43-44

(٢) نكروما،م س ذ ، ص٢٧.

الوطني بين العداء للإمبريالية والعداء للرأسمالية قائم بالضرورة"[١].

والجدير بالذكر "أن حركات التحرير الوطني تبدأ في التشكل والنهوض حال إنكار الاعتراف السلمي بالاستقلال الوطني للشعوب المستعمَرة"[٢].

وفي هذا السياق يتم التعرف إلى الظروف والمتغيرات الدولية والأسباب والشروط التي هيأت لنهوض حركة التحرير الوطني ونرصدها على النحو التالي:

١- قيام حروب عالمية كبرى خلال النصف الأول من القرن العشرين:

وتعتبر هذه الحروب حروبا أوروبية بالأساس قامت بها وقادتها دول المراكز الاستعمارية الأوروبية الرأسمالية جرت إليها وورطت فيها الدول الخاضعة والتابعة لها، ولقد كان لنتائج هذه الحروب آثارا بعيدة المدى وقد أفضت إلى تأثير مزدوج فإنها من ناحية:

أدت إلى إضعاف الدول الاستعمارية.... وإذا كانت الحرب الأولى قد انتهت بهزيمة ألمانيا وتكريس سيادة وهيمنة فرنسا وبريطانيا على العالم ،فإن الحرب الثانية حملت معها بداية نهاية الدور الفرنسي والبريطاني وكانت إيذانا بقرب زوال إمبراطوريتيهما خارج حدودهما ، وبداية ظهور الدور الأمريكي الذي سعى للحلول محلهما ،فأضعف قبضتهما الاستعمارية وإن كان ذلك لم يمنع مظاهر التصلب والتشدد والمواجهة العنيفة والقاسية التي واجه بها الاستعمار حركات التحرير الوطني على غرار المواجهات العنيفة التي حدثت مع حركة التحرير الوطني الجزائرية إبان الكفاح المسلح.

ومن ناحية أخرى فقد فرضت ضرورات الحرب تجنيد الملايين من الآسيويين والأفارقة من أهالي المستعمرات للخدمة في جيوش الدول المستعمرة، وقامت القوات الأفريقية " بدور كبير في القتال ضد النازي في أفريقيا وأوروبا الغربية فكان يوجد ٢٦٠٠٠٠ مائتي وستون ألف جندي أفريقي من بين ٤٠٠٠٠٠ أربعمائة ألف مقاتل تتألف منهم قوات فرنسا الحرة التي قاتلت في فرنسا"[٣]، وتعلم الأفارقة

(١) مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة تأثير الفكر الإشتراكي في حركة التحرر الوطني (بيروت: دار الفارابي، ط٥،١٩٨٦) ص ٧.

(2) José da Mota-Lopes, **op.cit.**, P.49. 2

(٣) ى سافليف و ج فاسليف، م س ذ ،ص ١٠٦.

الكثير خلال الفترة التي خدموا فيها في جيوش الدول المستعمرة وفي هذا الخصوص يقول د. عبد الملك عودة "فالحرب العالمية الثانية استلزمت قسطا كبيرا من الدعاية والنشاط الفكري للديمقراطية ضد الفاشية والنازية ،كما استلزمت نقل ملايين الأفريقيين للقتال في أوروبا والشرق الأوسط ومن مجموع هذا شاهد الأفريقيون وتعلموا الكثير، وبانتهاء الحرب سّرح كل هؤلاء وعادوا إلى حياتهم السابقة في أفريقيا... وفي المؤلفات السياسية الحديثة إشارة دائمة إلى أن أوائل الاضطرابات وبذرة القلق بعد الحرب كانت من هؤلاء المسّرحين من الخدمة العسكرية أو المدنية المرتبطة بعمليات القتال وما حدث في الكونغو وغانا وغينيا أمثلة على هذا "[1] كما أن الحرب وسعت أفق " أرائهم السياسية وتوطدت صلاتهم مع العناصر الديمقراطية في أوروبا الغربية وأنحاء العالم وبعد نهاية الحرب أسهم المحاربون القدماء في معركة التحرير الوطني"[2] ، وفي ذلك يقول نكروما "إن المحاربين الذين اشتركوا في حرب ١٩٣٩م عادوا إلى ساحل الذهب ناقمين على وضعهم بعد أن أتيحت لهم الفرصة لمقارنة حالهم بحال غيرهم من الشعوب"[3]، وكذلك فقد أحدثت الحرب " نوعا من التغييرات السياسية والاجتماعية ....وتجلى الوعي والنشاط السياسي في تكوين الأحزاب والمنظمات السياسية التي انضمت إلى حركة الكفاح ضد الاستعمار والإمبريالية"[4] و مشاركة الأفارقة في هذه الحرب لابد وأنه ساهم في إمداد الشعوب الأفريقية بخبرات عسكرية وقتالية كان لها دورها أثناء الكفاح المسلح.

وهنا يلزم الإشارة إلى أن فانون نفسه كان أحد هؤلاء المقاتلين إلى جانب جيش فرنسا الحرة أثناء الحرب العالمية الثانية وذلك مما يعطى التحليل السابق مصداقيته، ويدعم ذلك ما ذكره فانون في أحد المقالات التي كتبها موجها حديثه فيها إلى شباب أفريقيا ومدغشقر وجزر الأنتيل ما يتفق و التحليل السابق" يا شباب أفريقيا ومدغشقر وجزر الأنتيل، إن جنود أوطانكم الذين جندوا بالقوة في صفوف الجيش الفرنسي قد التحقوا بحماسة بصفوف جيش التحرير الوطني، وهاهم الآن يتابعون مع الوطنيين الجزائريين جنبا إلى جنب كفاحا بطوليا ضد العدو المشترك "[5]

---

(١) د.عبد الملك عوده سنوات الحسم في أفريقيا، م س ذ، ص ١٨
(٢) ى سافليف و ج فاسليف، م س ذ، ص ١٠٨.
(٣) نفسه
(٤) المرجع السابق، ص١١ .
(٥) فانون ، من أجل لأفريقيا، م س ذ، ص١٢١.

وهكذا نرى أن تأثيرات الحروب العالمية بإضعافها للدول الاستعمارية، عملت على تفكيك النظام الاستعماري، فضلا عما أمدت به الأفارقة من خبرات وتجارب ساعدت على نهوض حركة التحرير الوطني ومكنتها من تحقيق انتصارات ملموسة وليس أدل على ذلك من أنه في خلال السنوات العشر التالية؛ لانتهاء الحرب الثانية من ١٩٤٤م حتى ١٩٥٤م حصلت خمسة عشر دولة على استقلالها منها أربعة عشر في آسيا وليبيا في أفريقيا.

٢- تغير موازين القوى العالمية:

وهذا التغير هو أحد نتائج الحرب العالمية الثانية،ولأهميته الشديدة فقد رؤى إظهاره كعامل فاعل من عوامل نهوض حركة التحرر الوطني ،فلقد رأينا سابقا كيف أن الهيمنة الفرنسية البريطانية قد ضعفت قبضتهما على العالم على الرغم من أنهما كانا ضمن جبهة الحلفاء المنتصرة، ويعود السبب في ذلك إلى أن هذا الانتصار قد تحقق بفعل تدخل قوتين أخريين تماما. دخلا بقوة على الساحة وهما الولايات المتحدة الأمريكية من جانب والإتحاد السوفييتي من جانب آخر.

أدى تدخل الولايات المتحدة الأمريكية إلى إضعاف القوى الاستعمارية القديمة، وذلك في إطار الصراع والتنافس الرأسمالي وسعيها للحلول محل هذه القوى الاستعمارية القديمة،و العمل على حرمانها من مزايا مستعمراتها فكانت خطواتها الأولى في هذا الاتجاه هي الإقرار بحق تقرير المصير للمستعمرات.

وفي ذلك يكتب نكروما"...لقد لاحظ القائمون على رؤوس الأموال الأمريكية ارتفاع مد القومية في المستعمرات واعتبروا ذلك فرصة للتسلل،وكانت حركة مناهضة الإمبريالية قد بدأت تظهر في آسيا وأفريقيا قبل نشوب الحرب العالمية الأخيرة وكلما اشتدت هذه الحركة كلما أبدت أمريكا ضرورة إنهاء الاستعمار، وكان هذا متصلا بالحركات القومية المتفتحة التي تقوم في أنحاء الكرة الأرضية"[(١)].

وكذلك فإن انتصار الثورة البلشفية في روسيا القيصرية عام ١٩١٧ وظهور النظام السوفييتي إلى العلن كأول دولة اشتراكية تقوم على أساس المبادئ الماركسية

(١) نكروما، م س ذ، ص ٧٦

اللينينية، كان له آثارٌ بعيدة المدى كأول دولة يقوم نظامها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي على ركائز مختلفة كليا عن ما هو سائد في العالم وقتها من نظم رأسمالية، وبحكم طبيعة تكوينها فإنها تقف في صف معادى للنظام الرأسمالي وكذلك بانتصار الثورة الاشتراكية في الصين بقيادة ماوتسى تونج وشواين لاى، وبما تمخضت عنه أحداث الحرب العالمية الثانية من ظهور كتلة دول أوروبا الشرقية ،أصبح هناك معسكرٌ قائمٌ بذاته هو معسكر الدول الاشتراكية، مما أدى إلى تغير جذري في خريطة العالم السياسية، أحدث ذلك الوضع الجديد نوعا من التوازن على الساحة الدولية مما حجم من قدرة أي من الدول الكبرى الأخرى على فرض الهيمنة المطلقة على الدول الصغيرة ، كما وجدت حركات التحرير الوطني فيها نصيرا لقضاياها على الساحة الدولية وذلك في إطار العمل المشترك في داخل المنظمة الدولية بإصدار القرارات المؤيدة لحق المستعمرات في تقرير مصيرها والحصول على استقلالها ، وفي ساحة العمل المسلح بإمدادها بالسلاح، مما يمنحها هامشا أوسع من حرية الحركة والمناورة ويفتح أمامها خيارات بديلة وواسعة في العمل على الساحة الدولية ، وفي هذا الإطار نفسه فإن للفكر دورا يلعبه "حين نتكلم عن أثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني نقبل ضمنا بوجود دور فعال قام به هذا الفكر في توجيه هذه الحركة التاريخية فكان عنصرا من عناصرها المكونة"[1].

ويجمل د. عبد الملك عودة دور المتغيرات الدولية في نشأة حركة التحرر الوطني بقوله "...ويزيد من حدة الصدام انه يحدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية حيث ميدان العلاقات الدولية يتسم بطابع الحرب الباردة والمعسكرين الدوليين ودعوة الحياد الإيجابي وتعميق مفاهيم الاستقلال من ميدان السياسة إلى ميدان الثقافة والاقتصاد والاجتماع ، ووجود هيئات دولية تمنح فرصة التعبير عن الآمال والتنديد بالمظالم وأخيرا خروج دول شرق آسيا والشرق العربي من نير العبودية الاستعمارية إلى طور النضج السياسي والدولي والاستقلالي لتمارس دورها كاملا في الدفاع عن المظلومين والحرب ضد المستعمرين"[2].

---

(١) مهدى عامل، م س ذ، ص٢٣.

(٢) د.عبد الملك عوده، سنوات الحسم في أفريقيا، م س ذ، ص٢٧.

٣- الممارسات العنيفة للدول الاستعمارية ذاتها:

وعدت الدول الاستعمارية بمنح مستعمراتها الاستقلال بعد انتهاء الحرب الثانية ولكنها نكثت بوعودها مما دفع حركات التحرير الوطني إلى انتهاج كافة الأساليب للحصول على الاستقلال سواء كانت سلمية أو عنيفة وكان اتباع أيتهما يتوقف على مدى الاستجابة لمطالب الشعوب، لكن الدول الاستعمارية وقفت موقفا متشددا في كثير من الحالات ومارست أقسى الأساليب الوحشية وأبدت عنفا غير مسبوق في مواجهة المواطنين الأصليين ، حدث ذلك في آسيا وفي الهند الصينية حيث المواجهات العنيفة في فيتنام وكمبوديا وكما حدث في أفريقيا في مدغشقر والجزائر حيث قتل في مذبحة واحدة في مدينة سطيف الجزائرية ما يقرب من خمسة وأربعين ألفَ مواطن جزائري في ليلة واحدة من عام ١٩٤٥م، مما دفع فانون إلى القول " إن الاستعمار ليس آلة مفكرة وليس جسما مزودا بعقل إنما هو عنف أهوج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى "[١] .

ولعل أحداثا من هذا القبيل هي ما استدرج فكرة العنف إلى إدراك فانون ووعيه حتى أصبح له ما يطلق عليه (نظرية العنف عند فانون) وهذه الفكرة هي نفسها التي جعلته يرتاب ولا يطمئن إلى المسار الذي تتخذه الدول التي تحصل على استقلالها بالطرق السلمية ودون خوض غمار كفاح مسلح، وهذا ما ستتناوله الكتاب بتفصيل في الفصل التالي.

وهكذا نرى أنه بتوافر شروط قيام ونهوض حركة التحرير الوطني، فقد سعت الشعوب المستعمرة للمطالبة بالاستقلال واتبعت للحصول عليه كل الأساليب السلمية والمسلحة، وبنهاية الحرب الثانية وبدء تفكك النظام الاستعماري وصدور ميثاق الأمم المتحدة متضمنا مبدأ حق تقرير المصير للشعوب، فقد حصلت خمس عشرة دولة على استقلالها في الفترة مابين عامي ١٩٤٤م و١٩٥٤م وانضمت جميعها إلى الأمم المتحدة، وتوالى بعد ذلك حصول الدول الأفريقية على استقلالها البعض حصل عليه رضوخا للضغط الشعبي والآخر حصل عليه بعد كفاح مسلح طويل ومن بين هذه الدول تقف الجزائر نموذجا فذا.

---

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٦٤.

وقضية بحجم قضية التحرير الوطني ،لها من الاتساع والعمق ما تقصر هذه الكتاب عن الإحاطة به، حيث أن الكتاب تهدف إلى الإشارة إليها كأحد قضايا العصر وأهمها باعتبارها الرد على التحدي الاستعماري الذي كان قائما و بالتالي فرضت نفسها على مفكري العصر وشغلت حيزا من مساهماتهم الفكرية والنضالية، وفرانز فانون واحد من أبرزهم و سيتعرض الكتاب لرؤيته حول هذه القضية في سياقها.

ثالثا : قضية التفاوت الاقتصادي بين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث:

تسعى الدول الاستعمارية بالأساس وراء موارد الثروات الأولية وفتح أسواق جديدة أمام منتجاتها وإيجاد إمكانيات أوسع للاستثمار،وتحقق لها ذلك بالعمل على إخضاع الشعوب بالعنف والقوة المسلحة،فتاريخ الاستعمار هو تاريخ سلب ونهب لموارد المستعمرات المادية والبشرية[1]، وقد عانت أفريقيا من استغلال مواردها ونهب ثرواتها وذلك بالتزامن مع حركة الكشوف الجغرافية وعملية الاسترقاق التي تعرضت لها وجلب الأفارقة للعمل عبيدا في الأراضي الجديدة ،فحققت أوروبا تراكما رأسماليا في ذات الوقت الذي تم فيه تجريف قدراتها المادية والبشرية، فتأسست شركات تجارية كبرى تمارس نشاطها في أفريقيا وآسيا بهدف الحصول على المواد الخام من الأولية من المستعمرات ، وعن هذه الحقيقة يخاطب سارتر مواطنيه الفرنسيين في مقدمته التي وضعها لكتاب معذبو الأرض قائلا"...إنكم تعلمون تمام العلم أننا مستغلون إنكم تعلمون حق العلم إننا سلبنا القارات الجديدة ذهبها ومعادنها ثم بترولها وجئنا بذلك كله إلى بلادنا القديمة وقد حصلنا من ذلك على نتائج رائعة ، قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية ،ثم عندما كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة أسواق البلاد المستعمرة أن تزيل الأزمة أو أن تحول مجراها واتخمت أوروبا بالثروات ....فالإنسان في بلادنا شريك في الجريمة ؛ لأننا

---

(١) كروما،م س ذ،ص ٨١

- تقدر الإحصاءات الرسمية الأرباح التي حصلت عليها الاحتكارات الأمريكية في أفريقيا ١٩٤٦-١٩٥٩ ب ١٢٣٤ مليون دولار

أفدنا جميعا من استغلال المستعمرات"[١]،ويعبر فانون عن هذا الواقع بقوله "لقد اتخمت أوروبا ذهبا ومواد أولية من البلاد المستعمرة ...إن أوروبا إنما خلقها العالم الثالث والثروات التي تتخم أوروبا اليوم إنما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة"[٢].

وانعكس ذلك كله على صورة غنى متزايد لدول المراكز الاستعمارية وفقر يزداد حدة في الدول المستعمرة "وتزايد التفاوت بين النوعين من الدول بما يهدد بانقسام العالم إلى شمال غنى وجنوب فقير"[٣]، وما هو جدير بالذكر أن هذه الظاهرة مستمرة ولم تتوقف بل إنها تزداد تفاقما بمرور الوقت،وفي تفسير ذلك يرى د.جوده عبد الخالق، أن الماضي الاستعماري هو الذي يشكل العلاقات الراهنة بين الدول الاستعمارية ومستعمراتها السابقة والتي تتجلى في "حصول الدول الرأسمالية المتقدمة على المواد الأولية التي تنتجها الدول النامية أبخس الأثمان وبذلك تستحوذ الدول الرأسمالية على الجزء الأكبر من الفائض الاقتصادي الذي يتولد في الدول النامية"[٤].

وكمحصلة لهذه الأوضاع وبالنظر إلى الواقع الاقتصادي تبدو عدة ظواهر تشكل في مجملها السمات الاقتصادية للمرحلة، وكما في المستوى السياسي وجدنا الثنائية القطبية، فإن الواقع الاقتصادي يتميز هو الأخر بعدد من الثنائيات المتعددة، فنجد أنفسنا أمام : الفقر والغنى ، التخلف والتقدم ، المستغَلين والمستغِلين ، وعلى مستوى النظم فنجد النظام الاشتراكي جنباً إلى جنب مع النظام الرأسمالي لأول مرة في التاريخ الإنساني.

ومن طبيعة الأمور أن هذه الثنائيات هي كل واحد يجمع بينها ترابط وتداخل تدركه النظرة الباحثة المدققة.



(١) أنظر مقدمة سارتر لكتاب معذبو الارض، م س ذ، ص٣٢.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٩.

(٣) د. جودة عبد الخالق، الإقتصاد الدولى من المركز الى الهامش (القاهرة: دار النهضة العربية، ط٦، ٢٠٠٦) ص٣١٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣١٥.

١- ثنائية الفقر والغنى :

وهذه الظاهرة وثيقة الصلة بالظاهرة الاستعمارية، فالاستعمار في جوهره عملية استغلال لموارد المستعمرات ونهب لثرواتها في آن واحد وكنتيجة للتطور الاقتصادي في أوروبا وبروز دور الطبقة الرأسمالية الجديدة بثرائها الفاحش، أصبحت المصالح التجارية والصناعية تتحكم في رسم سياسات الدول الأوروبية، والتي وجدت بدورها الأراضي الأفريقية خير مجال لاستثمار رؤوس الأموال الفائضة من الاستثمار الصناعي، وعملية النهب هذه التي تعرضت لها القارة تفسر سبب الفقر المادي الذي تعانيه القارة وفي نفس الوقت تفسر الغنى الفاحش في مراكز الدول الاستعمارية.

٢- ثنائية التخلف والتقدم

وهذه الظاهرة هي سبب مباشر ونتيجة من نتائج الاستعمار، فلئن كان هناك منذ البداية اختلاف في درجة التقدم والتطور بين دول العالم الثالث والدول الأوروبية مما سهل على هذه الدول عملية غزو واحتلال واستعمار دول العالم الثالث، فإن الدول الاستعمارية عملت بدورها على تكريس وتوسيع الهوة ما بين دولها والدول المستعمرة، ذلك أنها أعاقت التطور الطبيعي الذي كان من المفترض ومن الممكن أن يحدث في هذه البلدان، وعملت أكثر من هذا على توفير شروط التخلف،بتقويض الأبنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه البلدان، كما فرضت عليها نوعا من تقسيم العمل على المستوى الدولي والتخصص في العملية الإنتاجية بما يحقق أهداف المراكز الاستعمارية،ففرضت على كل دولة التخصص في إنتاج مادة من المواد الخام والتي تتميز فيها بوفرة نسبية وذلك لتغذية الصناعة الأوروبية، وفي مجال الزراعة فرضت زراعة محاصيل نقدية معينة خدمة لهدف التصدير دونما اعتبار لاحتياجات المواطنين أنفسهم.

وضمانا لتحقيق أهدافها عملت الدول الاستعمارية على خلق وتعميق الإحساس بالدونية لدى الشعوب المستعمرة وعلى محو ثقافتها أو على الأقل تجميدها لخلق تلك الحالة التي اصطلح على تسميتها بالقابلية للاستعمار.

والنتيجة أنه بعد عقود من الاحتلال على الرغم من حصول الدول على استقلالها السياسي إلا أن الواقع يؤكد أن الاستعمار عمل على تكريس حالة التخلف لدى البلدان المستعمرة وأفاد كثيراً من نهب مواردها لتصب في عجلة تقدمه الاقتصادي والصناعي، وكل ما تدعيه الدول الاستعمارية من عمليات تحديث تمت في المستعمرات، إنما هي مشروعات محددة لخدمة وتسهيل عمليات النهب التي تقوم بها ويجد العالم نفسه أمام ثنائية تتسع فيها على الدوام الفجوة بين التقدم والتخلف.

وإذا كانت التنمية هي الطريق الوحيدة للخلاص من التخلف والولوج إلى التقدم وللتخفيف من حدة تلك الفجوة القائمة، إلا أن النظام الاقتصادي العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية يترتب عليه "...عدداً من النتائج لعل أبرزها تفاقم أزمة التنمية في دول العالم الثالث "[1].

٣- ثنائية المستغَلين والمستغِلين

لئن كان هناك دول فقيرة وأخرى غنية، ودول متخلفة وأخرى متقدمة، والدول الفقيرة هي نفسها المتخلفة والغنية هي ذاتها المتقدمة وكون ذلك من نتائج الاستعمار، فإنه يقف دليلا على أن هناك عالم من المستغَلين وعالم من المستغِلين، وذلك هو الانقسام الذي يحدثه الاستعمار في العالم ،فهو بالتبعية عالم منقسم.

٤- ثنائية الانقسام بين عالم رأسمالي وعالم اشتراكي

وهذه هي الظاهرة الأبرز والأبعد أثرا ويعود هذا الانقسام إلى تبلور كتلة كبيرة من الدول الاشتراكية مع نهاية الحرب العالمية الثانية فلم تعد الدول الرأسمالية وحدها في الميدان وأصبح هناك تنافس في الميدان الاقتصادي الدولي وأصبح هناك المثل الذي تعطيه هذه الدول، وظهور الكتلة الاشتراكية كان سببا مباشراً وراء تغير نمط الاستغلال الرأسمالي وسياسة دولة الرفاة التي أخذت بها الكتلة الرأسمالية، حيث اضطرت أنظمة هذه الدول لتقديم بعض التنازلات لشعوبها خوفا من تسرب

(١) د.جوده عبد الخالق، المرجع السابق، ص٣١٧.

الأفكار الاشتراكية إليها ، والملاحظ أنه مع انهيار منظومة الدول الاشتراكية تخلت الدول الرأسمالية بدورها عن سياسة دولة الرفاة.

وغني عن القول أن ظاهرة الثنائية الاقتصادية مابين عالم رأسمالي وآخر اشتراكي متصلة ومرتبطة بالظاهرة السياسية والتي سبق الحديث عنها والمتمثلة في بروز القطبية الثنائية على المستوى السياسي الدولي، وأنها في حقيقة الأمر المظهر والتعبير السياسي عن انقسام العالم إلى معسكرين اقتصاديين مختلفين بل ومتناقضين.

وعلى مستوى المؤسسات الاقتصادية الدولية فقد شهد العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ،سعى العالم الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة نظام اقتصادي يحل محل النظام الذي تصدع بعد الحرب العالمية الثانية، ومن أبرز التغيرات التي طرأت على قواعد التنظيم الاقتصادي الدولي، هو ظهور المنظمات الاقتصادية الدولية : صندوق النقد الدولي ، البنك الدولي للإنشاء والتعمير

وقد أُنشئت هاتان المنظمتان بموجب اتفاقية بريتون وودز الموقعة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٤م، ويأتي إنشاؤهما في ظل إعادة ترتيب للأوضاع ولضمان السيطرة الاقتصادية، وتستدعى الذاكرة هنا الدور السلبي الذي قام به البنك الدولي للتعمير والإنشاء بسحب الموافقة على تمويل مشروع السد العالي بجمهورية مصر عام ١٩٥٦م في استجابة للضغوط السياسية الغربية والأمريكية، وكذلك الدور الذي يقوم به صندوق النقد الدولي من فرض شروط على الدول النامية لمنحها قروضا من أجل التنمية وهذه الشروط هي ما أصطلح على تسميته منذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين بتنفيذ وإتباع سياسات التثبيت والتكيف الهيكلي والتي أثبتت التجارب أنها سياسات في غير صالح الشعوب الفقيرة وتحكم سيطرة الدول الرأسمالية عليها وتربطها بسياسات التبعية الاقتصادية.

وعلى هذا فإن ترتيب الأوضاع الاقتصادية التي سادت العالم منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن يصب في خانة سيطرة الدول الرأسمالية المتقدمة على غيرها من الدول النامية وأن عملية الاستغلال والإفقار مستمرة ومتمثلة في تحكم الدول الرأسمالية والصناعية المتقدمة في سياسات المنظمات الاقتصادية الدولية وتوجيهها لخدمة مصالحها وفي اتجاه مغاير لمصالح الشعوب الفقيرة شعوب دول العالم الثالث ومن بينها الشعوب الأفريقية.

المبحث الثالث

السياق الحضاري

شهدت المرحلة التي عاصرها فانون وبالتحديد فترة مابين الحربين العالميتين وما بعد انتهاء الحرب الثانية عددا من التيارات السياسية والفكرية الهامة والتي كانت انعكاسًا وتعبيرا عن تلك الأحداث التي حدثت فيها وتشكل في مجملها ملامح لحضارة العصر ساهمت في تشكيل وجدان وفكر مثقفيه.

وينقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب:

يتم في الأول دراسة التيارات والظواهر الفكرية والثقافية.

ويتناول الثاني التيارات السياسية الدولية.

أما المطلب الثالث فيتم تخصيصه للتيارات السياسية على المستوى الإقليمي.



أولا : التيارات الفكرية والثقافية

ينصرف الحديث عن التيارات الفكرية والثقافية لهذه المرحلة إلى الحديث عن تيارات فكرية نشأت في الغرب وفي الدول الأوروبية تحديدا،وهذا ما يفرضه الظرف الموضوعي، ذلك أن الدول الاستعمارية وهي دول أوروبية بالأساس، قامت بغزو واحتلال معظم أرجاء العالم في القارات الأربع الأخرى والسيطرة عليه، وأبادت السكان الأصليين في قارتي أمريكا و أستراليا.

واقتلعت من الجذور ثقافة وحضارات هذه البلدان، فلم يعد ممكنا الحديث عن أي ثقافة أو فكر أو حضارة للسكان الأصليين، اللهم إلا إذا كان فكر وثقافة وحضارة السكان المهاجرين وهم أوروبيون بالأساس، ذلك فضلا عن أن الموجات الأولى للهجرة كانت من المغامرين ومن فئات ونوعيات لا تجد الثقافة ولا الفكر إليها طريقا.

وفيما يخص قارتي آسيا وأفريقيا ،فقد استعمرت معظمها أو كلها بالكامل، و قد اتبعت الدول الاستعمارية عدداً من السياسات لتعزيز وجودها و سيطرتها والعمل على تجميد ثقافة البلدان المستعمرة حتى لا تتيح لها إمكانيات النمو والتطور ويلمس فانون هذا الواقع ويعبر عنه بقوله "...إن السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كلية لم تلبث بأن هدمت الوجود الثقافي للشعب المستعمر .....هذه الأمور كلها التي عمد إليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الإمحاء الثقافي شيئا بعد شيء"[(١)] ويؤكد " أن الثقافة الوطنية هي في ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة "[(٢)].

إذن والأمر كذلك لم يتبق من ظاهرات أو تيارات فكرية يمكن الحديث عنها أو رصدها إلا تلك التي نشأت وتكونت ووجدت حاضنتها في البيئة الأوروبية.

وإذا نظرنا إلى الثقافة باعتبارها انعكاسا وتعبيراً عن أسلوب وطريقة حياة أى شعب وعن مفاهيمه وقيمه ورؤيته للعالم من حوله، وإذا أدركنا أن الشعب (أى شعب) ليس كلا واحدا متجانسا، وإنما هناك تمايزات عديدة يقف على رأسها ما يفرزه الواقع الاقتصادي من تمايز طبقي وما يترتب عليه من اختلاف المصالح وتضاربها، فإن الثقافة تبعا لذلك هى ذات أنماط متعددة (والثقافة هنا بمعنى الأفكار والنظريات) فنجد ثقافة تكرس الأمر الواقع وأخرى تعمل على تغييره وتستشرف أفق المستقبل، بمعنى آخر فهناك الثقافة الرجعية والثقافة التقدمية على مستوى واقع وحياة أي مجتمع، وهذا التمايز ينسحب بدوره على مجتمع الدول، حيث هناك دول مستعْمَرة وأخرى مستعْمِرة، دول مستغلة وأخرى مستغَلة، فنجد أن الدول الاستعمارية تعمل بدورها على خلق ثقافة تعمل على تكريس الفكرة الاستعمارية في عقل ووجدان الشعوب المستعمرة، وهناك بالتوازى وفي ذات الوقت ثقافات أخرى هى ضد الظاهرة الاستعمارية وتعمل على الخلاص منه، وفي هذا الإطار ترصَّد الكتاب ثلاثة تيارات فكرية أساسية، ميزت المرحلة التي تعنى بها.

أحد هذه التيارات برر الاستعمار وعمل على تكريسه وهى الأفكار العنصرية، والآخر كان انعكاسا لحالة الاضطراب والفوضى التي عمت أوروبا

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٢٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٥..

وعاشتها فيما بين الحربين بما فيها الأزمة الاقتصادية في ١٩٢٩، والتيار الفكري الثالث عمل على تحليل الواقع الاقتصادي الاجتماعي القائم والكشف عن تناقضاته ومن ثم العمل على تغييره وهو تيار الأفكار الاشتراكية والماركسية.

١- الفكر العنصري :

الفكر العنصري في جوهره، فكر متخلف رجعي و يحاول أن يرتكز على دعائم من ادعاءات علمية، ويستند على الإيمان بتمايزات واضحة بين الأجناس و حيث توجد أجناس أرقى من أجناس أخرى ويرجع هذا الاختلاف إلى اختلافات بيولوجية في الأساس ويرتب على ذلك تفرقة في الحقوق والمزايا الممنوحة للأجناس المختلفة[١].

وأول من أعطى العنصرية صورتها المنظمة هو أرثر غوبينو Arthur gobineau "وقد قسم الأجناس إلى ثلاثة ،الأصفر ويتسم بالمادية وافتقاد القدرات الإبداعية، والأسود الذي يفتقد الذكاء، والأبيض الذي يتسم بالنبل والشرف وحب الحرية وأفضل أجناسه الجنس الآرى"[٢]، ومن المتصور أن هذا الاعتقاد يشكل حجر الزاوية الذي يرتكز إليه الفكر النازى في اعتقاده العنصري بسمو الجنس الآرى وتفوقه على الأجناس الأخرى، ومن بين المفكرين الذين أسهموا في نشر المفاهيم العنصرية الإنجليزيان كونكس Robert Knox وجيمس هانت James hunt " اللذان آمنا أن السمات العنصرية طبيعية وأنها غير قابلة للتغيير وأنها غير مقصورة على السمات الجسدية وأنها تمتد إلى الخصائص العقلية والأخلاقية أيضا"[٣].

والكتاب في نطاقها ليست معنية بتفنيد الأسس التي يقوم عليها الفكر العنصري ولكنها عنيت بتوضيح بعض الأسس النظرية التي ترتكز عليها.

ويكون من السهل الاستنتاج بأن فكرة تقوم بالتميز بين البشر على أساس من اختلاف الجنس أو اللون أو العرق وتقوم على عدم تساوى الأجناس البشرية،

(١) محمد محمود ربيع ، اسماعيل صبرى مقلد ، م س ذ، ص٢٩٩.
(٢) نفسه
(٣) المرجع السابق، ص٣٠٠.

هي فكرة تعمل على تبرير الاستعمار وتعطيه مشروعيته. ويقدم بها تفسيرا لاستغلاله الشعوب الأخرى الأدنى سواء بسبب اختلاف اللون أو العرق، والفكرة العنصرية هي التي ارتكز عليها هتلر بأفكاره عن نقاء الجنس الآري وعن سموه وتفوقه على سائر الأجناس الأخرى وما أدى إليه ذلك من دمار لحق بالعالم في حربه الثانية.

وإعمالًا لهذه الفكرة العنصرية وتوظيفها في تثبيت السيطرة الاستعمارية وإدامة استغلال المستعمرات، فقد سعى المستعمرون إلى تدمير التراث الثقافي للأهالي بدعوى التفوق العرقي للحضارة المتصرة وإلى تشريب الشعوب المستعمرة فكرة أنهم من جنس أدنى وبالتالي دفعهم إلى الإحساس بالدونية،مما يسّهل تشكيل الأهالي وفق هذه التراتبية العنصرية وإلحاقهم بالآلة الأوروبية[١]

ولم يسلم فانون وهو صاحب البشرة السوداء من لعنة التمييز العنصري " فقد كانت تتملكه طيلة حياته مرارة التمييز العنصري"[٢] ،فهو في " نظر الفرنسي زنجي قبل أي شيء آخر، ومن ثم فهو في مرتبة متدنية "[٣]

ويظل من المحتم عليه أن" يواجه عالماً أبيضَ لا يقيم لشهادته العلمية الطبية ما يقيمه للون بشرته الأسود"[٤] ، وفي كتابه بشرة سوداء وأقنعة بيضاء يقول فانون بمرارة: "عندما أتحدث إلى من يحبونني يقولون :أنهم يحبونني على الرغم من لوني وحينما أتحدث إلى من يكرهونني يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لوني. وفي كلتا الحالتين أجدني حبيس الحلقة اللعينة إياها "[٥].

كتب فانون مؤلفه الأول "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء "مبكرا في عام ١٩٥٢ وهدف من هذا الكتاب أن يكون مرآة تقود الزنوج إلى طريق الاغتراب، ولفانون اقتراب في "تحليل آليات التمييز العنصري ووظيفتها الأيديولوجية في عملية الاستغلال الاستعماري" وترى زهار أن اقتراب فانون هذا مشابه لاقتراب سارتر.

مجمل القول أن الفكر العنصري قد ترك بصماته القوية على الحياة في أوروبا،

(1) "The Rehabilitation of Violence and the Violence of Rehabilitation: Fanon and Messay Kebed Colonialism", **Journal of Black Studies**,(London: Sage Publication, Vol. 31, No. 5 ,May, 2001), pp. 539-562. http://www.jstor.org/stable/2668075
(2) David Caute, **op.cit.**, P.9.
(3) Idem.
(4) Ibid., P.27.
(5) Fanon, Frantz , Charles Lammarkman (Translator), **op. cit.**,p.116.

كنتيجة لصعود النازية المرتكزة على أساسيات هذا الفكر وبما أحدثته من دمار بحربها للدول والشعوب الأوروبية الأخرى، وأن هذا الفكر العنصري كان أساسا استند إليه الرجل الأبيض في استغلاله واسترقاقه للأفارقة السود، واستند إليه الاستعمار فيما بعد لتبرير الغزو ثم الاحتلال ونهب الثروات لشعوب هذه المنطقة.

وعلى هذا فإن الأفكار العنصرية بما كان لها من انتشار وتواجد في أوروبا وفي أنحاء مختلفة من العالم حيث كانت التفرقة تمارس في دول الشتات إلى جانب وجود نظام استعماري استيطاني عنصري في جنوب القارة.

فذلك مما يجعلها في عداد التيارات الفكرية الرئيسية في هذه المرحلة والتي كان لها بالقطع انعكاساتها على فانون وعلى تكوينه وأفكاره، على نحو ما سيرد في موضع آخر من هذه الكتاب.

٢- التيارات الفلسفية الأوروبية

من المعروف أن الفلسفة الحديثة بكافة مدارسها ،هي فلسفات نشأت أساسا في أوروبا ،ذلك أن أوروبا في فترة مابين الحربين وما بعدها كانت تموج بكم هائل من الأفكار وعديد من الفلسفات،يقف من بينهما تياران رئيسان هما تيار الفكر الوجودي والتيار الاشتراكي اللذان كان لهما من الذيوع والانتشار ما يجعلهما يشغلان حيزا كبيرا من الواقع الحضاري لهذه الحقبة ويشكلانه في ذات الوقت ،واستعراض هذين التيارين لا يهدف إلى الدخول في تفاصيلهما الفلسفية فذلك شأن أخر،وإنما إلى تلمس تأثيرهما على الواقع الثقافي والحضاري وذلك في خطوطه العريضة.

الفلسفة الوجودية [1]

ذاعت الفلسفة الوجودية _غداة الحرب العالمية الثانية – وأصبحت محور اهتمام جيل كامل من المثقفين في فرنسا وأوروبا وإذا عرفنا إن مفكرين من طراز سارتر وألبير كامو وأندريه جيد وآخرين هم من المتممين لهذا الفكر وقادته على الأقل

(1) www.Editor@ArabRenewal.Com
ww.Ksakef.Com

في مرحلة من حياتهم،لأدركنا مدى انتشاره الذي يعزى في جانب منه إلى استعماله للخطاب الأدبي ،فكل المفكرين السابق ذكرهم لهم إبداعاتهم الأدبية والتي كانت **سببا قويا في انتشار مفاهيمه وذيوعها .**

ودون دخول في تفاصيل عميقة حول هذا الفكر فإنه في خطوطه العريضة المتفق عليها ،يعلي من قيمة الإنسان ويؤكد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية واختيار، والوجوديون يؤمنون إيمانا مطلقا بالوجود الإنساني ويتخذونه منطلقا لكل فكرة و ويؤمنون بحرية الإنسان المطلقة وأن له إن يثبت وجوده كما يشاء وبأي وجه يريد دون أن يقيده شيء ،فالحرية ضرورة لكي يحقق الإنسان وجوده، وفي هذا الصدد فمن المقولات الشهيرة لسارتر " نحن محكومون بالحرية " فهو يرى أن الإنسان حر وأن له الحق في أن يكون (هو..هو) ، ومحور الفكر الفلسفي الوجودي هو التأكيد على أن الإنسان كائن حر، وأن الإنسان لا يتحدد مسبقا بفعل عوامل وراثية أو إرادة ما وراثية ،بل هو يوجد ومن خلال وجوده تتحقق ماهيته وهذه الماهية هي مشروع دائم التشكل خلال حياة الإنسان الفرد وبإرادته، ومن المهم في هذا الفكر أنه على ما فيه من تأكيد على حرية الإنسان فإنه في ذات الوقت يؤكد على ضرورة الالتزام الذاتي وعلى المسؤولية الأخلاقية.

وبعد استعراض الخطوط الأساسية لهذا الفكر، نجد أن أهميته تبدو في أنه بتقريره لمبدأ حرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، فهو يقف على النقيض من الأفكار العنصرية التي ارتكز عليها الفكر الاستعماري في تبريره لمشروعية الاستعمار، فهي فلسفة أيا كان الموقف منها فإنها تدعو إلى الحرية والتحرر في آن واحد.

وفي مرحلة من حياته تأثر فانون بأفكار الفلسفة الوجودية[1].



(١) لأثر الفكر الوجودي لسارتر على فانون انظر

Adaner Usmani,**Reimagining the Revolutionary Vanguard: Frantz Fanon and the Task of the Intellectual** ,(Harvard. Harvard College Press.N.D)
http://www.hcs.harvard.edu/thesis/repo/42/1/full_thesis_revised.pd

الفكر الاشتراكي

تمثل الاشتراكية عند كثير من المفكرين- بصرف النظر عن التفاصيل- مجموعة متكاملة من الأفكار والمناهج والوسائل السياسية والاجتماعية التي تشترك في رفض المجتمع الاستغلالي وتؤمن بحتمية تقدم المجتمعات ،وتقوم الاشتراكية على مبدأ إلغاء استغلال الإنسان للإنسان وعلى التطور المخطط للمجتمع من أجل تحسين الوضع المعيشي للشعوب.

وردا على المظالم والتفاوت الطبقي الذي ولده نشوء الرأسمالية في أوروبا، طرح عدد من المفكرين الأوروبيين مبادئ تهدف إلى نبذ الرأسمالية وإقامة الاشتراكية الديمقراطية التي تدافع عن تحول المجتمع سلمياً من الرأسمالية إلى الاشتراكية، تواجدت هذه الأفكار إلى جانب الأفكار الاشتراكية الماركسية التي ترى أن الطبقة الرأسمالية المسيطرة لن تتنازل طواعية عن امتيازاتها ، وبالتالي فإن إقصاء هذه الطبقة وتصفية استغلالها لا يتم عبر الوسائل السلمية .

ويرى الفكر الاشتراكي تلازما بين النظام الرأسمالي واغتراب الإنسان واستلابه وذلك بفصله قوى الإنتاج (العمال)عن أدوات إنتاجهم واعتبار أن قوة العمل سلعة وتشجيع النمط الاستهلاكي وبالتالي فإن القضاء على هذا الاغتراب يفترض بالضرورة العمل على القضاء على النظام الرأسمالي وإقامة النظام الاشتراكي محله.

وعلى صعيد آخر فإن الفكر الاشتراكي يربط مابين الاستعمار ونشوء الرأسمالية في أوروبا، وأن التوسع الاستعماري كان شرطا لازما لنمو الرأسمالية من جانب وكان مساعدا على طمس التناقضات والصراعات الطبقية من جانب آخر نتيجة لزيادة القدرة التوزيعية لهذا النظام بنهبه لثروات البلاد المستعمرة.

وعلى هذا يكون الفكر الاشتراكي في عداء مع كل من الاستعمار من جانب والرأسمالية من جانب آخر، وإذا كانت أوروبا في النصف الأول من القرن العشرين تموج بهذه الأفكار وكانت فرنسا على وجه الخصوص مسرحا لها ،فلم يكن فانون بعيدا عن التأثر بهذه التيارات الفكرية، فهو وكما سبق الذكر، عاش في فرنسا ودرس فيها واحتك بمثقفيها على اختلاف مدارسهم وتفاعل معهم وتأثر بهم، "ففي عام

١٩٤٧ تأسست في باريس مجلة (الأزمنة الحديثة) وكان يتولاها بالرعاية عدد من المثقفين الفرنسيين اليساريين بينهم أندريه جيد و ألبير كامو وسارتر، وكان لهذه المجلة أثر عميق في فانون فقد اقتبس منها الشيء الكثير في كتابه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء)، وإليها كان يعزو قدرته على تنسيق البواعث السيكولوجية التي تهيمن على تصرفات الملونين"[1]، ويذكر كوت أيضا أن فانون "تعرض لأفكار هيجل وماركس ...وسارتر وميرلو بونتي .. وقد ظفرت دراسات هؤلاء باهتمامه البالغ...(.ويؤكد ..أن تطور أفكار فانون يوازى من بعض الوجوه تطور أفكار ماركس، ولكنه -خط تطور أفكار فانون-أشد التصاقا بخط تطور أفكار سارتر"[2].

مجمل القول أن فانون كان متأثرا بل ومتفاعلا مع كافة التيارات الفكرية التي كانت تملأ الفضاء الأوروبي في فترة ما بعد الحرب الثانية ولم يكن بعيدا عنها وبالتالي فإنه لم يكن خارج سياقها الحضاري.

ثانيا : التيارات السياسية الدولية :

سادت العالم في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية عدد من التيارات السياسية وكانت هذه التيارات انعكاسا للتغير في موازين القوى العالمية، ومن أهم التيارات السياسية التي برزت في عالم ما بعد الحرب الثانية.

١- الحرب الباردة[3] :

ظهر هذا المصطلح بعد انهيار التحالف الواسع الذي كان الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة أحد أطرافه أثناء الحرب العالمية الثانية وذلك في إطار الصراع المشترك ضد الفاشية و النازية، وبعد انتهاء الحرب وبسبب من تباين الأنظمة سياسياً و اجتماعيًا واقتصاديًا وعقائدياً انهار هذا التحالف وبدء العالم يشهد عملية استقطاب دولي حاد بين الكتلتين الرئيسيتين، وفي مركز الصدارة لكل كتلة دولة قطب تتمتع بالسيادة المطلقة في رسم الإستراتيجية وإدارة التحالفات،وكان الإتحاد السوفييتي

(1) David Caute, **op.cit.**, P.28.
(2) **Ibid.**, P.32.

(٣) محمد محمود ربيع، اسماعيل صبرى مقلد، م س ذ، ص٦٨٣.

يقف على رأس الكتلة الشرقية وللولايات المتحدة زعامة الكتلة الغربية، وكانت كافة الدول الأخرى تصنف بمعيار انحيازها إلى هذه الكتلة أو تلك،خاصة وأن كتلة عدم الانحياز لم تكن قد تبلورت بعد.

وأدت سياسة الاستقطاب هذه إلى مزيد من التوتر الدولي والى التصلب في الدبلوماسية الدولية ظنا من كل طرف أن هيبته تتعزز وتتأكد بهذا التصلب وأن خدمة مصالحه تستلزم هذا التشدد خاصة في مواقف المساومة.

وانعكس ذلك على دور الأمم المتحدة فأصبحت هي الساحة الرئيسية لخلاف الكتلتين وتم إساءة استخدام حق النقض (الفيتو) مما أدى إلى بعض العجز في عمل هذه الهيئة الدولية،وحد من قدرتها على التحرك السريع والفعال في مواجهة الأزمات الدولية.

وبالتالي فقد أصبح المناخ السائد بين الكتلتين إبان هذه المرحلة مناخا من عدم الثقة و التربص بين كلٍ من الفريقين وعبر عنه فانون بأسلوب لا يخلو من بعض الطرافة بقوله: "إن كل ثورةً وكل تمرد في العالم الثالث يدخلان الآن في إطار الحرب الباردة، يكفي أن يضرب رجلان في سالزبوريحتي تهتز كتلة من الكتلتين بكاملها، وتأخذ تتحدث عن الرجلين وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا رابطة هذه المشكلة بمشكلة أفريقيا كلهو وبمشكلة البشر المستعمرين جميعا "(١).

وتسجل هذه الفترة تعاظم دور الأيديولوجيا في تغذية الصراع بين الكتلتين مما أدى إلى الاعتقاد بأن الحرب الباردة في جوهرها ليست إلا صراعا عقائديا بحتا يعكس نفسه على كل ما يجرى على الساحة الدولية و ومما يعزز من هذا الاعتقاد أن كافة الصراعات السابقة على هذه المرحلة لم تخرج عن كونها قومية أو مصلحية، وبدورها أدت الحرب الباردة إلى ظهور ظاهرتين متلازمتين



(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٧٧.

سباق التسلح

ففي إطار الحرب الباردة بدأت الكتل المتصارعة سباقا للتسلح ما انفك يزداد كل يوم ويتوسع ،فعملت كل دولة على تدعيم ترسانتها النووية والتقليدية اعتقادا من كليهما أن ما بحوزتهما من أسلحة الدمار الشامل يصب في خانة تعزيز قوتهما السياسية ونجد فانون يعبر عن ذلك المعنى بقوله: "على أن هذه الإستراتيجية التنافسية بين الدول الغربية تدخل من جهة أخرى في إطار أوسع هو إطار سياسة الكتلتين التي جعلت العالم يعيش منذ عشر سنوات في ظل الرعب النووي ، وليس من محض الصدفة أن نجد الغرب يتهم يد موسكو أو عينها كلما تحرك شعب ليطالب بحقوقه؛ لأن كل صعوبة تواجهها السيطرة الغربية في أية بقعة في العالم تعد نيلا مجسما من قوته الاقتصادية ، فكل نزاع ينشب ضد الغرب في أي بلد استعماري يعيشه الغرب باعتباره إضعافا له وتدعيما للعالم الشيوعي في آن واحد"(١).

سياسة الأحلاف العسكرية :

في إطار المواجهة بين المعسكرين، اتبعت الولايات المتحدة سياسة الحصر والاحتواء للإتحاد السوفييتي لحصره في مناطق نفوذه القائمة ولضمان عدم امتداده إلى مناطق النفوذ الغربية، ومن أجل هذا الهدف عملت على تطويقه بجدار من الأحلاف والقواعد العسكرية،فتم إقامة حلف شمال الأطلسي(الناتو) وحلف جنوب شرق آسيا (السيتو) وحلف بغداد الذي قامت حوله معركة سياسية عنيفة بين القيادة المصرية ممثلة في الرئيس عبد الناصر ونورى السعيد في العراق وتم إفشال هذا الحلف في حينه وإن كان فيما بعد تحول إلى حلف المعاهدة المركزية.

وفي مواجهة ذلك قام الإتحاد السوفييتي من جانبه بإقامة حلف وارسو مع دول شرق أوروبا ، ليصبح أداته للمواجهة ضد حلف الأطلنطي في أوروبا.

وباتساع نطاق الأحلاف العسكرية واشتعال سباق التسلح واتباع سياسة حافة الهاوية التي تبنتها الإدارة الأمريكية على يد جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكية في فترة الستينيات للقرن العشرين،وصلت سياسة الحرب الباردة إلى النقطة

(١) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص١٢٧.

التي تهدد بتحولها إلى حرب ساخنة تهدد بقاء الكتلتين، بل تهدد البشرية كلها بالفناء عند هذه الذروة كان لابد من مخرج.

على مستوى الكتل المتصارعة فقد بدأت الدعوة إلى التعايش السلمي والتي أطلقها ونادي بها نيكيتا خروشوف رئيس الوزراء السوفييتي أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي فبراير عام ١٩٥٦.

وعلى مستوى الدول المستقلة حديثا فقد تأسست كتلة الحياد الإيجابي و عدم الانحياز وأدى ذلك للتخفيف من حدة الاستقطاب الدولي القائم وإلى بروز دور كتلة ثالثة فاعلة على الساحة الدولية.

وسيتم تناول كلٍ من سياسة التعايش السلمي وكتلة عدم الانحياز بشيء من التفصيل كتيارات سياسيةٍ لهذه المرحلة.

٢- سياسة التعايش السلمي[١] :

وتعتمد هذه السياسة مبدأ عدم حتمية الحرب بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي، تلك الحتمية التي كانت توجه سياسة النظامين في فترة الحرب الباردة، والدافع وراء هذا التحول هو اقتناع الأطراف ذات الصلة بالخطورة الهائلة لاستخدام الأسلحة النووية كأداة في الصراعات والمجابهات الدولية وخطر الفناء الكامل والتدمير النهائي الشامل لكل الأطراف في حالة نشوب حرب نووية، وبالوصول إلى نقطة التوازن في الرعب النووي أصبح الطريق ممكنا إلى الاقتناع بمبدأ التعايش السلمي و الذي يرى ضرورة عدم الوصول بالتناقض بين الأنظمة المختلفة سياسيا واجتماعيًا إلى درجة المواجهة الساخنة والحرب ويرى أن اتباع أدوات التنافس السلمي في حل التناقضات وتسويتها أمرا ممكنا.

ويعود الفضل في المناداة بهذه السياسة إلى رئيس الوزراء السوفييتي نكيتا خروشوف،ولاقت هذه الدعوة الاستجابة من دول الكتلة الغربية،وانعكس ذلك على انفراجة في التوتر الدولي وبدء محادثات للحد من التسلح النووي، وأدت سياسة التعايش السلمي بدورها إلى عدد من النتائج الهامة.

(١) محمد محمود ربيع، اسماعيل صبري مقلد، م س ذ، ص٧٧٧.

إن المواجهة بين الكتلتين أصبحت ترتكز على أدوات التنافس السلمي وبخاصة في المجالات الاقتصادية.

إن هذه السياسة فتحت مجالات للتعاون داخل المنظمة الدولية (الأمم المتحدة) والنموذج الدال على ذلك هو الدور الإيجابي الذي قامت به المنظمة عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الإسرائيلي) على مصر.

- أن هذه السياسة أضعفت مبررات كل من النظامين في توسيع نطاق تحالفاته وتكتلاته العسكرية

وكنتيجة لهذه السياسة أخذت دول كثيرة تراجع نفسها حول حكمة الانضواء تحت لواء هذه التكتلات الدولية.

خاصة وأن الأحلاف العسكرية الغربية التي جرت محاولات إقامتها في الشرق الوسط واجهت إخفاقا كبيرا بفضل المواجهات الشعبية المناهضة لسياسة الأحلاف والتي قادها عبد الناصر في مواجهة حلف بغداد حتى تم إسقاطه، وكل ذلك كان من تداعيات سياسة التعايش السلمي، وأصبح المجال مهيئا بفضل هذه السياسة لظهور كتلة سياسة عدم الانحياز.

٣- حركة عدم الانحياز:

وقوام هذه الحركة هو مجموعة الدول الأفريقية والآسيوية التي حصلت على استقلالها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، و يعتبر مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ بمثابة أول تجمع دولي منظم لهذه الحركة وتعبيراً عن رغبة الدول المستقلة حديثا بأن تنأى بنفسها عن الانحياز إلى أي من الكتلتين القائمتين لضمان قدر من الاستقرار النسبي والخروج من حالة الاستقطاب الحاد في الوضع الدولي ومن التنافس القائم بين المعسكرين الرئيسين في العالم (الاشتراكي والرأسمالي).

وأضحى واضحا أن الخروج من دائرة التبعية كان هدفا لقيام هذه الحركة، فقد تشكلت رؤية مؤداها أن تجنب الارتباط بالكتل الدولية وخلافات المصالح فيما بينها سوف يعزز من إمكانات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بشكل لا يتوفر في حالة الانحياز إلى أحد الجانبين وفي نفس التوجه يكتب فانون " الحقيقة أن هذا الحياد الذي

هو من ثمرات الحرب الباردة.....يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين "[١].

وحركة عدم الانحياز في جوهرها ليست موقفا سلبيا ولكنها تعني حيادا إيجابيا يتخذ من المواقف ما ينسجم مع مصالح دول الحركة وشعوبها وليس لارتباطات مسبقة مع هذه الكتلة أو تلك.

ويصرف النظر عما لحق بهذه الحركة من تطورات بفعل تغير موازين القوى مرة أخرى، إلا أنه في حدود حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية و حتى منتصف السبعينيات كان للحركة دورا هاما على مسرح السياسة الدولية وتقدم لقيادتها عدد من الزعماء البارزين لحركة التحرر الوطني في طليعتهم جواهر لال نهرو والمارشال جوزيف بروز تيتو وأحمد سوكارنو وجمال عبد الناصر وجميعهم من القادة التاريخيين المشهود لهم.

ورؤية فانون لدور دول عدم الانحياز تلخصها آراؤه التالية: "أن الموقف الذي اتخذته الدول التي استقلت حديثا، وهي الدول التي صممت على أن تبقى خارج سياسة التكتلات، أدخل أبعاداً أصيلة على ميزان القوى العالمية.إن السياسة التي تحمل اسم الحياد الإيجابي وعدم التبعية وعدم الالتزام،....معناها أن الشعوب المتخلفة التي استيقظت من نومة طويلة قضتها في ظل العبودية والاضطهاد ترى من واجبها الآن أن تبقى خارج النزاعات بين الكتلتين حتى تتفرغ للنهوض الاقتصادي وللقضاء على الجوع وتعمل على ازدهار الإنسان "[٢].

ويستطرد فيقول: "إن الصفر والعرب والزنوج يريدون اليوم أن يقولوا كلمتهم ويفصحوا عن مشاريعهم،ويريدون تثبيت قيمهم وتحديد علاقاتهم مع العالم الغربي ...... فليس صحيحا ما كان يزعمه الغرب من أن ظهور القيم رهن بمرورها على الغربال الغربي، وليس صحيحا أنه يتعين علينا دائما أن نسير في ركاب الغير تابعين له"[٣]، وفانون يثمن هنا سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ويراها تدعيما لاستقلال دول العالم الثالث و"خلقا لقيم إنسانية جديدة"[٤].

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٨٢.

(٢) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص ١٢٨.

(٣) نفسه

(٤) المرجع السابق، ص١٢٩.

ثالثا : التيارات السياسية الإقليمية :

شهدت الفترة الممتدة منذ أوائل القرن العشرين وحتى ما بعد منتصفه تبلور عدد من التيارات الفكرية السياسية ترجمة نفسها في أشكال تنظيمية متعددة ، تندرج في مجوعها تحت عنوان انبعاث الهوية الأفريقية وكان انبعاث هذه التيارات بمثابة رداً على معاناة الاغتراب للسود من أصل أفريقي والذين اقتلعوا من جذورهم وأبعدوا قسرا عن الوطن الأم،وكانت معاناة الاغتراب ومشاعر الحنين للعودة إلى الوطن ومعاناة سياسة القهر الاستعماري والتمييز العنصري الذي يتعرضون له ويعانونه مع محاولات طمس الهوية والتاريخ الأفريقي،من أهم أسباب نشأة هذه التيارات، والتي كانت بداياتها بين أفارقة المهجر والشتات، وأهم هذه التيارات :

١- حركة الجامعة الأفريقية Pan Africanism

وتهدف حركة الجامعة الأفريقية كما عبر عنها دعاتها الأوائل، الى مواجهة الهيمنة الاستعمارية وبشكل أساسي تجارة العبيد والاستعمار والعنصرية والتي بلغت ذروتها مع نهاية القرن التاسع عشر بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤/ ١٨٨٥ لتقسيم أفريقيا بين قوى الهيمنة الغربية، ويعتبر هذا المؤتمر بنتائجه أحد الدوافع التي ساهمت في بلورة مفهوم الجامعة الأفريقية عند المفكرين الأفارقة من دعاتها ومنهم وليام إدوارد ،ديبوا ، جورج بادمور وآخرين .

وعلى هذا يمكن فهم فكرة الجامعة الأفريقية ونشأتها على أنها لمواجهة الآثار النفسية والثقافية للاستعمار والعنصرية وأنها بمثابة قاطرة للاحتجاج على عملية التكيف مع الإذلال الإنساني الذي تعرضت له الشعوب المنحدرة من أصل أفريقي، ويرى طومسون (١٩٦٩:٣٨)[1] أن حركة الجامعة الأفريقية ليست معنية فقط بالاحتجاج بل وعلى تشكيل فلسفة متماسكة من شأنها أن تمكن الأفارقة والإنسان الزنجي ليس فقط من تعزيز رفاهة المادي ولكن لرفعه من قرون الإذلال الذي أصابه منه الكثير وتمكينه من إعادة الكرامة في عالم لم يمنحه منها شيئاً حتى الآن، وتقوم حركة الجامعة الأفريقية على عدد من المرتكزات الفكرية أهمها :

١-أنها تعبير عالمي عن الافتخار باللون الأسود والجدير بالذكر أن هذا

(1) www.nathanielturnes.com

الافتخار هو القاسم المشترك بين كل التيارات الأفريقية فيتداخل مع تيار الزنوجة ومع حركة الوعي الأسود التي قادها ستيف بيكو في جنوب أفريقيا

٢-عودة الأفارقة اللذين يعيشون في الشتات ورغم عدم نجاح هذه الفكرة إلا أن أهميتها التاريخية أنها أوجدت أساسا سياسيا واضحا لفكرة الجامعة الأفريقية والقومية الأفريقية.

٣-أنها دعوة للتحرير، فلم يكن الاحتلال الوحشي للقارة مقبولا من السود المنحدرين من أصل أفريقي ولا من نخبهم المثقفة،ويعد فرانز فانون واحدا من الدعاة لهذه الرؤية حيث يصفه أكاه (Achah 1999:75) على أنه " ثورى من المارتنيك، الذي أخذ الدعوة إلى التحرير شخصيا ومن القلب و لإظهار التزامه أصبح منخرطا في الكفاح من أجل إنهاء الحكم الاستعماري للفرنسيين في الجزائر "(١).

٤ - التوحيد السياسي،والدعوة للتوحيد السياسي، وثيقة الصلة بفكرة التحرير للقارة وهى دعوة واضحة لوحدة أفريقيا في شكل وحدة سياسية اقتصادية وهى الدعوة التي أصبحت محل اهتمام الجامعة الأفريقية، وفي اعتقاد نكروما أن " الطريق الوحيد لحل مشاكل الإمبريالية والاستعمار الجديد في أفريقيا هو تشكيل حكومة قارية اشتراكية موخدة"(٢).

وفي إطار فكرة الجامعة عقدت منذ بداية القرن عدة مؤتمرات، وكان المؤتمر الأول قد عقد في عام ١٩٠٠ بدعوة من هنرى سلفستر وليامز وهو محامى من جزر الهند الغربية، وهو أول من استخدم هذا المصطلح،وفي هذا المؤتمر بدء التعزيز المنظم لمفهوم الجامعة الأفريقية، وعقد المؤتمر الثاني في باريس ١٩١٩ و ويؤرخ البعض لحركة الجامعة بهذا المؤتمر ويعتبرونه المؤتمر الأول للحركة ،وعقد في الفترة من عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٤٥ أربعة مؤتمرات،كان أخرها المؤتمر المنعقد في أكتوبر ١٩٤٥ في مانشستر وحضره ما يزيد عن مائتين من المندوبين من كل أنحاء العالم وبرئاسة جورج بادمور وهو آخر المؤتمرات التي عقدت خارج أفريقيا، وهذه المؤتمرات هي التي ميزت المرحلة الأولى من فكر الجامعة الأفريقية والتي مازالت تدور في عالم الأفكار.

(1) Idem.
(2) Idem.

وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما عقد في عام ١٩٥٨ أول مؤتمر للجامعة على أرض أفريقية في مدينة أكرا بعد حصول غانا على استقلالها وتوفر قاعدة للحركة تنطلق منها لنشر أفكارها .

ويعتبر كلٌ من وليام ديبوا وماركوس جارفي من أكثر المفكرين الذين لعبوا دورا في تشكيل حركة الجامعة في مرحلتها الأولى فكرا وممارسة، وكان لهذه المؤتمرات في مراحلها الأولى دور كبير في إيقاظ أفريقيا سياسيا وساعدتها على الاتصال بالرأي العام العالمي ومكنت ممثلي البلاد الأفريقية من أن يجتمعوا ويناقشوا الوضع في بلادهم ويبحثوا واجباتهم في مقاومة الاستعمار ، ومما يحسب لهذه الحركة أنها لفتت أنظار العالم إلى مشكلات أفريقيا فضلا عن أنها تمخضت عن مولد الزعماء الأفريقيين كوامي نكروما وجومو كينياتا وغيرهم وما يمكن أن يقال في هذا الشأن أن هذه المؤتمرات في حدها الأدنى " قد عززت من روح التضامن الأفريقي "[1].

ومن المهم الإشارة إلى تطور حركة الجامعة الأفريقية من مرحلتها الأولى والتي يقوم الانتماء فيها على أساس لوني وعنصري إلى مرحلتها الثانية والتي برز فيها الأساس القاري للانتماء الأفريقي وتناقص أهمية الرباط اللوني ومن ثم أصبحت أفريقيا مدلولا جغرافيا سياسيا

ويمكن القول إجمالا بأن حركة الجامعة الأفريقية هي حركة تنطوي تحتها كل حركة أفريقية جامعة.

٢- الزنوجة

نشأ تيار الزنوج أساسا بين مثقفي دول غرب أفريقيا وهي مجموعة الدول الفراكفونية،وتعتبر نشأة هذا التيار بمثابة رد على عملية الاحتواء والاستيعاب الثقافي والحضاري التي كانت تتبعها السياسة الاستعمارية الفرنسية وهذا ما يفسر نشوء هذه الحركة في دول واقعة تحت الاحتلال الفرنسي،ويقف على رأس هذا التيار إيمي سيزير من جزر المارتنيك مسقط رأس فانون وهو أول من استخدم مصطلح الزنوجة، وليوبولد سنجور المفكر والسياسي السنغالي المعروف، والشيخ أنتا جوب

(١) ي سافيليف و ج فاسليف، م س ذ، ص ص ٨٥-٨٦.

المؤرخ والمفكر السنغالي الذي قدم إسهامات متميزة في إطار تأصيل فكرة الزنوجة، وهو القائل بالأصل الزنجي للحضارة المصرية القديمة واعتبار الحضارة الفرعونية مرجعية للحضارة الأفريقية، والقائل بتواصل واستمرارية التاريخ الأفريقي ومساواة التاريخ الأفريقي بالأوروبي وبفكرة أسبقية وتفوق الحضارة الأفريقية على الحضارة الغربية. وترتكز فكرة الزنوجة على تمجيد التاريخ والثقافة الأفريقية.

والنقد الحاسم الذي وجه إلى هذا التيار جاء من سارتر حين وصف الزنوجة بأنها عنصرية مضادة للعنصرية، ولفانون وجهة نظر حول مسألة تمجيد التاريخ وحول الفكرة العنصرية ويلتقي في هذا مع سارتر فوعى فانون ليس أسود محض (عنصري) ولكنه يمتد إلى الشعوب المستعمرة من أي عرق كانت.

٣- الوعي الأسود

وتيار الوعي الأسود هو أحد التيارات التي كانت تقوم بالدور الكفاحي في مواجهة ومكافحة الاستعمار والعنصرية ومشكلة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا.

ومصطلح الوعي الأسود نبع بداية من الولايات المتحدة على يد وليام ديبوا الذي رأى أن السود يجب أن يفخروا بسوادهم كخطوة مهمة في اتجاه تحررهم الذاتي، وهدف المفكرين السود من هذه الحركة هو استعادة الوعي الأسود والوعي الأفريقي الذي يشعرون انه قد قمع بواسطة الاستعمار، وهذا المصطلح وإن نبع بداية على يد ديبوا في الولايات المتحدة إلا أن حركة الوعى الأسود تبلورت في أخريات عام ١٩٦٠ في جنوب أفريقيا بقيادة ستيف بيكو الذي كان يرى أن تحرير السود لن يتأتى بالنضال من أجل إحداث تغييرات سياسية هيكلية ولكن من التحول النفسي في فكر وعقل الشعب الأسود نفسه وانه لا إمكانية للتحرر السياسي بدون تحرير العقول والأفكار نفسيا وعقليا وسلوكيا وأن النضال من أجل استعادة الوعي الأفريقي يمر عبر مرحلتين من التحرر النفسي والتحرر العضوي المادي. وحركة الوعي الأسود تنفي عن نفسها فكرة العنصرية، ولكنها حركة مضادة للعنصرية البيضاء، وأن الصراع بينهما هو الذي يقود إلى إنسانية حقيقية، وتضع لذلك شرطا

وهو أن يتحرر السود أنفسهم أولا وأن يحصلوا على التحرر النفسي والمادي وعلى السلطة السياسية؛ لأنفسهم.

وتقوم حركة الوعي الأسود على المقومات التالية:

- التحرر النفسي من الشعور بالدونية والقابلية للخضوع .
- رفض كل ما هو أبيض.
- الفخر بكل ما هو أسود والاعتزاز والاعتماد على الذات .
- التضامن الجمعي على أساس اللون الأسود وليس على أي أساس آخر

ويمكن القول بأن الوعي الأسود هو أيديولوجية راديكالية وهى تصور فكرى تجاه واقع معين من أجل تغييره.

وهكذا نجد أن مجمل هذه التيارات الفكرية والسياسية والمنظمات المنبثقة عنها تشكل في مجموعها ملامح السياق الحضاري المعاصر لتلك المرحلة،هو ذاته السياق الذي عاش فانون في ظله وشكل أفكاره النظرية وحكم خطواته العملية.



الباب الثاني

فانون وقضايا العصر

تعرفنا في الباب الأول على ظروف النشأة التي أحاطت بفانون وكذلك على أبرز العوامل التي ساهمت في تكوينه ،وتعرفنا بذات القدر على السياق الحضاري الذي عاش في ظله وعلى أهم القضايا المثارة في عصره والتي فرضت نفسها على البشرية آنذاك.

وخلصنا إلى أن أهم ثلاثة قضايا معاصرة لتلك الفترة هي قضايا الاستعمار والتحرير الوطني والتنمية والتقدم ،وهي كما سنرى قضايا مترابطة متداخلة فالاستعمار كظاهرة يقود بالضرورة إلى مقاومته ومن ثم ظهور حركات التحرير الوطني ونجاح هذه الحركات في الحصول على الاستقلال يقود بالتالي إلى طرح الأسئلة حول أنسب السبل لتحقيق التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية باعتبارها الغايات الأساسية التي ثارت من أجلها الشعوب.

وكما شغلت هذه القضايا مثقفي العصر فإنها فرضت نفسها بقوة على فانون الذي كان له إسهاماته الفكرية الجديرة بالدراسة ،و سنتناول هذه الإسهامات من خلال قراءة تحليلية لمضمون النصوص التي ضمنها كتبه واستخلاص رؤيته من خلالها ،وذلك في ثلاثة مباحث يتم تقسيمها على النحو التالي :

مبحث أول :ويتناول قضايا الاستعمار.

مبحث ثاني :ويتناول قضايا التحرير الوطني.

مبحث ثالث :ويتناول قضايا البناء والتقدم.

المبحث الأول

الاستعمار

خصص فانون معظم كتاباته للحديث عن القهر الاستعماري ولم تكن هذه الكتابات تقوم فقط بتوصيف الاستعمار وتفسيره أو توضيح الآثار السلبية التي يحدثها في المجتمع ولكنها عملت أيضا على تبيان كيفية التخلص منه وسبل مواجهته.

ففي أولى كتبه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) والذي تم نشره في عام ١٩٥٢ يقوم فانون بتحليل الظاهرة الاستعمارية باعتباره محللا نفسانيا، ومكنه هذا التناول من إدراك الدور الذي يقوم به المستعِمر في مسخ المستعمَرين وتشويههم وتيسير خضوعهم له ،ومكنه ذلك أيضا من إدراك التأثير الذي يحدثه الخضوع للمستعمرين وكيف أن ذلك يهيئهم للإيمان بأهمية المستعمر وحتمية خضوعهم له ،وفي كتابه (معذبو الأرض)والذي تم نشره في عام ١٩٦١ قبل وفاته بأيام قليلة ،وهو نتاج خبرة عملية مستقاة من معايشته لواقع الممارسات الاستعمارية في الجزائر ،فإن فانون يركز على جملة الممارسات الدموية العنيفة التي مارسها الاستعمار الفرنسي والتأثيرات السلبية التي أحدثتها ممارسة العنف الاستعماري على البنية النفسية للجزائريين الذين تعرضوا لعمليات طويلة من التعذيب ، وفي هذا الشأن ومن خلال رؤية واقعية، لمس كيف أن العنف الاستعماري يمتد في تأثيره ليس لمن يقومون بالتعذيب فقط ولكنه يؤدى أيضا إلى تفكيك وتحلل في شخصية القائمين بالتعذيب أنفسهم.

وفي هذا المبحث سيتم تناول فهم فانون للاستعمار ورؤيته له وكيف تعامل معه وذلك على النحو التالي :

أولا : رؤيته للظاهرة الاستعمارية وتفسيره لها .

ثانيا : التأثيرات السلبية التي يحدثها الاستعمار .

ثالثا : كيفية المواجهة للاستعمار.

أولا : رؤية فانون للظاهرة الاستعمارية :

يرى أحد دارسي فانون " أنه في كتاباته– وباستثناء بعض شذرات متفرقة في كتابه معذبو الأرض وبعض مقالاته المجمعة – لم يشر إلى الأصول التاريخية لنشأة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية الحديثة ، وأنه تجاهل سؤال ؟ لماذا وقعت أفريقيا السوداء تحت السيطرة الأوروبية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر "(١).

ويرى باحث آخر فيما يعتبر ردا أو تفسيرا للملاحظة السابقة ،بأن فانون "لم ينشغل بالبحث عن أصل الاستعمار الاقتصادي أو السياسي وإنما تعامل معه كحالة يتم فيها التجرد من الإنسانية "(٢).

ووجهة نظرنا، أن ذلك التناول من فانون يجد تفسيره في أنه كان متأثرا بطبيعة دراسته للطب النفسي وطبيعة عمله وظروف التجربة التي عاشها فكان الاقتراب النفسي في رؤية الظاهرة وتحليلها هو الأكثر ملائمة،وهذه الملاحظة لا تنفي على أية حال ،أن فانون كان ذا نظرة شاملة للاستعمار،فهو يراه ا يتناول العلاقات الفردية وحسب ولكنه تنظيم سيطرة أمة على أخرى إثر الغزو العسكري(٣) ،وأنه عبارة عن قمع شعب بأكمله ،ويشمل ذلك فيما يشمل تشريب المجتمع الوطني الأصلي ولاسيما مناطق المدن منه بالنظام الاستعماري وقيمه(٤) ،كما أنه نفي منظم للآخر وإنكار كل صفة إنسانية عليه(٥).

وفي هذا السياق سنتناول رؤية فانون للاستعمار من خلال توضيحه لخصائص الاستعمار وصفاته والأطوار التي مر به.

---

(1) Jock McCulloch, **Black Souls White Artifact** (Cambridge: Cambridge University Press, 1983) P.137.

(2) Helmi Sharawi, **Afro Arab Times** (Cairo: Dar Elalam Elthalith, 2006) P.200.

(3) Fanon , **towards Af rican Revolution** ,Haakon,Chevalier (Traslator) **op.cit.**, p.81 ..

(4) David Caute , **Fanon** (London: Fontana, 1970) P.52.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٢٣٧.

١- خصائص الاستعمار وصفاته :

أ- يتميز الوضع الاستعماري بأنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا ، ويتجلي هذا الانقسام واضحا على مستوي الجغرافيا من أن هناك مدنا ومدارس للأوروبيين لا يمكن الاقتراب منها ، ومدنا أخري ومدارس أخري للسكان الأصليين ، المدينة الأوروبية مترفة، متخمة، ساطعة بالأنوار ، ومدينة السكان الأصليين مكدسة بالأكواخ والبشر مدينة جائعة راكدة والحدود الفاصلة بينهما هي لثكنات ومراكز الشرطة ، هما مجتمعان منفصلان تماما وعالمان لا يلتقيان[١] والعلاقة بين المستعمِر والمستعمَر هي علاقة حدية إذ لا إتصال بين عالميهما ،إن وجود أحدهما يعني ضرورة زوال الأخر ذلك "أن العمل الذي يقوم به المستعمِر هو أن يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحرية أمرا مستحيلا ، والعمل الذي يقوم به المستعمَرْ هو أن يتصور جميع الوسائل الممكنة لإباده المستعمِر"[٢].

ويري فانون أن هذا العالم المنقسم هو مسؤولية الاستعمار أساسا، أن هذا الانقسام قد ولد على مستوي التفكير إنقساما ثنائيا في ذهن المستعمر، فوجود الاستعمار يعني عنده موت المجتمع الأصلي وفناء ثقافته القديمة وتجمد الحياة ، وأن الحياة لا يمكن أن تعود إلا من جثة المستعمر ، فعالماهما متعارضان يخضعان لمبدأ النفي المتبادل،لا سبيل فيه إلى مصالحة "إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول"[٣] وعند هذه النقطة من الإدراك والوعي يكون من المنطقي أن يري فانون أن:

ب- النظام الاستعماري يستمد شرعيته من القوة "ولم يحاول في أية لحظة من اللحظات أن يراوغ في هذا الأمر الذي يتفق وطبيعة الأشياء"[٤].

والقوة بطبيعتها تستدعي العنف وتتطلبه ، والعنف الاستعماري عنف منظم ومبرمج ويُشكل جزءا من بنيه وطبيعة النظام الاستعماري ذاته وهو حتمي، ذلك أن الاستعمار وإن حاول في بعض المراحل أن يقوم ببعض الإصلاحات ، بهدف تأمين وجوده ولتأخير نمو الوعي القومي فإنه يكتشف أنه لا يستطيع المضي في هذا الطريق

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص٩٠.
(٣) المرجع السابق، ص٤٤.
(٤) المرجع السابق، ص٨٤.

إلى مداه ، وإلا اضطر أن يقدم للمستعمرات ما لا يستطيع تقديمه في أراضيه نفسه، وأن هدفه من الاستعمار وهو استغلال الثروات لن يكون ذا مغزى، فلا يجد أمامه لتأمين وجوده وضمان استمراريته إلا انتهاج أسلوب العنف والقهر والإخضاع " فيعزز قوي الشرطة ويرسل فرق الجيش و"يقيم نظامًا إرهابيا يتلاءم مع مصالحة"[١].

ووصف فانون للاستعمار بأنه "ليس آلة مفكرة ، و ليس جسما مزودا بعقل ، إنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوي"[٢] ليس بعيدا عن واقع الممارسات الاستعمارية خاصة تلك التي عاشها ولمسها عن قرب في الجزائر إبان فترة الكفاح من أجل الاستقلال والنظام الاستعماري بالتالي وكنتيجة منطقية لهذا الانقسام الذي أوجده وأسلوب العنف في إخضاع السكان الأصليون لابد أن يكون النظام الاستعماري نظاما عنصريا،وبذلك نصل إلى السمة الثالثة المميزة للنظام الاستعماري.

ج- النظام الاستعماري نظام عنصري، والعنصرية من أهم القسمات المميزة له وهي "التي تهب المجتمع الاستعماري تماسكه"[٣] ذلك أن العنصرية" تحول الأهالي إلى عبيد، يتم استغلالهم بأشد الأساليب تجردًا من الإنسانية ، والعنصرية ترسخ في ذهن المضطهَدين أن سبب اضطهادهم هو نتيجة لدونيتهم، ويؤدى ذلك بدوره إلى إضعاف قدرتهم على المقاومة"[٤] بالعنصرية يتحول السكان الأصليين إلى أناس محجوزين "وليس التميز العنصري إلا شكلا من أشكال هذا الحجز في العالم الاستعماري إن أول شيء يتعلمه السكان الأصليون هو أن يلزموا أماكنهم ، وأن لا يتجاوزوا الحدود"[٥] ، وبهذا المعني فإن التفرقة العنصرية والفصل العنصري في جنوب أفريقيا هو تجسيد لهذا الانقسام الذي أوجده المستعمر،ويلاحظ فانون أن ما يقسم العالم إنما هو انتساب المرء أو عدم إنتساب إلى نوع معين وعرق معين[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص٦٤.
(3) Renate Zahar, **op.cit.**, P.19.
(٤) كوامي نكروما، م س ذ، ص ص ٢٨٣-٣٠٢
(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٥٥.
(٦) المرجع السابق، ص٤٥.

٢ - الأساليب التي يتبعها الاستعمار في مواجهة الشعوب المستعمرة:

ذكر سابقًا أن الاستعمار يتبع أقصي درجات العنف والقهر لضمان دوامه واستمراريته ، ولكن إلي جانب سياسة العنف هذه فإنه يقوم باتباع بعض الأساليب التي من شأنها أن تعمل على تقويض مجتمع المستعمرات من الداخل أو إضعاف تماسكه ولتصادر على إمكانيات التحرك من أجل التحرر مستقبلا، وتهيئ للاستعمار أرضية للتواجد في المستعمرات بعد الاستقلال على شكل استعمار جديد وتوجز هذه الأساليب ، كما رصدها فانون على النحو التالي:

أ-حصول بعض المناطق من البلاد المستعمرة على امتيازات على حساب مناطق أخرى[١].

بالإضافة إلى التفرقة التقليدية بين الريف والحضر فإن الاستعمار يتيح لبعض المناطق بعضًا من الثراء باكتشافه للموارد الطبيعية فيها وتنظيمه للاقتصاد على أساس تكامله مع اقتصاد البلاد المستعمرة فيحقق بذلك هدفين في وقت واحد.

أولهما: هو الإبقاء على المستعمرات في حالة دائمة من التبعية للدول المستعمرة حتى مع حصولها على استقلالها.

ثانيهما: هو خلق حالة من الانقسام والفرقة بين أولئك الذين يسكنون المناطق المزدهرة وأولئك الذين يعيشون في المناطق البائسة فتنبعث الحزازات وتنتعش الأحقاد القبلية وتثور النزعات الانفصالية ويضرب لذلك مثلا بانفصال إقليم كاتنجا الغني بالماس ويترتب على ذلك أن قضية الاندماج الوطني والتي تعاني منها الشعوب والدول الأفريقية تتجه. أكثر نحو التعقيد بسبب هذه الممارسات.

ب- إثارة النعرات القبلية والعرقية[٢] ومحاولة خلق حالة من الانقسام بين طوائف الشعب

غالبا ما يلجأ الاستعمار إلى أسلوب فرق تسد، ففي أثناء فتره الخضوع للاستعمار يعمد إلى إتباع هذا الأسلوب لضمان السيطرة الكاملة ، وفي فترة المقاومة والكفاح من أجل الاستقلال يعمل على إضعاف الاندفاعة الوطنية بإثارة النعرات

(١) المرجع السابق، ص١٥٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٥.

القبلية وتغذية التعصب العرقي فنجد الاستعماريين يتحدثون عن أفريقيا بيضاء و أفريقيا سوداء أو أفريقيا شمال الصحراء وأفريقيا جنوبها، وفي إطار الدين يعملون على تجزئه الشعب وإثارة الطوائف الدينية على بعضها البعض وفي نفس إطار هذه السياسة يعمل الاستعمار على خلق فئات من الناس ترتبط مصالحهم بمصالحه ويغدق عليهم فهناك دائما "كتلة من الرجال يمكن أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسؤولية على النكوص" لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعا لها من أجل ذلك ثمنًا كبيراً، إن الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسة تتقاطر غزيرة على الكونغو ، وفي مدغشقر تدفع للخونة أجور طائلة وفي الجزائر ينضم إلى القوة الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين"[1].

ويعمل الاستعمار أيضا على خلق أحزاب سياسية تابعة وقيادات بديلة في مواجهة القوي الوطنية ويعرض التفاوض معها لخلق حالة من الانقسام بين القوي الوطنية ولمواجهة الاندفاعة القومية وتشتيتها ولتفريغ النضال الوطني من مضمونه[2] وغالبا ما يعتمد الاستعمار في ذلك على فئات من المثقفين الذين تشربوا الثقافة الاستعمارية وتبنوا قيمها منفصلين عن مجتمعاتهم.

ج- الغزو الثقافي :

وهو من أخطر الأساليب المتبعة ، فالاستعمار عاده ما يعزز إحتلاله وغزوه العسكري بغزو ثقافي يهدف إلى استئصال الشخصية المعنوية ، وأن يجرد المستعمر من أيه قيمه كانت له في تاريخه ويدخل في روعه أن العهد السابق عليه كان ظلاما وهمجية ووحشية.

ومن أخطر وأسوء آثار هذا الغزو الثقافي" هو ذلك الصراع الذي يتعرض له المستعمَر مابين ثقافته التقليدية التي نشأ عليها والثقافة الوافدة وقيمها التي تنعكس في حالة من عدم اليقين ومن القلق ...ويتفاعل المستعمَر مع هذا المأزق بعمليات تعويضية ومحاولات للتكيف تنتهي به إلى حد كراهية الذات"[3].

(١) المرجع السابق، ص١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٧٤.

(3) Renate Zahar, **op.cit.,** P.35.

"وأن النتيجة الكلية التي تتبعها السيطرة الاستعمارية هي أن تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام، وأن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم إلى الهمجية والوحشية والحيوانية"[١].

وذلك بهدف أن يطمس ماضيه وحاضره ويصادر بالتالي على مستقبله ويهيأه؛ لأن يتكيف مع الوضع الاستعماري قابلا له.

و يري فانون "أن عملية القضاء على الشخصية الثقافية ممثلة للجانب السلبي من عملية أضخم تهدف إلى الاستعباد الاقتصادي بل والبدني"[٢].

٣- المراحل التي يمر بها الاستعمار

بحسب تحليل Jock McCulloch [٣] فإن فانون يفترض أن هناك ثلاثة أطوار واضحة مميزة للاستعمار:

الطور الأول وأطلق عليه الطور الاستخراجي، وفيه كان الأوروبيون ينظرون إلى المستعمرات كمصدر للمواد الخام ،ويتم في هذه المرحلة تمويل الرأسمالية الأوروبية من التراكم الرأسمالي الناتج عن عملية استنزاف موارد القارة.

الطور الثاني وهو الطور الاستهلاكي، وفي هذه المرحلة فإن المستعمرات قد استمدت أهميتها من كونها سوقا للسلع الأوروبية المصنعة ومجالا للاستثمارات الأوروبية التي زادت فوائضها كثيرا عن قدرة السوق المحلي على استيعابها، تلك الفوائض التي لم تكن لتتحقق لولا استغلال الثروات والمواد الخام في الطور الأول، وتتميز هذه المرحلة بالصراع من أجل الاستحواذ على الأسواق العالمية

الطور الثالث والأخير وهى المرحلة العليا من الاستعمار تتميز بالهيمنة المتزايدة لمناطق النفوذ الاقتصادي وحروب المنافسة الشرسة بين المجموعات المالية المتنافسة وتتزامن هذه المرحلة مع مرحلة الاستقلال القومي،

ووفقا لهذا التصنيف فإن فانون يرى أنه طالما أن التقدم الاقتصادي للدول

---

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٩٩.

(٢) فرانز فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص١٣.

(3) Jock McCulloch. op.cit., P 137.

الأوروبية يعتمد على الإبقاء على المستعمرات فإن أي حركة تحرر حقيقية تشكل خطراً شديداً على مصالحها.

وبحسب تحليل Jock McCulloch فإن المرحلة المعاصرة من الإمبريالية هي نفسها ما أسماها فانون المرحلة العليا من الاستعمار ،ويرى أنها محكومة بنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية وذلك لأسباب جوهرية تتعلق بالنظام الاقتصادي الأمريكي الداخلي حيث تواجه أمريكا قصورًا في ناتج استثماراتها الرأسمالية في فترة ما بعد الحرب مباشرة ، مما يدفعها صوب الشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ،ويذكر McCulloch أن ذلك يؤدى بأمريكا إلى دعم الأنظمة القمعية التابعة لها.

وهذا المستوى من التحليل لمراحل العملية الاستعمارية يبدوا واضحًا فيه أن وجهة النظر كانت تتجه لرؤية هذه المراحل من زاوية النظر للممارسة الاستعمارية ،ولكن للاتساق مع التوجه العام للدراسة فإن هناك إمكانية أخرى للنظر من زاوية معاكسة تمامًا ، وهى زاوية حركة الشعوب ، ومقاومتها ، فمن هذه الزاوية يمكن رصد ثلاثة مراحل من العملية الاستعمارية متوازية مع التحليل السابق .

المرحلة الأولى وهى مرحلة الغزو، وتستخدم فيها القوى الاستعمارية أشد أنواع العنف والبطش للتغلب على مقاومة السكان الأصليين وإخضاعهم.

المرحلة الثانية وهى مرحلة يتم فيها السيطرة الكاملة على المستعمرات ، وفيها تخمد حركة المقاومة إلا من بعض انتفاضات متفرقة ،ويتحقق في هذه المرحلة عملية النهب الاستعماري لثروات البلاد المستعمرة واعتبارها أسواقا جديدة مفتوحة لمنتجات الدول الأوروبية.

المرحلة الثالثة، وهى مرحلة الكفاح الوطني من أجل الاستقلال وتستمر هذه المرحلة إلى ما بعد الحصول على ما اعتبره فانون أنه في كثير من الحالات استقلال شكلي ، وفي هذه المرحلة يوائم الاستعمار أساليبه ويتحول من احتلال عسكري مباشر إلى سيطرة غير مباشرة فيسلم السلطة لقوى حليفة له مع احتفاظه ببعض القواعد العسكرية وربط معظم الدول المستقلة حديثا باتفاقيات ومعاهدات عسكرية و اقتصادية تتيح لدول المراكز الاستعمارية مواصلة استغلالها لدول العالم الثالث في إطار من عمليات التبادل الغير متكافئ أو من خلال التحكم في أسعار المواد الأولية وتخفيضها مع زيادة أسعار السلع الأوروبية المصنعة،وهذه المرحلة هي ما يطلق عليها

الاستعمار الجديد والذي يعمد إلى أتباع آليات اقتصادية للسيطرة عن طريق إغراق الدول الأفريقية بالديون، ثم فرض سياسات اقتصادية عليها كشرط لاستمرار الإقراض على نحو ما حدث مع الدول الأفريقية ودول العالم الثالث منذ ثمانينات القرن الماضي بفرض ما اصطلح على تسميته بسياسات التثبيت والتكيف الهيكلي وحرى بالذكر أن هذه المرحلة من الكفاح الوطني لا تتوقف بمجرد حصول الدول على استقلالها السياسي ولكنها تمتد وصولا لحصول الشعب على حقوقه الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق تقدمه وإحداث تنميته الاقتصادية.

ثانيا: التأثيرات السلبية للاستعمار:

السيطرة الاستعمارية في رؤية فانون لها هي سيطرة شاملة كلية وبالتالي فإن انعكاساتها السلبية على المستعمرات تشمل هي الأخرى كل نواحي الحياة فلها تأثيرها على المواطنين والأفراد ويمتد التأثير ليطال البنية الاجتماعية ويعمل على هدم الوجود الثقافي للشعب المستعمر.

ولقد أفرد فانون في كتابه (معذبو الأرض) فصلا كاملاً بعنوان "الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية" أوضح فيها التأثير المدمر على شخصية كلٍ من السكان الأصليين الذين يتعرضون لأهوال العنف الاستعماري والتعذيب الوحشي وذلك التأثير السلبي على شخصية من يقومون بالتعذيب وكيف أنهم يعانون من اضطرابات نفسية وتفكك في الشخصية، ويتم في هذا المطلب تناول التأثيرات السلبية للاستعمار على مستوي الأفراد والبنيات الاجتماعية وعلى الثقافة والوجود الثقافي للشعب المستعمر وذلك على النحو التالي:

الأفراد:

يبدأ فانون من واقع أن الاستعمار من حيث هو نفي للآخر فهو ينفي كل صفة إنسانية عنه ويجرده من كل مقومات الوجود الإنساني ويمارس قدرا هائلا من العنف ليفرض السيطرة الكاملة على المستعمرات. وعلى هذا فإن المستعمِر يثير في المُستعمَر غضبا لا يستطيع التعبير عنه وهذا الغضب المكبوح يؤدي بدوره إلي توترات عضلية ونفسية وتصبح " الحياة الانفعالية لدي المستعمر تجري كالجرح النازف وتفرغ

شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض علماء النفس يقولون عن المستعمَر إنه إنسان مصاب بالهيستيريا"[(١)] ويلجأ المستعمر الخاضع والمقموع والمتوتر انفعاليا وعضليا للتخفف من هذه الأثقال إلي سلوك هروبي فنجد أن عداءه بدلا من أن يتجه لمواجهة الاستعمار فإنه يتجه إلي أن يعبر عن نفسه ضد مواطنيه أنفسهم، فتنشأ من حين لآخر المعارك القبلية والنزاعات بين الأفراد " فإن المستعمر حين يخوض معارك الثأر إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له"[(٢)].

إن المعارك التي تدور بين القبائل إنما هي تدمير للذات، وهذا التدمير هو إحد الطرق التي بها يتحرر المستعمر من توتر عضلاته[(٣)]. ويلجا المستعمر في أحيان أخري إلي الدين فبواسطة الإيمان بالقدر يجرد المضطهدين من المسؤولية ويبرر خضوعه ليحقق بذلك توازنا داخليا،أو يلجأ إلي الخرافات والأساطير، فتبدو له القوي الغيبية السحرية قوى جبارة تبث فيه الرعب وتصغر إزاءها قوى الاستعمار ولا تكون مشاكله أن يصفي أمره مع العالم الاستعماري؛ لأن أعدائه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شيء ، وتنحل الأمور كلها في معارك دائرة على مستوي الوهم والخيال.

ويري فانون " أن على كل دراسة تتناول العالم المستعمر أن تعني حتما بفهم ظاهرة الرقص والمس، إن المستعمر يفرج عن نفسه في هذه الحفلات الصاخبة ويجد العنف مجاري وسبل إلي التحول والتلاشي، فجلسات المس والتحرر منه بما تعنيه من تفتيت وازدواج وتحلل والشخصية تقوم بوظيفة أساسية في تأمين السكون في العالم المستعمر.

عند هذا المستوى من التحليل الذي يتناول الحياة الانفعالية الداخلية لدي المستعمر بفعل تأثير العنف الاستعماري عليه نجد أن أخطر التأثيرات الاستعمارية لدي الفرد تكون في:

تدمير البناء الشخصي للفرد وإحداث ما سبق الإشارة إليه من تفتيت وتحلل في الشخصية، وهذا بدوره يكرس استمرارية خضوعه، ويقلل من إمكانية قدرته على مواجهة الاستغلال الاستعماري الذي هو الهدف الأساسي للاستعمار.

---

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٦٠.

(٢) م س ، ص٥٧.

(٣) م س ، ص٥٨.

كون أن العنف في أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ويستنفذ في خصومات يقتتل فيها الإخوة وتتنازع فيها القبائل ذلك يؤدى بدوره إلي ضعف التماسك الاجتماعي و الوطني.

ترسيخ قيم التخلف والركون إلي الاعتقاد بقوى غيبيه سحرية، تعوق انطلاق المستعمر و تعيق قدرته وإرادته على مواجهة مشاكله الحقيقية مع المستعمر.

السلوك الهروبي في المواجهة يؤدي بالمستعمَر إلي وجود وانتشار ظاهرة الجريمة، حتى لقد قال البعض " إن الجزائري مفطور على الجريمة وأنشؤوا لهذا نظرية"[١]، ويعزو فانون النسبة العالية من الجريمة إلى الحالة الاستعمارية نفسها ؛لأنه نتيجة للضغط الغير محتمل على المستعمَر عبر فترة طويلة تنشأ عدوانية مكبوتة تؤدى إلى انفجار غير مسيطر عليه يتوجه في البداية ضد المواطنين أنفسهم[٢].

وبصرف النظر عن التفسيرات والتبريرات التي حاول الأطباء بها تفسير الظاهرة بما يتفق والتوجه الاستعماري إلا أن الملاحظ أن "جرائم الحق العام كادت تختفي منذ عام ١٩٥٤ "[٣] وهذا ما يعني في فهم فانون أن انتشار الجريمة يؤوِّل بوجود الاستعمار و أن ما يسند إلي الجزائري من ميل للجريمة ومن عنف في القتل، ليس إذن ثمرة بنيان جملته العصبية، ولا صفة أصيلة من صفات طبعه ، وإنما هو نتيجة مباشرة للاستعمار[٤]. وفي نفس السياق فإن الأذى الذي يصاب به المستعمر ليس وقفا عليه وحده ، ولكن الاضطرابات النفسية تطال أيضا فريقا من الرجال الاستعماريين هم هؤلاء الذين يقومون بالتعذيب ويورد فانون في الجزء الخاص بالحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية عددا من الحالات المشاهدة لفرنسيين يعالجون من اضطرابات تتعلق بطبيعة عملهم في تعذيب الجزائريين، وفيها يسرد قصة مفتش البوليس الذي وصل به الأمر إلي ضرب زوجته وأولاده ولم يسلم من ذلك حتى ابنه الصغير الذي لا يزيد عمره عن عشرين شهرا يضربهم بوحشية نادرة ويقول عن نفسه : إنني إذا صادفت معارضة ما أحسست برغبتي في الضرب ، حتى خارج عملي أتمنى أن أعذب من يعترض طريقي . والطريف أنه لجأ طالبا للمساعدة

(١) م س ، ص٢٥٧.

(2) Renate Zahar, **op.cit.,** P.54 (

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ ، ص٢٨٨.

(٤) م س ، ص٢٩١.

في أن يستطيع أن يعذب الجزائريين دون أن يصاب باضطرابات في السلوك، أي يعذبهم بهدوء وجأش رابط[1].

ويستمر فانون في سرد قصص أخرى لمرض آخرين يعانون أعرضا مختلفة، وتؤكد كلها أن جرائم التعذيب التي يقوم بها الأفراد تؤثر على سلوكهم وتصل بهم إلي تحلل وتفكك شخصياتهم هم أيضا. ولعل هذا هو السبب الذي يدفع بعض الديمقراطيين الفرنسيين إلي رفض سياسات العنف المتبعة، ويفسر ذلك بأنه ليس رحمة بالجزائريين ولكنه خوفا على جيل من الشباب الفرنسيين أن يصاب بالسادية وبالأمراض النفسية المختلفة.

ويخلص فانون في دراسته للظواهر التي عاينها أثناء عمله كطبيب نفسي في مستشفي بليدة أن" في مرحله الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح حين يتجاوز مجموع المتهيجات الضارة حدا معينا تنهار المواقف الدفاعية للمستعمرين... وفي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر نري مقدارا مضطردا من الأمراض يحدثه الاضطهاد إحداثا مباشرا .. وأن الحرب الاستعمارية هي الحادث الذي يطلق المرض"[2].

ويصل من ذلك إلي نتيجة حاسمة بلورها" منذ عام ١٩٥٤ في بحوث علمية مختلفة في صعوبة شفاء المريض من المستعمرين شفاءا سليما، أي جعله متجانسا تاما مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعماري[3].

تأثير الاستعمار على البنيانات الاجتماعية[4]:

تاريخيًا فإنه مع المراحل الأولى للاستعمار فقد عمل الاستعمار على تدمير الأبنية التقليدية القائمة سواء كانت أبنية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، فسياسيا

(١) المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٤) عن تأثير الاستعمار على البنيات الاجتماعية للدول المستعمرة ومزيد من فهم حالة الإستلاب والاغتراب التي يتعرض لها المستعمَر، انظر

Renate Zahar, **op.cit.**, PP.5-7 ,PP.74-75.

تم تقويض السلطة القائمة أو احتوائها للتعاون مع المستعمر واجتماعيا تم تفكيك كل الروابط التقليدية القائمة واقتصاديا فقد كان النشاط الاقتصادي السائد يعتمد على الزراعة البدائية والرعي والصيد ، فتم انتزاع ملكية الأراضي الجيدة من المزارعين وإعطاؤها المستوطنين البيض وفرض على الفلاحين زراعة بعض المحاصيل النقدية المعينة بغرض التصدير فتغير هيكل الإنتاج تمامًا ومن ثم تغير هيكل الاستهلاك فلم يعد الفلاح يزرع ليأكل وإنما كانت زراعته بهدف التصدير وأصبح هناك قصورا في تغطية الاحتياطات الأساسية للسكان فكان أن ظهر نمط جديد من الاستهلاك للسلع المصنعة المستوردة.

وكما أن للاستعمار دوره السلبي على مستوى الأفراد والبناء الاجتماعي فإن دوره السلبي يمتد ليطال البناء الثقافي للشعب المستعمر،بغية تجريده من كافة العناصر التي تدفع به للمقاومة،وهذا الجانب من جوانب التأثير الاستعماري سيتم التعرض له بالدراسة في مواضع أخرى من هذه الدراسة.

ثالثا : كيفية وأسلوب المواجهة

يؤمن فانون أن الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالإقناع وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف ويذهب إلي أن الأقطار التي حصلت على استقلالها بالطرق السلمية "وقعت في قبضة طبقة برجوازية لا تقل برجوازية وشوفينية عن الطبقة البرجوازية الفرنسية التي كانت قائمة في عهد الثورة الكبرى"[1] .

ووفق هذا الفهم احتل العنف مساحة كبيرة من الإسهامات الفكرية لفانون، ويعود ذلك إلي تجاربه التي خاضها، فقد عايش فانون تجربة الحرب والتي لا شك أنها شكلت فهمه للعنف، فقد خاضها وهو ما زال شابا لا يزيد عمره عن سبعة عشر عام، فهزته بشدة وطهرته من المثالية التي كان عليها حينما التحق بقوات فرنسا الحرة، والتجربة الأخرى التي عايشها فانون هي تجربة العنف الاستعماري الذي يواجه به المستعمرون الشعوب المستعمرة، ففي أثناء عمله بمستشفي بليدة للأمراض العقلية ثم مشاركته في فعاليات الثورة الجزائرية بعد انضمامه إليها ، لمس عن قرب نتائج

(1) David Caute, op.cit., P.60.

العنف الاستعماري، ورأي بنفسه تداعياته وأثره على ضحاياه وعلى من يمارسون أعمال العنف نفسها، وكان طبيعيا أن يقوم فانون كطبيب نفسي بتحليل طبيعة العنف المكبوت في داخل المستعمر ويصفه ويحلله بعمق(١).

واتسمت نظرة فانون إلي العنف بالواقعية لكونها ناتجة عن رؤية مباشرة ومعايشة لواقع حي من الممارسات العنيفة ولا تعود إلى فكرة نظرية "فلم يشر فانون في الدراسات التي وضعها عن العنف الجماعي إلي الحجج المختلفة المتوفرة في الحركة الماركسية بل كانت الجزائر وأفريقيا هما المصدرين الذين حددا نظرته إلي العنف مستمدا هذه النظرة من مشاهداته المباشرة في هذه المناطق(٢).

لذلك لم يكن غريبا أن يتخذ فانون العنف موضوعا أساسيا في كتابه "معذبو الأرض"؛ لأن العنف الذي يدافع عنه هو "نتاج لأكثر الحروب دموية لنهاية الاستعمار الفرنسي(٣).

وأهمية هذا الكتاب تنبع من أن فانون يوضح فيه أن المستعمر هو المسؤول عن ثقافة العنف بخلقه مناخا عاما من الممارسات العنيفة الوحشية، ولا يكتفي فانون بتشريح بنية العنف الاستعماري ولكنه يشرح أيضا الكيفية التي يجب بها مقاومته، فالعنف عنده ليس عنفا مجردا ولكنه يرتبط بالظاهرة الاستعمارية" "فالعنف والاستعمار يمضيان معا يدا بيد" (٤) فالاستعمار في نظره مرادف للعنف السياسي والعسكري والثقافي والنفسي ومن ثم فلا يمكن أن يقضي عليه إلا عنف مماثل و معاكس في جميع المجالات، ولذلك فإن " نشوء عنف مناهض للاستعمار هو شيء يتناسب مع مدي القمع الذي يمارسه نضام الحكم الاستعماري المرفوض(٢).

والمفهوم الأساسي لنظرية فانون عن العنف يستند إلى أن الضغط الذي يتعرض له المستعمَر بواسطة النظام الاستعماري فانه يتوجه أولا إلى أهل البلد والمواطنين أنفسهم وفي سلوك اغترابي يتصرف المستعمَر ضد كل مصلحته ولكن مع بدء المقاومة الشعبية وتنظيمها وتسييسها فان العنف يتوجه إلى العدو الحقيقي ويفقد

(1) David.Macay, **op.cit.**, P.2.
(2) David Caute ,**op.cit.**, P.81.
(3) David Macay, **op.cit.**, P.2.
(4) David Caute, **op.cit.**, P.81.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٨٩.

سلوكه الإجرامي ويصبح أداة فعالة في التحرر والانعتاق ومقاوما للاغتراب.[1]

والفكرة الأساسية التي يدور حولها كتاب " معذبو الأرض" هي أن العالم الاستعماري الذي قام على العنف لا يمكن الخلاص منه إلا بالعنف، فهو السبيل الوحيد التي يجب أن يسلكها المستعمرون للتحرر من المضطهدين الذين يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الإنسان.

والعنف عند فانون ليس غريزيا ولكن له سماته وله وظيفته.

١- خصائص العنف وسماته :

العنف عند فانون ليس عنفاً للعنف، وليس عنفاً مجردا، وهو عنف مفروض تفرضه الضرورة حيث لا خيار آخر أمام المحتلين للحصول على الاستقلال والحرية بدونه، وهو عنف ثوري وإيجابي وبناء في نفس الوقت وهو عنف جماعي وليس فرديا وهو في المحصلة عنف مشروع.

وكون أن العنف ليس عنفاً مجردا فذلك؛ لأنه يهدف إلى خلق الإنسان الجديد، ويوضح سارتر ذلك في مقدمة كتاب (معذبو الأرض) قائلًا: " لسوف يوضح لهم فانون توضيحا كاملا أن هذا العنف ليس يقظة غرائز وحشية... و لا هو ثمرة حقد.. إن الإنسان يشكل نفسه تشكيلا جديدا.... والمستعمر يشفي من عصاب الاستعمار بطرد المستعمر بالسلاح. إنه حين ينفجر حقده يسترد شفافيته المفقودة.. إن هذه الحرب تؤدي بذاتها إلي تحرير المقاتل بالتدريج. فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئا بعد شيء ... حين يقبض الفلاحون على البنادق فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها وإن جميع الممنوعات تنهار واحدة بعد الآخر إن سلاح المقاتل هو إنسانيته"[1] . وهو لذلك عنف مشروع ومبرّر ومن ناحية أخرى فهو عنف إيجابي وبنّاء؛ لأنه" أداة قلب أوضاع الظلم السائدة"[2] ، ومع تسييس المقاومة الشعبية وتنظيمها فان العنف يفقد سلوجه الإجرامي ويتجه إلى العدو الحقيقي ويصبح أداة

---

(1) Renate Zahar **op.cit.**, P.56.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٢٩.

(3) David Caute, **op.cit**.., P.34.

فعالة في التحرر والانعتاق ومقاوما للاغتراب[٣].

وأن يكـون العنـف مفروضـاً فـذلك يعـود إلى أن " تغيـير المـستعمر للعـالم الاستعماري لـيس معركـة عقلية بـين وجهتي نظـر.. وإنـما هـو تأكيـد عنيـف لأصالة تفرض مطلقة"[١] . ويصل فانون إلي نتيجة مؤداها " أن في الكفاح المسلح شيئا نـصح أن نسميه –نقطة اللاعودة– بعدها نستطيع أن نقول: أن الأمـر الـذي يحقـق الوصـول إلي هـذه النقطـة هـو أعـمال القمـع الواسـعة التـي تـشمل جميـع قطاعـات الـشعب المـستعمر"[٢] ،وعـلى ذلـك فـان الاضـطهاد الاسـتعماري هـو الـذي يفـرض عـلى المستعمَرين والمضطهَدين ومعذبو الأرض أن يحطموا الواقـع الاسـتعماري وينتزعـوا حريتهم بكل الطرق الضرورية بما فيها استخدمهم العنف.[٣]

واعتبـار العنـف ضرورة يعـود إلي أن العنـف المكبـوت داخـل المستعمَر هـو عنف مدمر للذات والخلاص منه يمر بتحويله إلي عنف إيجابي ضد المستعمِر.

وهو أيضا عنفٌ ثوريٌ؛ لأن النضال المسلح هو من بين أدوات تحقيق الحريـة ويستخدم كخيار أخير في حال فشل البدائل السلمية و كل الخيارات الأخرى كما كـان واقع الحال في فيتنام والجزائر[٤] .

وهو عنف إيجابي وبنّاء؛ لأنه في اللحظة التي يمارس فيها المحتلون العنف ضـد محتليهم فإنهم يحققون أنفسهم من خلال مواجهتهم للعنف الاستعماري

كـما أنـه لـيس فرديـا، فمـن المؤكـد أن المقاومـة المـسلحة المـضادة للاسـتعمار والعنف الجماعي لحركة التحرير، ليس مجرد مجموع العنـف الفـردي لـبعض الأعـضاء المقاتلين[٥] لكنه عنف جماعي يقوم به أفـراد الـشعب في سياق حركـة التحـرر الـوطني ومقاومة الاستعمار" العنف وحده، العنف الذي يلتزم به الشعب، هـو الـذي يجعـل في إمكان الجماهير أن تفهم الحقائق الاجتماعية ويعطيها مفتاح تلك الحقـائق[٦] . والعنـف

(1) Renate Zahar, **op.cit.**,P.56.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٤٦.

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٠.

(4) Jose da mota-lopes,**op.cit.**, P.49.

(5) **Idem**.

(6) **Ibid**, P.53.

(٧) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١١٨.

على نطاق الشعب هو الذي يصهر القبلية والإقليمية ويشد أبناء المجتمع بعضهم إلى بعض ملزما كل فرد بواجبه نحو نفسه ونحو الآخرين"[١].

وهو عنف مشروع ومبرر ويستمد شرعيته من كل السمات والخصائص التي كما وُضِّحتْ سابقا، فكونه ليس مجردا ومفروضاً وضرورةً وإيجابيا وبنّاءاً وجماعيا فذلك يعطيه بالبداهة مشروعية تنبع من خصائصه الإيجابية في مجملها، وإلى جانب ذلك يستمد العنف شرعيته الأساسية من كونه دفاعاً عن النفس، فمن المعترف به أنه في حالات محددة ومنها حالة الدفاع عن النفس سواء كان ذلك يتعلق بفرد أو أمة فإن اللجوء إلى العنف يصبح خياراً جائزاً ومشروعاً، وإقرار فانون بمشروعية العنف ينبع من أنه رد فعل لحالة القمع الاستعماري[٢].

٢- **أهداف العنف ونتائجه :**

وكون أن العنف كما يراه فانون ليس غريزيا وليس عنفا من أجل العنف فإن له عدة أهداف يمكن إيجازها على النحو التالي:

فهو يستخدم في قلب أوضاع الظلم وبالعنف "يكتشف المستعمَر الواقع ويبدله ويعمل في سبيل التحرير"[٣]، ومن خلال النضال يقيم مجتمعاً فعالاً وعلاقات اجتماعية أكثر فاعلية وإنسانية تؤدى إلى تأسيس نظام اجتماعي جديد وعادل[٤].

وهو وسيلة للتطهر والخلاص من الخرافات ومن العنف المدمر للذات "إننا نشهد في أثناء الكفاح التحرير بُرء المجتمع من أمراض هذه الطقوس (السحر والشعوذة) إن المستعمر يحمل الآن رشاشة بيده ويقاتل القوي التي كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه أعني قوى الاستعمار"[٥]، ويزكى فانون العنف لأسباب تفوق مجرد ضرورة الدفاع عن النفس أو إزاحة الأنظمة الاجتماعية الفاسدة ولكنه يراه

---

(1) David Caute, **op.cit.**, P.84.
(2) Messay Kebede, **op, cit.**, P.539.)

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٦١

(4)Messay Kebede, **op, cit.**, P.554.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٦١

علاجاً ضروريا للأمراض الثقافية الناتجة عن الخضوع للمستعمر فالاستقلال والكرامة لا يمكن استعادتها ما لم ينخرط المستعمر في العمل العنيف[١].

ج- وهو يعجل نمو الوعي القومي " إن أعمال القمع التي تقوم بها السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب بل تعجل نمو الوعي القومي إن النوازل في المستعمرات إنما تعزز الوعي الذي أخذ ينمو"[٢]. والعنف يرفع الشعب إلي مستوي القائد ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها"[٣] .وفي نفس الاتجاه يري كوت أن" العنف يعيد بناء الوعي "[٤] .

د- ويؤدي إلي تماسك المجتمع "فإن الكفاح العنيف يجمع الأفراد إذ أن كل واحد منهم يصبح حلقة في السلسلة الكبرى... إن الكفاح المسلح يعبء الشعب ...إن النظام الاستعماري يغذي الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية و لكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومي وهو لذلك يحمل في أرحامه بذور القضاء على الإقليمية والقبلية"[٥] .

هـ- والعنف يبدل القيم " إن هذه القيم التي يلوح أنها تسمو بالنفس، يتضح الآن أنها لا فائدة منها أولا لا جدوى فيها؛ لأنها لا تتصل اتصالا مباشرا بالمعركة المحسوسة التي يقودها الشعب، والفردية تأتي في طليعة هذه القيم... فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ إلا قضية جميع الأفراد، فإنهم أما يكتشفهم جنود الاستعمار فيقتلوهم جميعا وأما أن ينجوا جميعا إن نجاه الفرد بنفسه في الميدان هو أمر مرفوض"[٦] . ويري أن" التجربة الفردية متي كانت قومية متي كانت خيطا في نسيج الوجود القومي لم تبق محدودة ضيقة بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة"[٧] .

---

(1)Messay Kebede ,**op, cit**,.p.539

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ ص ٧٣.

(٣) م س، ص٩٢.

(4) David Caute, **op.cit.**, P.85.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٢.

(٦) المرجع السابق، ص٥٢..

(٧) المرجع السابق، ص١٨٨.

وخلاصة القول:

" إن العنف يطهر الأفراد من السموم أنه يخلص الفرد من مركب النقص الذي يعيث في نفسه فسادا، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس إنه يرد إليه شجاعته ويرد إليه اعتباره في نظر نفسه"(١)

٣- المراحل التي يمر بها العنف:

العنف من وجهة نظر فانون يقوم على مرحلتين،

يبدأ تلقائيا في المرحلة الأولى كرد فعل على الممارسات الاستعمارية وهو في هذه المرحلة غير منظم ولا يتضمن مفهوم سياسي ويتجه إلي أن يتعامل مع مرحلة الاغتراب التي يعيشها المواطن الأصلي.

وفي المرحلة الثانية فإنه يتخطي العفوية والتلقائية ويتحول العنف التلقائي ويصبح عنفاً منظماً وعاقلاً على يد قادته ويفتح الطريق أمام الجماهير لفهم الحقائق الاجتماعية(٢) كما أنه يكون متداخلا مع الثورة الاجتماعية وممتداً إلي مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي الشكلي ويغير من الأبنية الاستعمارية الرأسمالية التي تسبب الاستلاب.

و طبقا للاقتراب النفسي الاجتماعي الذي ينتهجه فانون، فإنه يكرس اهتمامه بشكل مباشر إلي المرحلة الأولى من العنف(٣) .وهي المرحلة التي يتم فيها استنهاض الوعي الثوري فالرجل المستعمر يجد نفسه وحريته في العنف ومن خلاله(٤) .

وفي المرحلة الأولي من العنف حيث تفتقد الرؤية السياسية والإستراتيجية يكون للعنف في هذه المرحلة وظيفة نفسية اجتماعية. والعنف التلقائي هو شرط ضروري للانتقال إلي مرحلة النضال التحرري المنظم وهو بمثابة الإعداد النفسي للمستعمرين من أجل البدء في النضال التحرري الذي لابد من أن ينظم ويسيس إذا

---

(١) المرجع السابق، ص٩٢

(2) José da Mota-Lopes, op.cit., P.54.

(3) Renate Zahar, op.cit., PP: 80- 82.

(٤) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٨٦

ما أريد له أن لا يجهض في المهد مثله مثل كل الثورات الكثيرة المتقطعة ضد الاستعمار[1]

وللدخول في المرحلة الثانية من العنف المنظم يلزم لذلك شرط ضروري وهو توفر الوعي "؛ لأنك يمكن أن تستمر لثلاثة أيام وربما لثلاثة أشهر بدافع الاستياء أو الغضب ولكنك لا تكسب حرباً ولا تتخلص من ماكينة العدو الرهيبة ولا أن تغير السلوك الإنساني، إذا لم ترفع وعي المقاتلين"[2] .

٤- موقف الأحزاب والقوى الأخرى من العنف

يعتبر فانون أن الأحزاب السياسية البرجوازية تستبعد فكرة العنف بل وتخشاه؛ لأن هذه الأحزاب لا تهدف إلي قلب الأوضاع التي أوجدها الاستعمار ولا تطمع في أكثر من الاستيلاء على مقاليد الحكم من يد المستعمر وكل ما تريده هو أن تفاوض المستعمر لتنتهي معه إلي تسوية فهي أحزاب إصلاحية لا تأخذ مواقف جذرية ضد الاستعمار، هي أحزاب تعمل فقط من أجل تحسين الأوضاع المعيشية ومن أجل التمثيل الانتخابي، ويري أيضا أن مصالح البرجوازية المحلية تلتقي مع مصالح البرجوازية الاستعمارية وأن العنف يحمل تهديدا لمصالحها وفي هذه الحالة فإنها تبادر إلي تسوية تضمن مصالح الطرفين، وتبدأ دعوة اللاعنف وبذلك " يكون اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أي حركة لا سبيل إلي تداركها"[3] .

وفيما يخص المثقفين يري فانون أن هناك فئة من المثقفين تشربوا الثقافة الاستعمارية وارتبطت مصالحهم بالوجود الاستعماري ويعتقدون أن عنف الجماهير ليس هو السبيل الأجدى، ويرون في الأساليب العنيفة سلوك يأس وانتحار، هم عاجزون، ويبررون عجزهم بافتراض أن للعنف شروطه التحضيرية وأدواته غير متوافرة في مواجهة قوة المحتل، " إن دبابات العدو وطائراته المقاتلة تحتل في أدمغتهم مكانا كبيراً إنهم يشعرون بالعجز"[4] .

(1) Renate Zahar, **Op.cit.**,P.84.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٣٠.
(٣) المرجع السابق، ص٦١.
(٤) المرجع السابق، ص٦٦.

ما تم استعراضه سابقا هو رؤية فانون للعنف ودوره في معارك التحرر من الاستعمار موضحاً فيه سمات العنف وأهدافه وتطوره وموقف الفئات الاجتماعية منه فماذا عن فانون نفسه هل يمكن أن يقال أنه إنسان عنيف بطبعه، الرد على ذلك نجده عند إيمي سيزير الذي عرف فانون جيدا حين قال عنه:"إن عنفه بدون مفارقة هو عنف رجل غير عنيف، وأنه عنف العدالة وتطهير النفس"[1].

وللتدليل على طبيعته غير العنيفة يكتب كوت :" ..يقال أنه أثناء الفترة التي قضاها فانون في الدراسة في جامعة ليون كانت يده ترتجف دون أن يتمكن من السيطرة على حركاتها عندما كان يقوم بتشريح الجثث"[2].

وخلاصة القول: فإن فانون كان يري ضرورة التصدي؛ لإنهاء الاستعمار ومن واقع الخبرة المعاشة فإنه لم يكن ممكناً الوصول إلي التحرر والاستقلال إلا بالمواجهة العنيفة للاستعمار فهي السبيل الوحيد الممكنة والضرورية؛ لإنهائه.

٥- نظرية العنف بين فانون وناقديه

تناول عدد من قارئي ومحللي وناقدي فانون، فكرة العنف التي طرحها باعتبارها فكرة مركزية في أعماله، وإذا كانت القراءات المختلفة لأعماله تسمح باقتراب متعدد الأبعاد،إلا أنه بحسب أحد الباحثين[3]، فإن قراءة فانون من هذه الزاوية كانت قراءة انتقائية تعزل بعضا من أفكاره عن نصوصه وأفكاره الأخرى مما يؤدى إلى نتائج غير متوقعة وغير صحيحة،وهذه القراءة الانتقائية تتجه في مجملها إلى تجاهل كل ما يتعلق بشكل مباشر وغير مباشر بخبرة فانون الحياتية وافتراضاته ومدركاته وأهدافه في تحقيق مستقبل أفضل وأكثر عدلا، كما شرحها وقدمها هو نفسه، وكذلك تجاهل مرجعية الزمان والمكان في كتاباته، وهذا التجاهل للسياق والبيئة زمنيا ومكانيا يعتبر قصوراً منهجياً يترتب عليه الوقوع في أخطاء في الفهم والتحليل، ذلك أنه تم إغفال قسمتين أساسيتين لأعمال فانون لم تؤخذا في الاعتبار.

أولهما : أن معظم ما كتبه فانون كُتِب في سياق حركة تحرير وطني تخوض

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.85.
(2) David Caute, **Op.cit.**, P.88.
(3) José da Mota-Lopes, **op.cit.**, P 46.

نضال مسلح من أجل تحرير الجزائر وبالتالي فإن أفكاره حول العنف والاستعمار والتحرير الوطني هي انعكاس لتجربة معاشة في سياق خاص بتجربة المواجهة المسلحة،وفانون كأحد المشاركين في النضال مع جبهة التحرير الوطني الجزائري وكادراً وممثلاً للحركة في تونس والجزائر فإن أعماله يجب أن تقرأ ليس كفكر نظري عن الطبيعة الاستعمارية ولكن أيضا كنتيجة لخبرة شخصية شاملة.

وثانيهما: أن الموت المبكر والمفاجئ لفانون عن عمر قصير يُوجب النظر إلى أعماله التي قدمت منذ عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٠ على أنها أعمال لم يتح الموت المفاجئ لصاحبها باستكمالها.

ويرى باحث آخر[1] أن الجهود الأساسية التي قامت بدراسة رؤى فانون للعنف أما ركزت بمنظور ضيق على فكرة واحدة أو أخرى،مما يفقدها رؤيتها في السياق العام ويُفقد الفكرة ربطها بافتراضاته العامة، وأما على الجانب الآخر تتجه إلى دراستها من منظور واسع إلى الحد الذي يجعلها تمدنا بمفهوم غير ملائم عن قبوله للعنف إلى الدرجة التي يتم فيها الخلط بينه وبين والإرهاب.

وهذا الباحث نفسه وقع في نفس الخلط الذي أشار إليه، فهو يستدعي مقولة فانون (هذا العالم الضيق المليء بالممنوعات يمكن فقط التعامل معه بالعنف المطلق) ويلتقط بدوره كلمة العنف المطلق ويفسرها على أن العنف المطلق يتضمن الإرهاب[2]،ويستطرد قائلا: يرى فانون أنه لكي نمنع الشعب الجزائري من أن يكون هدفا للعنف الواسع الذي يقوم به الفرنسيون فليس هناك خيار غير تبنى أشكال من الإرهاب، والإرهاب كعنف سياسي يؤدى إلى إيذاء المدنيين، هو ضرورة يؤسف لها لتحقيق أهداف وغايات محددة، ويرى من وجهة نظره أن فانون يعطي تبريراً للإرهاب يقوم على افتراض أساسي وهو (الغايات تبرر الوسائل) وعلى هذا فإن الإرهاب يجب النظر إليه في ضوء الأهداف المحددة لبرنامجه كما يرى أن هذا التبرير مقنع بدرجة أو أخرى إلى الحد الذي يوافقه فيه في افتراضه أن الغاية تبرر الوسيلة، ولكنه في موضع آخر يعود فيذكر أن هذا الافتراض هو افتراض قابل للمناقشة، وأن

(1) Michael W. Sonnleitner, "Of Logic and Liberation: Frantz Fanon on Terrorism" **Journal of Black Studies**,(London: Sage Publication,Inc Vol. 17, No. 3, Mar., 1987) P. 287.
(2) **Ibid**, P.288.

ربط فانون أهدافه في التحرير بالإرهاب هو ربط ضعيف، وينهي بحثه بأن فانون ربما لو امتد به العمر لأصبح أكثر إدراكا لذلك[1].

وبالنظر إلى ما قرره كل من José da Mota-Lopes& Michael W. Sonnleitner من انتقائيةً لأعمال فانون وعزلها عن السياق العام واعتبارات الزمان والمكان مما عُد قصوراً منهجياً يترتب عليه الوقوع في استنتاجات خاطئة،فإن النظرة المنصفة ترى أن هذه الكيفية في تناول أعمال فانون تتعدى كونها مجرد قصوراً منهجياً خاصة وأن ما تم تجاهله يعتبر من أبجديات البحث العلمي والتي من الصعب تصور أن تغيب عن أي باحث يتحرى الحقيقة، مما يجعل في الإمكان تصور أن ذلك يتم عمدا بغية تشويه أعمال فانون والعمل على تفريغها من مضمونها الثوري،هذا التصور- بعيدا عن تبني فكرة المؤامرة- يجد سنده في أن فانون كان مناضلا يتخذ مواقف نظرية وعملية ضد الاستعمار والهيمنه الأوروبية وأن أفكاره لاقت رواجاً بين زنوج أمريكا و بين الشباب في أوروبا وخارجها[2]،فمن المتوقع أن المراكز الاستعمارية ولها مفكروها ومراكز دراساتها وأبحاثها،تعمل على توظيفها لخدمة أهدافها وتعتمد في ذلك على خلط الحقائق وتزييف الوقائع، ومما يجعل هذا التفسير ليس بعيدا عن الواقع ما نجده من تقييم غير منصف لفانون بوصف أحد الكتاب الأمريكيين له في حديث في جامعة هارفارد بأنه كاتب عديم الأهمية، روّج له سارتر بسبب كراهيته القاتلة للغرب ومناصرته للإرهاب[3]،أو ما يُقرأ لأحد المعلقين بلهجة سيئة عن فانون قائلا (في احد المستشفيات الأمريكية في ديسمبر مات بالسرطان،مولّد من المارتنيك برغم مجهودات الأطباء؛ لإنقاذه .فلماذا سعى إلى الغرب الذي كرهه كثيرا لإطالة حياته) [4] .

أو عندما اتهمه Andre Glucksman وهو مأوى سابق في عام ١٩٨٢ بأنه مسؤول عن انتشار الموجة الثانية من العنف التي اجتاحت باريس وقامت بالتفجيرات في أحد شوارعها[5] .

(.1) **Ibid**, P.302
(2) David Macey ,**op,cit**., PP. 20-23.
(3) **Ibid**, P.21.
(4) **Idem**.
(5) **Idem**

هذه الأمثلة تمت الإشارة إليها للتدليل على أن جانبا من النقد الذي وُجه لفانون كان نقدا موجها بغرض شل فاعلية أفكاره أو على الأقل تقليصها، ولأن الدقة العلمية ترفض التعميم فإن هناك جوانب من النقد الذي يتطلب النظر إليه بعين الاعتبار، ومن أمثلته ما ذهب إليه Messay Kebedi.[1] من أن التفسير الأخلاقي للعنف يقف على النقيض من حقيقة أن استخدام القوة لا يمكن شرعنته؛ لأنه يؤسس لحالة الطبيعة(البدائية) في مقابل النظام الإنساني الذي يقوم على أساس من القانون وعلى اعتبار أن النظام الإنساني يبدأ من حيث تنتهي حالة الطبيعة فإن التنازل عن العنف هو ما يفتح الطريق للإبداع الإنساني، ولإدراك فانون لهذا المعنى فإنه حاول أن يستثنى العنف الذي لا ينهب إلى أبعد من شرعية الدفاع عن النفس بدون أن يضعف النظام الإنساني.

وينتقد Messay Kebedi نظرية فانون في العنف من جانبين ، فمن جانب يعتبر العنف الذي يقوم به المستعمَر هو عنف عديم الفاعلية بافتقاده للقوة التي تسنده، فبدون أن يكون العالم الثالث مدعماً بالعلم والتكنولوجيا فإن فكرة أنه يشكل قوة ثورية صاعدة في مواجهة الدول المتقدمة لا تعدوا أن تكون فكرة مضحِكة ؛ لأن عنفه في هذه الحالة هو عنف السهم والرمح في مقابل الصواريخ والطائرات، فبسبب التخلف التكنولوجي فإن عنف العالم الثالث سيواجه بعنف أقوى ويرى اتساقا مع هذه الرؤية أن تضييق الهوة التكنولوجية هو الطريق الأمثل؛ لإنهاء السيطرة الأوروبية وإزالة عقد النقص والدونية. ومن جانب آخر، فهو يتساءل فيما يعني المخالفة، إذا كان العنف هو نتيجة للحكم الاستعماري ألا تكون مصطلحات مواجهة العنف هي نفسها من صنع العالم الاستعماري،وأن مواجهة العنف الاستعماري بالعنف تعنى أنك تخضع لعقيدة المستعمر وأنك تستجيب له بنفس أسلوبه بينما أن أفضل استجابة هي ألا تحاكى المضطهِد؛ لأنك إن فعلت فأنت تستلهم قيمه، كما انه يتشكك في أن للعنف فاعلية علاجية؛ لأنه إذا كان العنف فساداً فإن الموقف الصحيح هو تطهير الروح الإنساني منه فبدلا من تركه ينفجر أو إيجاد متنفساً له، فإن التسامي بالعنف يكون هو العلاج الحقيقي الصحيح،ولتأكيد صوابية مقولته فإنه يستدعى مقولة المهاتما غاندي في قوله:" أنا تعلمت من خبرة قاسية وعبر فترة ثلاثين عاما أن الدرس

(1) Messay Kebede, op, cit. P.561.

الأكبر أن أسيطر على غضبي، فكما أن الحفاظ على الحرارة يحولها إلى طاقة، فإن الحفاظ على الغضب والسيطرة عليه تحوله الى قوة لا تقاوم على امتداد العالم". [1]، ويتقد فكرة أن العنف هو سلوك بشري ويعتبر أن ذلك يبدوا غريبا؛ لأن العنف هو أقرب للسلوك الحيواني منه إلى السلوك الإنساني وأن العنف سيغدوا سلوكاً للمستعمرين يتصرفون من خلاله تجاه بعضهم بعضًا، ويعتقد أن نزعة العنف لها يد في فشل دول العالم الثالث في إقامة مجتمعات ديمقراطية، ويخلص من ذلك إلى أن المقاومة السلمية غير العنيفة لها تأثيرها الواضح في إدانة بربرية المستعمِرين كما أنها ترسم خطاً فاصلاً بين قيم المضطَهِد وقيم التحرير فضلاً عن أن لها دوراً في الإعداد لمستقبل مشرق وديموقراطي حيث لا يكون هناك مكان للقوة وبهذا فإن العنف لا يستخدم ولا حتى في مواجهة المستعمِر، فخيار غاندي السلمي يتخلص الى الأبد من استخدام العنف في المجتمع الإنساني، وينهي فكرة أن العنف مصدر للشرعية. ولكن بعد استدعاء مقولة غاندي حول المقاومة السلمية فإن Kebede يعود ويتساءل: هل لا توجد حالات يكون العنف فيها هو الخيار الوحيد؟ ويضرب لذلك مثلا بالمقاومة ضد النظام النازي ويعتبر أن خيار غاندي السلمي في المقاومة سيكون بمثابة انتحار في مواجهة نظام كالنظام النازي، وحلا لهذا التناقض فهو يرى أن العنف إذا كان خياراً لا يمكن تجنبه، فيجب أن يمارس مع فهم أنه مفروض على الشعب لقصور الخيارات الأخرى،مع إدراك أن نقص الخيارات هذا أمر مختلف عن اعتبار العنف خيارٌ مثاليّ.

عند هذا المستوى نجد أن Kebede بعد رحلة طويلة من النقد والتحليل يعود إلى المربع الأول، حيث أن العنف مفروض وأنه ضرورة حيث لا خيارات بديلة وهو في ذلك يلتقي مع ما يقول به فانون على النحو الذي سبق الإشارة إليه، فهو بذلك يرد ضمنيا على كافة الانتقادات الموجهة إلى فانون ومنها انتقاداته هو نفسه،ويصل إلى تأكيد الخطأ المنهجي الذي سبق الحديث عنه فيما يقوم به دارسي فانون ونقاده من انتقائية لأعماله وعزل بعض من أفكاره عن بعضها الآخر وعن سياقها الزمني والمكاني وعن خبرته وتجاربه الشخصية.

وعن الغاندية ومدى تأثيرها على حركات التحرير الأفريقية فإنه يشير إلى دراسة لعلى مزروعى يبدأ فيها بالتذكير بأن عديد من القادة الأفارقة من أمثال كينيث

(1) Ibid, P.558

كاوندا و جوليوس نيريرى تبنوا أسلوب غاندي السلمي في النضال من أجل الاستقلال ولكنه مع هذا يلاحظ تكاثر حركات حرب العصابات في دول مثل كينيا، الجزائر، روديسيا وأنجولا ويستخلص من ذلك معنى يشير إلى محدودية الغاندية، ويُعيدُ ذلك إلى سببين أحدهما هو وجود الاستعمار الاستيطاني حيث يسيطر البيض والآخر حيث يعتبر الاحتلال أن الدولة المُحتَلة هى امتداد شرعي للوطن الأم (الحالة الجزائرية)، ويؤكد من جهته أن هذه الخيارات العنيفة توضح غلبة فكر فرانز فانون على المهاتما غاندى.

وعن العنف ومستقبل النظم الأفريقية بعد الاستقلال، يقول: إن معظم حركات حرب العصابات التي نجحت في الوصول إلى السلطة أثبتت عدم قدرتها على نشر أنظمة ديموقراطية مستقلة، ويعتبر أن انجولا -زيمبابوى-الجزائر-إريتريا- إثيوبيا أمثلة واضحة على ذلك.

وعلى أية حال فإن وجهة النظر هذه تحتاج إلى مناقشة أبعد مدى من مجرد تفسيرها بهذا التبسيط.

فقضية الخلل الديموقراطى في أنظمة الدول الأفريقية ودول العالم الثالث هي قضية مركبة متعددة الأبعاد لها إلى جانب البعد التاريخي بعدها الاقتصادي ، الاجتماعي، الثقافي والسياسي وبهذا المعنى فإن التفسير الأحادي لها هو نوع من التبسيط المُخِل .



المبحث الثاني

قضية التحرير الوطني

استحوذت قضية التحرير الوطني على اهتمام فرانز فانون ويعود هذا الاهتمام إلي الارتباط العضوي الوثيق بين كل من قضايا التحرير الوطني والاستعمار والتي هي من المركز في اهتماماته فالتحرير الوطني يتحقق بالتخلص من الاستعمار أولا ثم تحقيق جوهر الاستقلال بإنجاز مهمة النهوض الاقتصادي والاجتماعي يواكبه نهوض ثقافي يعزز الاستقلال السياسي ويمنحه مضمونه، ورؤية فانون لقضايا التحرير الوطني رؤية شاملة لم تقتصر على جانب واحد فهو منذ البداية يطرح مسألة أساسية أوجزها في تساؤله:" متى يمكن القول بأن الوضع قد نضج إلي الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني! وما هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة"[١].

هذا التساؤل هو نقطة البدء. وينطلق منه في رؤيته لشروط انطلاق حركات التحرير وتحديد القوى والطليعة المهيأة؛ لأن تحمل هذا المشروع وتبدأ في إنجاز مهام التحرير، وتبعا لذلك ينخرط فانون في دراسة وفهم الواقع الطبقي ومن ثم تحديد دور كل طبقة في عملية الكفاح ويستمد فانون رؤيته هذه من دراسته لواقع المجتمع والثورة الجزائريين وقواها الاجتماعية المختلفة، وكذلك من متابعته و دراسته لبعض المجتمعات الأفريقية وتعرضت رؤية فانون المستمدة من خصوصية المجتمع الجزائري لبعض الانتقادات على النحو الذي سيتضح من خلال هذه الدراسة.

ولأهمية الدور الذي تقوم به الثقافة في حركة المجتمع، فقد أولاها فانون اهتماما خاصا بالحديث عن علاقة الثقافة ودورها في التحرير الوطني ويركز فانون في تناوله لهذه المسألة على المخاطر التي تواجهها حركة التحرير والتحديات التي تواجهها مركزا على أهمية الوعي ودوره في تجنب الانزلاق إلي هذه المخاطر ابتداءً والقدرة على تجاوزها ثانيا .

---

(١) فانون، معذبو الأرض، ، م س ذ، ص٦٢.

وفي هذا السياق نسعى إلى أن نتعرف على:

أولا : ظروف البيئة الدولية التي تجري في إطارها حركات التحرير.

ثانيا : القوى الوطنية والاجتماعية ودور كل منهما في حركة التحرير .

ثالثا : الثقافة والمثقفون وحركة التحرر .

رابعا : دور الوعي وأهميته.

أولا : حركات التحرير والمناخ الدولي :

ثمة فكرة مهمة يوضحها فانون وهي أن حركات التحرير لا تنبت من فراغ، وإنما هي نتائج لكفاح متصل لأجيال سابقة أدت دورها قدر استطاعتها،وناضلت بأسلحتها التي كانت تمتلكها في ذلك الحين " فالأجيال السابقة في البلاد المتخلفة قامت بعمليتين في وقت واحد : قاومت أعمال الاستنزاف التي تابعها الاستعمار، وهيأت نضج الكفاح الذي نخوضه الآن... وكان لابد أن تقوم أكثر من قبيلة بعصيان، وكان لابد أن تخمد أكثر من ثورة.. كان لابد من ذلك كله حتى نستطيع نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر "[1] .

هذا الذي يقرره فانون له أهميته ليس فقط في أنه تعبيرٌ عن الوفاء وتقديرٌ لجهد أجيال سبقت - وهو كذلك بالفعل - ولكن أهميته تتعدى ذلك إلي كونه رد اعتبار لأجيال صُوّر تاريخها على أنه تاريخ الخضوع والاستسلام وذلك بهدف إثارة اليأس في النفوس ويتعدى أيضا مجرد رد الاعتبار؛ لأنه يؤدي دورا في بعث الأمل في إمكانية المقاومة مرة أخرى " إن ذكري مقاومة الاستعمار تظل حية قوية في القرى ...إن النساء لا تزال تدندن في أذان أطفالها بالأغاني التي رافقت المقاتلين الذين قاموا بالغزو.... والأحلام التي تداعب أخيلة الصغار في القرى هي أحلام التشبه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين "[2] .

وكما أن حركة التحرير الوطني لا تنبت من فراغ فهي لا تدور في فراغ فإلي

(١) المرجع السابق، ص١٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧١.

جانب اعتمادها على الشعب وثقتها فيه فإنها تركن إلي تضامن دولي وإلي ظروف دولية أكثر ملائمة، وإلي تضامن أوثق مع حركات التحرير في البلاد الأخرى و "إن انبثاق الأمم الجديدة وتدمير النظم الاستعمارية هي إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمر وإما ثمرة للعنف الذي تقوم بها شعوب أخري مستعمرة فيضغط على النظام الاستعماري"[1] ذلك أن الشعب المستعمر ليس وحيدا في المعركة ويضرب فانون لذلك مثلا بالنضال الذي قام به الشعب الفيتنامي: " إن الانتصار الكبير الذي حققه الشعب الفيتنامي في ديان بيان فو لم يعد انتصارا فيتناميا فحسب وأصبح نساؤل الشعوب ماذا يجب أن نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية"[2].

وإلى جانب نضال الشعوب الأخرى فهناك قوة الرأي العام العالمي حيث أن " كل عمل من أعمال القمع تتردد أصداؤه في العالم كله إن حوادث القتل التي حدثت في شارفيل قد هزت الرأي العالم العالمي أشهر طويلة"[3].

كذلك ففي إمكان حركات التحرير والاستقلال أن تستفيد من الحرب الباردة بين المعسكرين والصراع الدائر بينهما : " إن كل ثورة وكل تمرد يقعان في العالم الثالث يدخلان الآن في إطار الحرب الباردة، يكفي أن يضرب رجلان في سالزبوري حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا رابطة هذه المشكلة بمشكلة أفريقيا كلها"[4].

وكذلك فهناك التناقضات بين الدول الرأسمالية نفسها، ورغبة الولايات المتحدة الأمريكية في أن تحل محل القوى الاستعمارية الآفلة وكان ذلك من نتائج الحرب العالمية التي خاضتها القوي الاستعمارية وبخاصة الحرب العالمية الثانية والتي كانت من بين نتائجها إضعاف القوى الاستعمارية التقليدية وإيذانا بانتهاء الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية وظهور الولايات المتحدة الأمريكية كأقوى قوة رأسمالية تسعي لقيادة العالم " "إن الأمريكيين يعدون أنفسهم أوصياء على الرأسمالية

(١) نفسه

(٢) المرجع السابق، ص٧٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٤) نفسه.

الدولية ورعاة لها لذلك نراهم ينصحون البلاد الأوروبية بأن تحرر المستعمرات ودياً ونراهم في مرحلة ثانية لا يترددون في أن ينادوا باحترام مبدأ أفريقيا للأفريقيين"(١)
ومن المهم في هذه المسألة بالذات أن يكون واضحا أن الولايات المتحدة الأمريكية بمناداتها بحق تقرير المصير لم يكن دافعها في ذلك هو الدفاع عن حق الشعوب في التحرر من الاستعمار ولكنه كان أحد الآليات التي لجأت إليها الولايات المتحدة لتقويض السيطرة الأوروبية على المستعمرات رغبة منها في الحلول محلها.

وثمة مسألة أخرى أدركها فانون وتصب في مصلحة حركات التحرير و هي طبيعة التناقضات داخل كل دولة استعمارية(٢)، فعند نقطة معينة من الصراع بين قوى التحرير وقوى الاستعمار تدرك المصالح الرأسمالية داخل الدولة الاستعمارية أنها يمكن أن تخسر جراء استمرار هذا الصراع، من زاوية زيادة تكلفة الاحتفاظ بالمستعمرة من ناحية ومن ناحية أخري الخشية من تغلغل الأفكار الشيوعية وتزايد النفوذ السوفييتي و عبر فانون عن ذلك بقوله: " تدرك القوى الرأسمالية بأن إستراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحروب الوطنية كل شيء ، لذلك تضطر الى أن تسلم بتحرر جميع المستعمرات، فإن المهم عندها أن تتحاشى ما يهدد إستراتيجيتها وأن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوه"(٣).

وهذا الموقف من جانب القوى الرأسمالية لا يفسر برغبتها في إنهاء أشكال الاستعمار وتحقيق مصالح المستعمرات ، وتفسيره المنطقي يجد سنده في أن هذا الموقف هو تغير إستراتيجيتها من نمط الاستعمار القديم للدخول في نمط جديد من أنماط الاستغلال واستعمار غير مباشر هو ما أصطلح عليه بالاستعمار الجديد ، وإن كان ذلك لا يمنع أن بوسع حركات التحرير أن تستفيد من كل تناقض وتشدد المواجهة لتصفية الاستعمار، ذلك أن المنافسة الاقتصادية بين الشرق والغرب لا تسمح للحروب الاستعمارية أن تدوم طويلا ،كما تبدى ذلك من خبرة حرب فيتنام(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

(2) G. K. Grohs," Frantz Fanon and the African Revolution" **The Journal of Modern African Studies**,(Cambridge: Cambridge Press, Vol. 6, No. 4 ,Dec, 1968) p.550..

(٣)فانون، معذبو الأرض، ، م س ذ، ص ٨١.

(4) G. K. Grohs, **op.cit.**, P.550.

وفي إطار رؤية الواقع الدولي المحيط بحركات التحرير الوطني، يرصد فانون أهم متغيرات هذا الواقع والتي تصب مباشرة في صالح حركات التحرير وتوفر أحد أهم شروط قيامها وهو ظهور المعسكر الاشتراكي كقوة كبري بتوجهه المعادي للاستعمار وقيامه بدوره في دعم حركات التحرير عسكريا وسياسيا عن طريق المساعدة العسكرية والاقتصادية ودعم قضايا التحرر والاستقلال في المحافل الدولية ويشير فانون إلي ذلك بقوله : " ثم إن المستعمر لا يجابه المضطهدين وحيدا هناك طبعا المعونة السياسية والدبلوماسية التي تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية[١] .

وفي التحليل الأخير فإن فانون يرى أن البيئة الدولية ومناخ ما بعد الحرب العالمية الثانية هي بيئة ومناخ يعمل لصالح قضية التحرير الوطني.

ثانيا : دور القوي الاجتماعية في حركة التحرير الوطني

ثمة كتابات عديدة حللت رؤية فانون للتكوين الطبقي في كل من الدول المستعمرة ورؤيته للصراع بين الطبقات،فيرى أحد الباحثين أن فانون لم يقم بتحليل جدلي للطبقات وإنما تحدث عن قوى اجتماعية وليس عن تشكيلات طبقية على اعتبار أن المجتمعات التي عبّر عنها فانون في كتاباته وتبني قضاياها وهي دول العالم الثالث تختلف عن المجتمعات الأوروبية من أوجه عديدة فهذه المجتمعات ليست نتاج التطور الرأسمالي كذلك فليست هناك أحزاب منظمة في كفاحها ضد الاستعمار،فكان من المنطقي ألا يري فانون من منطلق وطني وثوري تمايز في التركيب الاجتماعي المحلي إلا بقدر ما تتحد فيه عناصر الثورة والقابلة لممارسة العنف الثوري[٢] .

ويرى باحث أخر أن فانون يعزو تشكيل الطبقات في أفريقيا بالدرجة الأولي للاستعمار نفسه ونتيجة لذلك نجد صراعا طبقيا مباشرا بين الفلاحين والبرجوازيين

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٦٨ .

(2) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.207.

المدنيين و نزاعا غير مباشر بين مصالح الفلاحين وطبقة العمال[1].

باستخلاص رؤية فانون لدور القوى الطبقية أو الفئات الاجتماعية المختلفة في سياق التحرير الوطني ، يمكن القول إجمالا أنه يري أن هناك فئات وقوي يمكن وصفها بالثورية وهي تلك التي تساهم في دفع حركة التحرير الوطني بمشاركتها الفعالة في مقاومة الاستعمار وتري أن السبيل الوحيد إلي المقاومة هو الكفاح المسلح ومنازلة العنف الاستعماري بعنف مضاد، وأن هناك قوى أخرى تقف موقف المتشكك من جدوى المقاومة المسلحة وأن العامل الحاسم في تحديد خيارات كل قوة هو تكوينها الثقافي وأين تكن مصالحها الشخصية فبقدر ما تكون هذه القوي بعيدة عن التأثير الثقافي الاستعماري وبقدر ما أن مصالحها لا تلتقي مع المصالح الاستعمارية فإن هذه القوى تكون أقرب إلي فكرة المقاومة المسلحة وأكثر جذرية في العمل من أجل التحرر والاستقلال والعكس صحيح فبقدر ما تكون قوة من القوي معرضة للتأثيرات الثقافية الاستعمارية وتلتقي مصالحها- الاقتصادية – مع المصالح الاستعمارية، فإنها تقف في الجانب المضاد لحركة التحرر الوطني وتؤدي دورا سلبيا في إطارها، ونوجز هنا رؤية فانون لدور الطبقات الاجتماعية على النحو التالي:

١- الفلاحون :

يري فانون فلاحي دول العالم الثالث برؤية مغايرة ومعاكسة تماما لنظرائهم الأوروبيين في دول العالم المتقدم التي بلغت درجة كبيرة من التصنيع ففي دول العالم الصناعي تعتبر طبقة الفلاحين أقل الطبقات وعيا وانضباطا كما أنها توصف بمجموعة من الصفات هي نفسها التي تميز السلوك الرجعي فتسود بينها قيم الفردية والفوضوية وهي غير منظمة أو أقل تنظيما تعيش في بيئة صدعها تقدم التصنيع، وتتراوح مشاعرها بين الغضب الشديد و اليأس العميق، تعيش في عالم ساكن تفتقد فيه الروح الثورية وتنتفي المبادرة والرغبة في التغير. هذه الصفات اللصيقة بفلاحي البلاد الصناعية المتقدمة تضعهم في مصاف القوي المعادية للتغير الثوري والمعوقة له أما في البلاد المستعمرة فإن الفلاحين يكونون على العكس من ذلك تماما فإنهم يمثلون العنصر الانضباطي في المجتمع الذي يحمي التقاليد ويصونها، يعيشون في بيئة وإن كانت تقليدية إلا أن بنيتها الاجتماعية ظلت سليمة لم تتصدع كما في البلاد

(1) David Caute, **op.cit.**, P.78.

المتقدمة[١]. يقوم بنيانهم الاجتماعي على التواصل بين أفراد الجماعة وعلى الارتباط القوي بعضهم البعض، المسؤولية الاجتماعية الأولي للفرد فيه أن يرضخ لصالح الجماعة وأن يقدمها على أية مصلحة ذاتية[٢]، الفلاح هنا ليس فرديا إنه يتصف بالغيرية وذائب في الجماعة[٣]، فهذه الطبقة تتألف من رجال ذوي إحساس ومفاهيم اجتماعية ثورية وهم فئة متلاحمة تعيش حياة راكدة ولكنها تتمسك كل التمسك بقيمها الخلقية وتكرس نفسها للمحافظة على سلامة الشعب[٤].

إن المطلب الأساسي للفلاح هو الأرض، بها يمتلك وسائل العيش والإحساس بالكرامة، ولهذا فإن طبقة الفلاحين هي طبقة ثورية بحكم طبيعة مطالبها، فالمطالبة بالأرض تحتم تدمير النظام الاستعماري[٥]. ويري فانون أن مجتمع الفلاحين ينشأ من القيم والخصائص المستمدة من الثقافة الوطنية والتي تضرب بجذورها في الماضي قبل الاستعماري وهم ورثة التقاليد الثورية للمقاومين الأوائل،هذه التقاليد هي التي تلعب دورا في نمو الوعي السياسي الذي يقود إلي إنهاء الاستعمار[٦].

والفلاحون لم يندمجوا في الوجود الاستعماري وحافظوا على ذاتيتهم وعلى طراز من الحياة يعادى الاستعمار بطبيعته "إن أنفة الفلاح وإحجامه عن النزول إلي المدن واشمئزازه من مقاربة العالم الذي بناه المستعمر الأجنبي وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعماري إن ذلك كله كان يعني أنه يقابل الانقسام الذي أوجده المستعمِر بانقسام من عنده"[٧] وهكذا فإن فانون يصل بتحليله إلى أن طبقة الفلاحين في البلاد المستعمَرة هي الطبقة الثورية الوحيدة، هي الطبقة التي لا تخشى أن تفقد بالثورة أي شيء بل تطمع أن تكسب كل شيء ... إنه امرؤ ليس عنده حل وسط ولا مجال عنده لتسويه والقوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله[٨].

(١) فانون معذبو الأرض، ، م س ذ، ص١٠٨ .
(٢) نفسه
(٣) المرجع السابق، ص ١٠٩.
(4) David Caute, **op.cit.**, P.72.
(5) Jock McCulloch, **op.cit.**, P.148.
(٦) عن طبقة الفلاحين ،انظر Adaner Usmani,**op,cit**,. PP.36-41.
(٧) فانون معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٣٢.
(٨) فانون معذبو الأرض، م س ذ، ص٦٣.

وهكذا نجد أن فانون كشف كل الإيجابيات في كفة هذه الطبقة فهى أكثر الطبقات ثورية وهي أكثرها محافظة على روح الجماعة المنشودة وأكثر تمسكا بالعقيدة والتراث المغروس في بنية ما قبل الاستعمار ويعود ذلك إلى أنهم" لم يتعرضوا إلي إغراء التغريب مثل سكان المدن وليس لهم الشعور بالدونية مثل البرجوازية الوطنية ويحمل فلكلورهم زخم المقاومة ويرشحهم القهر و النفي الذي يعاونه لقبول الأفكار الثورية والوعي الذاتي بمعني الثورة والاندفاع في طريقها"[1] .

وعن كيفية دخول الفلاحين إلي معترك الكفاح المسلح، يتحدث فانون عن اللقاء بين الفلاحين وأولئك المثقفين القادمين من المدن والمفصولين من أحزابهم السياسية بعد اختلافهم مع قادة هذه الأحزاب والمطاردين من قبل أجهزة الأمن فيضطرون إلي ترك المدن ويذهبون إلى الريف فيجدون الحماية الكاملة من الفلاحين،ويكونون أكثر قدره على الحركة، هؤلاء الوافدون إلي الريف يلتقون بالشعب بنقائه واستعداداته الثورية، يدخلون مدرسته وفي نفس الوقت يفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها السياسة والحرب ، والدروس في المدرسة لا تطول..وما يلبث هذا اللقاء بين القادة بدوافعهم الثورية والفلاحين بنقائهم واستعدادهم أن يؤدي إلي انطلاق الكفاح المسلح[٢] ، مستجيبا لأي شرارة تحدث .. ينطلق عفويا في البداية ثم يأخذ طريقه إلي التنظيم في مراحل لاحقة مع تطور الكفاح المسلح[٣] .

وهذا الفهم لدور الفلاحين في النضال يصطدم مع الماركسية التقليدية التي تري في الفلاحين طبقة محافظة تعيق التطور الثوري، وترفض افتراضات فانون المبالغ فيها، فمن وجهة النظر الماركسية فإن ماركس أعطى طبقة الفلاحين أهمية ثورية قليلة واعتبرها محافظة في حين أن لينين يسمح تحت ظروف معينة التحالف بين العمال الزراعيين والبروليتاريا ضد البورجوازية[٤] .

---

(1) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.210.

(٢)فانون، معذبو الأرض، ص١٢٢.

(3) G. K Grohs,**op.cit.**, P.550.
(4) B, Marie Perinbam,"Fanon and the Revolutionary Peasantry - The Algerian Case "**The Journal of Modern African Studies**,(Cambridge: Cambridge University Press, Vol. 11, No. 3 ,Sep., 1973) p.428
http://www.jstor.org/stable/159609:
2 **Ibid**, P.429

كما أن كثيرًا من المحللين المعاصرين أدانوا تمجيد فانون لدور الفلاحين فيرى المؤرخ Oscar Handlin الفلاحين كطبقة محافظة مرتبطة بالأرض والمجتمع المحلي والأسرة وهذا الارتباط يعيق استعدادهم لقبول التغيرات الاجتماعية، وبالتالي فهم يقومون بدور كابح للثورة كما قرر R Redfield .

هذا النقد الموجه لفانون يكون صحيحا في مجمله إذا كان التحليل يتعلق بمهام الثورة الاجتماعية وعن القوى المؤهلة للتغيير المفترض القيام به بعد إنجاز مهام التحرير الوطني، أما إذا نظرنا للمسألة من زاوية حركة تحرير وطني مازالت تقوم بإنجاز مهام التحرير، فإن تحليل فانون يكون صحيحا في مجمله.

وفي دراسة مقارنة لأحد الباحثين[1]،عن فهم كلٍ من فانون واميلكار كابرال* لدور الفلاحين، فإنه يورد ما يعتبره تمايزا بين رؤية كلٍ منهما، فبينما يرى فانون أن فلاحي الدول المستعمرة هم الطبقة الثورية الوحيدة وسريعا ما يلبوا نداء الثورة وأنهم يرون العنف طريقاً وحيداً للتحرير، فإن كابرال وإن أقرّ بأهمية الفلاحين كقوة رئيسية في النضال من أجل التحرير إلا أنه لا يراهم كقوة ثورية ، وهو في هذا يفرق بين الفلاحين باعتبارهم يشكلون غالبية السكان وبين اعتبارهم كقوة ثورية،وأن فلاحي غينيا بيساو ليس لديهم تقاليد ثورية كفلاحي الصين مثلا،.ففانون يراهم قوة ثورية تلقائية بينما يعتقد كابرال أنهم وان كانوا قوة حيوية وأساسية إلا أنه يصعب إقناعهم بالقتال.

وفي تقييم B, Marie Perinbamلرؤية فانون لدور الفلاحين فإنه يذكر أنه من المرجح أن فانون كان يعرف أن الفلاحين كانوا على استعداد فقط للتمرد و العصيان وليس الثورة وأنه أيضا لم يكن عنده أوهام حول الفاعلية الثورية للفلاحين؛ لأن دورهم الذي قاموا به في الثورة و تحولهم إلى طبقة ثورية لم يتم إلا بعد تدريبهم وتنظيمهم على يد الكادر القيادي[1] .ويمكن القول بأن هذا التقييم أسقط من حسابه الأسس التي أقام عليها فانون رؤيته الواضحة والتي وردت في صدر هذا المطلب،معتبرا أن تحول الفلاحين الى طبقة ثورية لم يتم إلا بعد تدريبهم وتنظيمهم متناسيا في ذلك حقيقة أن الثورة انطلقت عفوية في بدايتها ثم إن التنظيم أتى لاحقا

* كابرال، قائد الثورة في غينيا بيساو (غينيا البرتغالية سابقا) درس في لشبونه وعمل مهندسا زراعيا، اهتم بدراسة ثروات بلده وأصبح وطنيا ثوريا وأسس حزب الاستقلال الأفريقى لغينيا وجزر الرأس الأخضر ،قاد الكفاح المسلح ،واغتيل في يناير ١٩٧٣

(1) B, Marie Perinbam, **op.cit.**, P.445.

لضمان الاستمرارية ولعلاج مخاطر تلك العفوية فضلا عن أن التدريب والتنظيم نفسه لم يكن ليجدي لولا الطبيعة الثورية العفوية للبيئة المتلقية لهذا التدريب .

ومن المتصور أن إيمان فانون بدور الفلاحين، ينبع أولا من خصوصية أحاطت بهذا الدور في أحداث الثورة الجزائرية وفي الواقع الأفريقي فكانت رؤيته لثورة الماوماو في كينيا وأيضا بعض التجارب الآسيوية حيث دارت المعارك الحاسمة في الصين وفيتنام وأيضا المعارك في كوبا كل ذلك جري في المناطق الريفية حيث الكثرة الساحقة من رجال العصابات فيها مؤلفة من الفلاحين[١] . هي تجارب قادها الوعي الثوري وبهذا المعني فإن فانون لم يكن يحلق وحده في خيال مثقف متمرد، وإنما كان يسعى لتأكيد نمط له حضوره العالمي"[٢] .

٢- البروليتاريا الرثة Lumpen Prolitaria

وهم من الفئات الدنيا من الفلاحين من الرجال الذين هجروا الريف نظرا لضغط الظروف المعيشية والضائقة الاقتصادية العامة، أجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار وكذلك تزايد السكان في مناطقهم على ترك أرض آبائهم وأجداهم وفروا إلي المدن بحثا عن مورد رزق ولكنهم لا يستطيعون دخولها فيستقرون على أطرافها يسكنون أكواخ الصفيح انتظارا لأي فرصة سانحة لهم.

هذه الجموع فصلت عن قبائلها وعشائرها، فئة من الفعلة الكادحين العاطلين عن العمل هذه الفئة يعود تشكلها كما كل الفئات إلى الظرف الاستعماري نفسه بل إن نموها السريع هو سمة مميزة لمرحلة الاستعمار الجديد[٣] .

عن هذه الفئة يذكر Robert Blacky أن ماركس لا يرى في البروليتاريا الرثة أية قدرة على العمل الإيجابي،ويوافق كابرال على أنهم فئة غير موثوق بها نظرا لما يقدموه من مساعدة للمستعمرِين،ويذكر أيضا أن كابرال يميز في داخلها بين فئتين، فئة تقليدية وتضم(المتسولين-صغار المجرمين-القوادين) وهذه المجموعة لا يتوقع

(1) David Caute, **op.cit.**, P.72.:

(2) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.210.

(3) Jock McCulloch, **op.cit.**, P.145.

منها أي شيء، وفئة أخرى هم هؤلاء الرجال الذين هجروا المناطق الريفية ولا يعملون، وهى بصلاتها السابقة مع المناطق الريفية والحالية مع أهل المدن التي وفدوا إليها،هذه المجموعة تمتلك إمكانية الوعي الثوري وذلك بمقارنة مستوى معيشتهم بمستوى معيشة المستعمِرين، والاختلاف الأساسي في هذه الجزئية، أن فانون لم يذهب إلى التمييز بين فئات مختلفة في داخلها كما ذهب إلى ذلك كابرال[1].

ويرى فانون أن البروليتاريا الرثة تنمو وفق منطق خاص فهى " أشبه بجموع الفئران التي تستمر على قضم جذور الشجرة برغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة"[2]،هؤلاء الرجال يعانون بؤس شامل فهم لم يجدوا في عهد الاستعمار حتى العظمة يقضمونها ،هم فئة مختلف عليها لكنها عند فانون من حلفاء الثورة بسبب تلقائيتهم وقدرتهم على التمرد فهم أيضا ليس لديهم ما يخسرونه وشعورهم الطبيعي رافض للنظام الاجتماعي الاستعماري[3]،وحينما تتوجه إليهم قيادة الثورة يلبون النداء وينخرطون في العمل النضالي يجدون في النضال طريقهم إلي الاندماج في مجموع الأمة ويستردون اعتبارهم في نظر أنفسهم.

أهمية هذه الفئة تنبع من أنها رأس الحربة لنقل المعارك إلي المدن وتلك نقلة نوعية في الكفاح المسلح ، فالثورة إذا ظلت محصورة في الريف فالاستعمار ومراكزه في مأمن نسبي. ولتشديد القبضة عليه وتشتيت جهوده كان التحدي الماثل أمام قيادة الثورة هو ضرورة نقل المعركة للمدن، و بحسب خبرة وتجارب سابقة فإن الأحزاب السياسية في المدن هي أبعد ما تكون عن فكرة الكفاح المسلح، هي أقرب إلي منطق التفاوض والمساومة كما يتضح عند الحديث عن دور هذه الفئات.

إذن لم يبق أمام قيادة الثورة إلا أن تتجه إلي فئة الفلاحين الفقراء حول المدن لتجنيدهم وتنظيمهم وهذه الفئة كما ذكر سابقا و بحكم طبيعة تكوينها هي أقرب إلى تلبية هذا النداء..

وبهذا المعني فإن فئة البروليتاريا الرثة يقع على عاتقها وفق هذا التحليل دور هام وحاسم تقوم بها في أثناء مرحلة الكفاح.

(1) Robert Blacky, **op.cit.**, P.199.

(٣) فانون، معذبو الارض،م س ذ، ص١٢٤.

(3) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.211.

ولكن فانون من جانب أخر يدرك أن هذه الفئة تنطوي على جانب سلبي خطر، فإن قوى الاستعمار وهي مدركة لبؤسهم وفقدان الوعي بين صفوفهم تسعي من جانبها إلي ضمهم إلي جنودها المأجورين: ويذكر فانون بعض من الوقائع التي نجح الاستعمار فيها في ضم بعض أفراد هذه الطائفة إلي صفوفهم،ولذلك فإنه يولي هذه الطبقة أهمية، تفرض على قيادة الثورة ضرورة المبادرة إلي تنظيم هذا الاحتياطي المهيأ للعمل " فهم يلبون نداء الثورة ولكن إذا ظنت قيادة الثورة أن في وسعها أن تستغني عنهم فإن جموعهم تتحول إلي قوى مقاتلة ولكن في صفوف العدو"[١].

ولكنه في النهاية يقرر أنه وبالعمل بينهم فهم يصبحون حلفاء للثورة يلبون نداءها وينخرطون فيها ويكونون رأس حربتها لنقل المعارك إلي المدن " وهم بهذا العمل النضالي يحققون ذاتهم ويندمجون في مجموع الأمة " " وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار يستردون إذا ذاك توازنهم ويأخذون يسيرون ويشاركون مشاركة حاسمة في موكب الأمة التي استيقظت"[٢]. بهذه الكلمات يحدد فانون للبروليتاريا الرثة موقعها في النضال التحرري.

ومن جانبه فإن Robert Blackyيقرر أن أفكار فانون هذه، خيالية بدرجة كبيرة ،إذ توقع من هذه الفئة أن تكون قادرة على استعادة توازنها وان تشارك في مسيرة نهوض الأمة[٣].

٣- البروليتاريا المدنية:

يلحظ الباحث لفكر فانون تبادلا في الأدوار ما بين طبقة الفلاحين والعمال فإذا كان الفلاحون في المجتمعات المستعمرة هم الطبقة الثورية التي تعمل على التغير وتقوم بالثورة وذلك بالمغايرة تماما للدور المحافظ الرجعي لنظرائهم الغربيين في الدول الرأسمالية المتقدمة وذلك وفق رؤية الأدبيات الكلاسيكية للتحليل الطبقي بما فيها التحليل الماركسي ، فبنفس القدر يري فانون أن فئة العمال في المجتمعات

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ ص ١٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٥.
(3) Robert Blacky **op.cit.**, P 200.

المستعمرة هي فئة محافظة بعكس نظرائهم في البلاد الرأسمالية المتقدمة فالعمال هناك في طليعة قوى التغير، فهم الفئة التي تعانى الاستغلال الرأسمالي وتسعى لتقويض أسس هذه النظام ،هي الفئة التي لا تخسر شيئا ويمكن بالثورة أن تكسب كل شيء، بينما تكون هذه الفئة في المجتمعات المستعمرة كما يراها فانون تعيش في بحبوحة أكثر من سائر الفئات، والبورليتاريا الناشئة التي تعيش في المدن هي طبقة تتمتع نسبيا ببعض الامتيازات، فهى ليست كتلة مقموعة من العمال الصناعيين الفقراء ولكنها مجموعة صغيرة مميزة وهذا ما يجعلها في تعارض مع الفلاحين الفقراء[١]، وهي التي نجد لدي أفرادها سلوكا فرديا، فهي من الشعب المستعمر نواة يفيض عليها النظام الاستعماري أكثر مما يفيض من الخير، وهي فئة لا يستغني عنها الاستعمار لحسن سير الآلة الاستعمارية ويحددها فانون بأنهم هم " سائقوا حافلات الترام وسيارات الأجرة وعمال الموانى والمناجم الكتبة والتراجمة والممرضون" وهذه العناصر بما لها من الامتيازات في ظل النظام الاستعماري يمكن أن تعد الجزء البرجوازي من الشعب المستعمر[٢] . واذا كانت البروليتاريا في البلاد الرأسمالية لا تخشى أن تخسر شيئاً فإن البروليتاريا في البلاد المستعمرة يمكن أن تخسر[٣] . وذلك بالنظر إلي ما تحصل عليه من امتيازات، ولذلك فهو ينفي أي طابع ثوري لهذه الطبقة من السكان الأصليين في المستعمرات وبهذه الرؤية اعتبر فانون البروليتاريا قوة تابعة تسعى بدورها للحاق بامتيازات المستعمر[٤] .

وإذا كانت هذه الرؤية يمكن أن تعني عند البعض نوعا من العسف لهذه الطبقة إلا أن فانون في هذا الشأن يكون متسقا تماما مع المعايير التي على أساسها يحدد وضع الفئات الاجتماعية من حركة الكفاح، وهي مدي تقاطع مصالحها مع المستعمر وارتباطها بالثقافة الوطنية وبالتالي رؤيتها للمقاومة ضد الاستعمار وبهذه المعايير فإن الطبقة العاملة ذات المصلحة النسبية في وجود المستعمر والمتأثرة بدرجة أو أخرى من الثقافة الاستعمارية ولا تري العنف وسيلة للخلاص من المستعمر فتكون بذلك أقرب إلى القوى التي لا تسعى إلي تغيير الوضع القائم.

---

(1) G. K. Grohs, **op.cit.**, P.549.

(٢) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٠٦.

(٣) نفسه

(4) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.209.

ويسحب فانون رؤيته هذه على البروليتاريا في البلاد الاستعمارية، فلم يكن يعتقد أن طبقة العمال الغربيين طبقة ثورية ولا هي متعاطفة مع الشعوب المستعمرة ذلك أنه يعتقد أن العمال الغربيين هم من المستفيدين من الاستعمار الجديد وكثيرا ما أشار إلى" العمال والفلاحين الفرنسيين وهم يحاربون الثورة الجزائرية"[١] . وغني عن القول أن تجربة الحرب الجزائرية كانت هي المصدر الذي استمد. منه فانون رؤيته هذه.

ولقد تعرضت هذه الرؤية"؛ لانتقادات الماركسيين من جميع الاتجاهات، وقد وضع المعلق التروتكسي(مشيل بالو) اللوم على قيادات الاشتراكيين الاصطلاحيين والأحزاب الشيوعية التحريفية فيما أصيب به العمال الأوروبيون من شلل، وهكذا يكون فانون قد أخطأ فجعل من تشويه سياسي مؤقت حقيقة اجتماعيا دائمة"[٢].

وفي نفس السياق فقد وجه الزعيم الشيوعي الفيتنامي بنجوين نجه انتقادا لفانون قائلا: " إن الفلاح لا يستطيع مطلقا أن يكتسب من تلقاء ذاته، وعيا ثوريا. فالمناضل القادم من المدن هو الذي يتعين عليه أن يكتشف بصبر وجلد أشد عناصر الفلاحين ذكاءً ويعلمهم، وأن تحليل فانون الانتقائي للطبقة العاملة من سكان المستعمرات الأصليين ينهار أمام عجزه عن التفريق بين عناصر الطبقة العاملة الأصلية مثال عمال أحواض السفن والمناجم وبين فئات البرجوازية الصغيرة مثل الكتبة وسائقي السيارات"[٣].

كما أن كابرال يرى أن الطبقة العاملة ملتزمة بالثورة وتشكل العمود الفقري لها وبسبب من مقارنة حالهم بالبروليتاريا الأوروبية التي تؤدى نفس العمل وتحصل على دخل أعلى، فان ذلك يشكل لديهم وعى متقدم بحقيقة أنهم مستغلون[٤].

هذا النقد الموجه إلي فانون يمكن النظر إليه على انه يقوم على منطلقات

---

(1) David Caute, **op.cit.,** P.71.

(2) Idem.

(3) Ibid., P.72..

(4) Robert Blacky, **op.cit.,** P.199.

نظرية صرفة ويفقد مضمونة إذا أخذنا في الاعتبار التجربة الواقعية المعاشة والمباشرة، وهي التي شكلت محور رؤية فانون، ولا ينقص من قيمتها أنها مستمدة من واقع وخصوصية التجربة الجزائرية وذلك لتماثل الظروف والوقائع والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لكافة البلدان المستعمرة ودول العالم الثالث، وكذلك إذا أخذنا في الاعتبار المحددات (السابق الإشارة إليها) والتي اعتمد عليها فانون في تقييمه لدور كل طبقة أو فئة في حركة التحرر الوطني.

ومما يدعم وجهة النظر هذه أن الظرف الاستعماري نفسه لم يسمح بإقامة مجتمع صناعي متقدم يخلق بدوره طبقة عمالية متبلورة بل حافظ على نظام اقتصادي مختلف لا يخرج عن أن يكون اقتصاد استخراجي واستهلاكي.

وبافتراض وجود نسبة من عمال المناجم والمحاجر فإنها بالقطع نسبة ضئيلة ودورها هامشي و لا يمكن الاعتداد بها فواقع الأمر أنه لا توجد طبقة عمالية حقيقية تتعارض مصالحها مع مصالح النظام الاستعماري القائم وكل ما هو قائم فئات من العاملين هي أقرب إلى الفئات الدنيا من الطبقة البرجوازية تتمتع ببعض الامتيازات ولا تقوم بدور في حركة التحرير الوطني وأن أقصي ما يطالبون به هو الحصول على زيادة في الأجور أو تحسين ظروف معيشتهم أي مجرد الحصول على مزيد من الامتيازات.

فضلا عن أن هذا النقد في مجمله يمكن النظر اليه بعين الاعتبار ويكون صحيحا تماما إذا كان البحث يدور حول دور طبقة البروليتاريا في مرحلة ما بعد تحقيق الاستقلال الوطني وفي ظل وجود طبقة بروليتاريا صناعية قوية يُعتد بها تدخل في غمار عملية صراع طبقي تنهى به الاستغلال الواقع عليها

أما وأن البحث يدور في إطار حركة تحرير وطنى فالأمر مختلف، ففي مثل ظروف الثورة الجزائرية وثورات الدول الآسيوية و في تجارب كتجربة الصين، ما يدّعم مقولات فانون، وكذلك فإن تحليل الواقع الطبقي للدول المستعمَرة والمتخلفة وفي ظل غياب طبقة البروليتاريا الصناعية القوية، وما يفرزه الواقع الاستعماري نفسه، ما يجعل أفكار فانون تكتسب مصداقية لملامستها الواقع المعاش.



٤- البرجوازية المحلية:

يرى فانون أن البرجوازية المحلية تختلف في نشأتها ودورها عن البرجوازية الأوروبية، ففي حين أن البرجوازية الأوروبية لعبت دورا تقدميا في تطوير مجتمعاتها وتصنيعها فإن البرجوازية المحلية لدول العالم الثالث تتكون أساسا من النخبة المثقفة التي تلقت تعليمها في المجتمعات الأوروبية وتشربت قيمها وتتكون أيضا من أصحاب المهن والحرف من سكان المدن، وهى طبقة غير مبدعة ولا منتجة، بورجوازية طفيلية تستفيد من الاقتصاد الاستعماري[1]،وهذه النخب هي التي تشكل قيادة الأحزاب الوطنية البرجوازية وقواعدها وهي أحزاب مسالمة لا تلح على استخدام القوة وكل ما تسعى إليه هو تحسين أحوالها وتهتم بالمسائل الإصلاحية لا أكثر[2].

ويُفسر ذلك بأن الأحزاب السياسية تتألف من مجموعات من سكان المدن الذين يستفيدون من الوضع الاستعماري ولهم مصالحهم الخاصة التي تلتقي مع مصالح البرجوازية الاستعمارية، فهي إذن أحزاب مسالمة لا تلح على استخدام القوة ولا تسعى إلي هدم النظام القائم. واستئصاله من جذوره.

هذه البورجوازية المحلية تقاسى الإذلال من النظام الاستعماري وليس في استطاعتها أن تنمى قدراتها، و في نفس الوقت فان مصالحها الاقتصادية لا تسمح بالدخول في ثورة مفتوحة[3].

ولذلك فهي بعد انطلاق حركة الكفاح المسلح سريعا ما تستجيب لدعوة البرجوازية الاستعمارية حين تنادي بفكرة اللاعنف وتسوية الأمور على مائدة المفوضات، ذلك أن النظام الاستعماري بذل جهداً كبيراً للسيطرة على عقلية وتفكير البورجوازية الوطنية واستخدمها كناطق باسمه[4] ولجوء البرجوازية إلي المناداة

---

(1) G. K. Grohs, **op.cit.**, P.550.

(٢) فانون معذبو الأرض، م س ذ، ص٦٣ .

(3) G. K Grohs, **op.cit.**, P.549.

(4) Halford H. Fairchild," Frantz Fanon's The Wretched of the Earth in Contemporary Perspective", **Journal of Black Studies**,(London: Sage Publication,inc, Vol. 25, No. 2 ,Dec, 1994) pp. 19. /http://www.jstor.orgstable/2784461

باللاعنف ينبع من إدراكها أن العنف ليس في مصلحتها وأنه يطعن الاقتصاد طعنا قاسيا[1]. ويدورها فإن البرجوازية المحلية بحكم التقاء المصالح تخشى هي الأخرى هذا العنف، وتسعى لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة المفاوضات وتتقدم للقيام بهذا الدور وتفرض نفسها وسيطا بين الطرفين.

هذه البرجوازية لم تطالب بالكفاح الشعبي وتنتقد الأعمال العنيفة متزرعة بالحجج عن قوة العدو التي تفوق بكثير قوة القوى الشعبية، ولكنها في واقع الأمر غير مقتنعة بجدوى الأساليب العنيفة وتري أن كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعماري بالقوة إنما هو سلوك يأس وانتحار[2].

ولذلك فإن أغلب الأحزاب الوطنية لم تضع في برنامجها ضرورة العمل المسلح[3]. وانحصر منهجها في التفاوض حرصا على أن تبقي الصلة قائمة بينهم وبين الدوائر الاستعمارية.

ويذهب دافيد كوت في تحليله وتفسيره لهذا الموقف ومتفقا مع رؤية فانون إلي أن طبقة البرجوازية في صفوف السكان الأصليين خلقها الاستعمار نفسه وشربها بأسوأ أنواع سمومه العنصرية[4]. وهذه الطبقة بعد أن تقوم بدورها في عملية التفاوض التي تنتهي باستلامها مقاليد السلطة، تقوم بتعزيز مصالحها علبي حساب مصلحة الأغلبية الشعبية إلي الدرجة التي تدفع فانون إلي طرح التساؤل عن مستقبل هذه الطبقة بعد تحقيق الاستقلال " إن المسألة النظرية التي تطرح منذ خمسين عاما حين يعالج تاريخ البلاد المختلفة، أعني هل يجب الوثب فوق هذه المرحلة البرجوازية أم لا ...إن المرحلة البرجوازية في البلاد المتخلفة لا تكون مبرره إلا إذا كانت البرجوازية الوطنية تمتلك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفي لبناء مجتمع برجوازي، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة، لتصنيع الزراعة وأخيرا قيام ثقافة وطنية أصيلة[5].

---

(١) فانون معذبو الأرض، م س ذ، ص٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) المرجع السابق، ص١١٣.

(4) David Caute, **op.cit.**, P.68.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٦٨.

وهـذا التسـاؤل الـذي طرحـه فـانون يجـد إجابتـه باسـتعراض خـصائص وصفات هذه البرجوازية كما حددها فانون في كتاباته، فهي برجوازيـة متخلفـة راكـدة قليلة العدد ، متمركزة في العاصمة ليست متجهة نحو الإنتـاج لا تملـك رؤوس أمـوال كبيرة كنظيرتها الأوروبية وإنما تتشبه بها في جانبها السلبي فتسيطر عليهـا روح التمتـع والميـل إلي الاسـتهلاك دون أن تكـون قطعـت مراحـل الابتكـار الأولي التـي قطعتهـا البرجوازية الأوروبية وحققت بها أشياء إيجابية، وهـي فاشـلة اقتـصاديا وعـاجزة عـن تحقيق الوحدة القومية بالنظر إلي مـصالحها الـضيقة، فتسعي إلي ترسـيخ فلـسفة عرقيـة تحمي بها هذه المصالح، وهي فاسدة يحملها فـسادها إلى الركـون و الاعـتماد عـلى نظـام الحزب الواحد فتقيم نوعا من الديكتاتورية تعتمد فيهـا عـلى دور الـزعيم الفـرد الـذي توظف جماهيريته لتكون حاجزا بينها وبين الـشعب وتـستخدمه في لجـم وعيهـا محاولـة أن تستمد منه شرعيـة مفقـودة ، إن" برجوازيـة بهـذه الـسمات لهي أشـبه بعـصابة مـن اللصوص"[١].

بهذه السمات التي حـددها فـانون للبرجوازيـة المحلية فإنـه كـان يقـدم إجابـة على تساؤله السابق، ويؤكد على مضمونها في أكثر من موضـع وكـأنما يريـد مزيـدا مـن التأكيـد عـلى رؤيتـه " أن المرحلـة البرجوازيـة مـستحيلة في الـبلاد المختلفة،فقـد تنـشأ ديكتاتورية بوليسية وقد تنشأ فئة من المتفعين ولكـن القيـا م بمجتمـع بورجـوازي أمـر محقق لا محالة"[٢]. والبرجوازية القائمة هي برجوازية بالفكر ، لا تملـك قـوة اقتـصادية هي برجوازية موظفين ويُرتِبُ على ذلك الفهم نتيجته المنطقية " إن علينـا أن نعـارض معارضـة شـديدة حاسـمة في نـشوء برجوازيـة وطنيـة، في قيـام طبقـة مـن أصـحاب الامتيازات"[٣].

والـدور الإيجـابي الوحيـد الـذي يـراه فـانون لهـذه الطبقـة هـو" أن تنكـر نفـسها كبرجوازية ،أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال، وأن تضع نفـسها كـاملا في خدمـة رأس المال الثوري الـذي هـو الـشعب ....أن تفـرض عـلى نفـسها خيانـة المهمـة التـي كانـت ميسرة لها"[٤].

(١) المرجع السابق، ص١٦٥.

(٢) نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٤٥.

وفي دراسة مقارنة بين رؤية كل من فانون وكابرال فان R. Blacky [1] يذكر أن كابرال يرى ان البورجوازية الصغيرة هي الوحيدة القادرة على قيادة الثورة وأن عليها أن تقوم بالخطوة الأولى المهمة تجاه تعبئة الجماهير، مؤسساً هذه الرؤية على اعتبارِه طبقة الفلاحين قوة غير ثورية وعلى أن الطبقة العاملة مازالت في طور جنينى، ويلاحظ هنا ان كابرال استخدم تعبير البرجوازية على إطلاقها، مما يوحى بتصنيفه للبورجوازية إلى أكثر من فئة، ويشرح R. Blacky وجهة نظر كابرال بأنه إذا ما كان فانون يرى أن على كابرال يرى أن البورجوازية الصغيرة تواجه نفس الخيار أما الالتحاق بالثورة أو خيانتها، وهذه البورجوازية الصغيرة وإن كانت في البداية تقف في المنتصف بين الجماهير وممثلى الطبقة الاستعمارية وتكافح لكى تكون مثل الأقلية الأجنبية وتندمج معها، إلا أنه يرى أن ذلك مستحيل، فهى تفشل في تخطى الحواجز التي أقامها النظام الاستعمارى، وهم سجناء التناقضات الثقافية والاجتماعية ولا يستطيعون الهروب من كونهم طبقة مهمشة في ظل النظام الاستعمارى وذلك برغم تعليمهم الأوروبي وخدماتهم التي يقدمونها لهذا النظام، مما يولد في داخلهم إحساس بالأسى والإحباط يقودهم الى التساؤل عن وضعهم الهامشى ويدفعهم إلى إعادة اكتشاف هويتهم، هذه البورجوازية الصغيرة (وهى تعارض هؤلاء الذين ارتبطوا بالاستعمار وتفاهموا معه) وبعد إعادة اكتشاف هويتها هى التي تبدأ الخطوة الأولى في تعبئة الجماهير وتنظيمها وتصبح في موقع القيادة لها،وفي ذات الوقت يسلم كابرال بوجود كثير من المترددين بين صفوفها إلا أنه يرى أن حركة الكفاح كفيلة بدفعهم إلى الارتباط أكثر بالجماهير، هذا الدور كما يراه كابرال تقوم به البورجوازية في أثناء مرحلة التحرير الوطنى، أما بعد تحقيق التحرير فإنه يرى أنه أمام البورجوازية أحد طريقين أما التحالف مع الامبريالية والقوى الرجعية لحماية مكاسبها وأما أن تنتحر كطبقة وتتحالف مع العمال والفلاحين إذا هي أرادت أن تنجز دورها الثورى، وهو في هذا، يتفق مع ما توصل إليه فانون في مرحلة ما بعد التحرير الوطنى، ويرى أن هذا المأزق الذي يواجه البورجوازية الصغيرة في النضال، هو نقطة ارتكاز يتوقف عليها نجاح الثورة.

وبالتأمل في رؤية كل من فانون وكابرال، نستنتج أن مرد الاختلاف بينهما في أن كابرال كان أكثر تحديدا في توصيف البورجوازية التي يعنيها وهى البورجوازية

(1) Robert Blacky, **op.cit.**, PP.200 -202

الصغيرة مميزا بينها وبين البورجوازية الكبيرة المتحالفة مع النظام الاستعماري والملتقية مصالحها معه، بينما أن فانون لم يذهب إلى هذا التحديد والتمييز بين الشرائح المختلفة للبورجوازية،ولو أنه فعل ربما ما وجدنا اختلافا بين وجهتي النظر.

من خلال ما سبق يمكن استخلاص رؤية فانون في أن البرجوازية المحلية ليس لها دورا إيجابيا في حركة التحرر الوطني في مرحلتها الأولي وهي الكفاح المسلح من أجل الاستقلال ولا ينبغي أن يكوّن لها دورا في المرحلة اللاحقة للاستقلال وأي دور تقوم به هو دور معوق للتقدم ولا يصب في صالح التنمية.

و حول مسالة الموقف من المرحلة البرجوازية وضرورة القفز فوقها، فإن هذه القضية كانت مثار جدل كبير وواسع في فترة الستينيات من القرن الماضي، في نفس الفترة التي بلور فيها فانون فكرته متزامنة مع حصول عدد كبير من الدول الأفريقية على استقلالها وكان خيارها هو اتباع طريق التنمية، وكانت هناك قناعة سائدة بين قادة حركات التحرر الوطني ، حيث قامت بالفعل نظم من الحكم طبقت تجارب تتجاوز فيها المرحلة البرجوازية، وعزز من ذلك شيوع عدد من المفاهيم اشتهر من بينها فكرة الاشتراكية الأفريقية التي تبناها بعض قادة حركة التحرر الوطنى وتقوم على الاعتقاد بأن أفريقيا هي في الأساس مجتمع غير طبقى.

وعلى هذا ولكل ما سبق يمكن القول بدرجة كبيرة من الاطمئنان أن فانون بحسب المناخ الفكري والسياسي السائد ومشاهداته السلبية عن واقع الطبقة البورجوازية في المجتمعات المستعمرة وفي دول العالم الثالث ، فإنه محق في النتيجة التي توصل إليها. ولكن من ناحية أخرى فإن فشل تجارب الستينيات يطرح من جديد مدي صحة هذا التصور ، و يطرح مجددا سؤالا آخر حول ما هي الشروط اللازم توافرها حتى تقوم مرحلة برجوازية حقيقية تؤدى دورا تنويريا مماثلا لدور نظريتها الأوروبية وفي نفس الوقت تتجنب مساوئها.

وهذا السؤال يتطلب جهدا للبحث عن أفضل إجابة له،يضع في اعتباره أن الديمقراطية الاجتماعية بمعناها الشامل وليس فقط الديمقراطية السياسية بأفقها الليبرالي الضيق هي أحد الشروط الضرورية لأي تنظيم اجتماعي يراد له أن يحقق دورا تقدمياً تنويرياً.



ثالثا : حركة التحرير – الثقافة الوطنية

ينظر إلى الواقع الثقافي لأي مجتمع باعتباره انعكاسا وتعبيرا عن واقعه السياسي الاقتصادي والاجتماعي ويشكل أحد عناصر البناء الفوقي للمجتمع وفي إطار المستعمرات فإن الاستعمار يعمل على تجميد الواقع السياسي و الاقتصادي والاجتماعي للدول المستعمرة ومن ثم يعمل على تجميد الواقع الثقافي، أولي فانون هذه المسالة اهتمامًا خاصًا منطلقا من أن المثقفين الأكثر عرضه للثقافة الاستعمارية وبالتالي أكثر تأثرا بها فهم المتعاملون معها وأحيانا المبررون لها.

ونجمل رؤية فانون للعلاقة بين الثقافة الوطنية ومعركة التحرير الوطني من خلال ثلاث نقاط.

١- وتتعلق بالتأثير الاستعماري على الواقع الثقافي للمجتمعات المستعمرة

٢- دور ومسؤولية المثقف المستعمر إزاء هذا الواقع.

٣- التبدل الذي تحدثه معارك التحرير على الواقع الثقافي للشعوب المستعمرة.

١- تأثير الاستعمار على الواقع الثقافي للشعوب المستعمرة

ذُكِرَ أن الاستعماري يعمل على تجميد الواقع الثقافي للمجتمع المستعمر وذلك كنتيجة مباشرة لركود الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذا المجتمع، وفي سعيه لتسهيل مهمة إخضاع هذه الشعوب لسيطرتهم، فإن الاستعماريين يعملون على هدم ماضي وتاريخ هذه الشعوب ويعملون على تجريده من أية قيمة كانت لها في تاريخها ويسعون إلى أن يطمس الماضي على الحاضر ويصادر على المستقبل[1] وإنكار كل قيمة له و دفع الأفراد و الشعوب الى اعتناق القيم الثقافية للمستعمر، ويفلح الاستعمار في تمزيق الحياة الثقافية للشعب ودفع الأفراد والشعوب إلي اعتناق قيم الدول المستعمرة ثقافيا. ويتحقق هذا المحو عن طريق نفي الواقع الوطني، فبعد قرن من السيطرة الاستعمارية لا نري إلا ثقافة متيبسة متجمدة متحجرة تابع الاستعمار

(1) www.saadyyousaf.com

تحطمها متابعة منظمة[١] . ويري فانون" أنه ما دام الوضع الاستعماري قائما فالثقافة تنضب وتحتضر؛ لأنها تكون محرومة من ركيزتها وهى الأمة والدولة"[٢] .

إن نفي الذات الأفريقية على يد الاستعمار ليس مجرد عمل مادي أو اجتماعي أنه عمل لا إنساني[٣]. وأن نزع الوجود الثقافي إنما هو جزء من عملية الاستقطاب الاقتصادي والبيولوجي ويبذل الاستعمار جهدا كبيرا في أن يقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام وأن الماضى السابق عليه كان ظلاما يشمل مجموع القارة كلها ولم يفرق في ذلك بين بلد وآخر ،وبذلك فالاستعمار لا يكتفي بفرض قانونه على حاضر البلاد المستعمرة وعلى مستقبلها بل يتجه إلى ماضى الشعب يحاول أن يشوهه هو الآخر بهدف إقناع المستعمر بضرورة الخضوع والاستسلام.

٢- دورومسؤولية المثقف المستعمَر

يري بعض الباحثين أن فانون تحامل على هذه الفئة، وأنها لم تتحدد عنده لا اجتماعيا ولا ثقافيا بل اعتبرهم عنصراً أقرب إلى الانتهازية الفكرية والاجتماعية والخيانة لجماهيرها[٤].

واقع الأمر أن هذا الانطباع نشأ من الهجوم الذي شنه فانون على نمط المثقف المستوعَبُ تماما في الثقافة الاستعمارية والذي تلتقي مصالحه مع المصالح الاستعمارية، هذا النمط من المثقفين خُرِبت عقولهم عبر حشوها بالثقافة والقيم الاستعمارية وتأتي في مقدمة هذه القيم الروح الفردية التي انتقدها فانون" تأتي الفردية في طليعة هذه القيم لقد أخذ المثقف المستعمر عن أساتذته أنه على الفرد أن يؤكد ذاته لقد غرست البرجوازية الاستعمارية في ذهن المستعمر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة"[٥]، هؤلاء تم تغريبهم تماما عن المجتمع وانفصلوا عنه .

---

(١) فانون، معذبو الارض، م س ذ، ص٢٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣١.

(3) Helmi Sharawy, **op.cit.**, P.202.
(4) **Ibid.**, P.207.

(٥) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٥٢.

وثمة سبب آخر لهجوم فانون على المثقفين، الذين أسماهم مثقفي الطبقة البرجوازية، ذلك أن الإحساس بالدونية تجاه المستعمر أشد ما يكون عند فئات المثقفين البورجوازيين لاحتكاكهم بعادات الغرب وثقافته واستعدادهم للتماهي معها، هذا الإحساس بالدونية يكون واضحا لقدرتهم على التعبير عن أنفسهم سياسيا وثقافيا.... وأن هذا النمط من المثقفين يقف موقف المتفرج من حركة التحرير الوطني خاصة في مرحلتها الأولي، ولكن فانون يري إلي جانب ذلك نمطا أخر من المثقفين ذلك المثقف الذي يتاح له أن يغوص في شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير فإنه يدرك فساد هذه النظرية الفردية وان أشكال الكفاح ستزوده بلغة جديدة"[١].

ويري فانون أن المثقف المستعمر الذي قرر العودة أو الرجوع عن الاستيعاب الكامل إلي مرحلة التعبير عن الشعب والارتباط به يمر بثلاثة مراحل، يكون في الأولي مستوعباً تماماً ومنكباً على تحصيل الثقافة الاستعمارية ومحاكيا ومتمثلا لكل نماذجها ،منفصلا عن واقع شعبه ومغتربا عنه والبعض منهم الذين يفزعهم واقع بعدهم عن الشعب يمرون بمرحلة تالية هي التي يقرر فيها أن يتذكر نفسه ولكنه غير متغلغل في شعبه، هي مرحلة قلق يجنح فيها إلي تمجيد كل ما هو قديم من تراث وماضي الشعب ، المرحلة الثالثة والأخيرة أسماها فانون مرحلة المعركة نري فيها المثقف بعد أن حاول أن يغرق في الشعب يعمد على عكس ذلك، فهو يهز الشعب أنه الآن بدلا من أن يغفو غفوة الشعب يستحيل إلي موقظ للشعب أنه ينتج أدب معركة أدبا ثوريا وقوميا ... وفي أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلا أو آجلا أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة، بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال"[٢].

وينطلق فانون من ذلك ليحدد دورا رئيسيا يقوم به المثقف المستعمر، في أن مسؤوليته ليست عن الثقافة القومية بحسب بل مسؤولية شاملة عن الأمة بأسرها والتي ليست الثقافة إلا جانبا من جوانبها فالكفاح في سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح في سبيل الحرية القومية...أن المستعمر الذي يكتب لشعبه بوصف الماضي إنما

---

(١) نفسه.
(٢)المرجع السابق، ص ٢١٠.

يجب عليه أن يفعل ذلك بغية أن يفتح المستقبل وان يهب إلي العمل وأن يعزز الأمل ولكنك لا تستطيع" أن تقوي الأمل وأن تهب له عمقا وثقافة ما لم تشارك في العمل ما لم تنخرط في المعركة"(١)

يؤكد فانون على واجب الانخراط في المعركة؛ لأن بعض المثقفين" يتخذون من المطالبة بحضارة قومية ميدانا لمعركة مفضلة.. هؤلاء يضعون نشاطهم في إطار التاريخ"().

ففي مواجهة إنكار الاستعمار لأي تاريخ سابق على تاريخ الهجمة الاستعمارية، اندفع المثقفون الأفارقة في البحث عن حضارة سابقة على العهد الاستعماري يحدوهم الأمل في أن يجدوا وراء البؤس الراهن وراء هذا الإنكار، عصرا جميلا يرد فيه الاعتبار في نظر أنفسهم وفي نظر الآخرين، وأن اكتشافهم لماضي حضاري يشعرهم بنشوة؛ لأن ذلك يعني أن الماضي لم يكن كله عارا بل كرامة وأن بالإمكان كذلك أن تقوم حضارة جديدة في المستقبل... و هذا الاكتشاف لماضي حضاري يؤدي دوره في تحقيق التوازن النفس العاطفي لدي المستعمرين ويساعدهم على تجاوز عقده الإحساس بالدونية التي طالما عمل المستعمر على تكريسها.

والخلاصة أن فانون يرى أن على المثقف دورا رئيساً يجب أن يؤديه، وهو أن يشارك في المعركة الجارية وأن ينخرط فيها جسماً وروحاً.

٣- حركة التحرير الوطني والتحولات في الواقع الثقافي:

يعتقد فانون أن الاستعمار يعمل على نضوب كلٍ من الواقع القومي والثقافة وأن هناك علاقة ارتباط متبادل بين نضوب الواقع القومي و احتضار الثقافة.

ولذلك فإنه يري أن من الخطأ ومن غير المجدي العمل على إحداث أى تغييرات أو تجديدات ثقافية في ظل السيطرة الاستعمارية وذلك؛ لانتفاء الشروط الموضوعية التي تحقق للثقافة ازدهارها، فما دام الوضع الاستعماري قائما فالثقافة

(١) المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٧.

تنضب وتحتضر؛ لأنها تكون محرومة من ركيزتها الأساسية الأمة والدولة[1].

ومن ثم فأنه يري أن التحرر القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة ويطرح تساؤلا هاما عن العلاقة بين الكفاح أو الصراع - سواء كان سياسيا أو مسلحا و بين الثقافة ؟ وهل تعانى الثقافة توقفا أثناء الصراع؟. وهل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية؟ ويجيب عن هذا التساؤل موضحا" إننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي.. وأن معارك الكفاح تنمى في أثناء انطلاقها مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات جديدة ... فهو لا يرد إلي الثقافة الوطنية قيمتها وأطرها القديمة ، ولكنه يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب"[2].

ويضرب فانون أمثلة عديدة على ذلك، نلتقط منها ما ذكره عن أدب الرواية من حكايات وملاحم البطولة التي كان يرويها الحكائون الذين اعتادوا رواية قصص جامدة فصاروا يمنحونها حياة ويأخذون بالتجدد، أنهم يحاولون أن يجعلوا أقاصيص القتال التي يروونها حكايات راهنة ويسبغون عليها أشكالا معاصرة .... كانوا يبدءون حكايتهم بقولهم: " كان في القديم" أما الآن فهم يبدؤون بقولهم: " ما سأقصه عليكم قد حدث في مكان ما ولكن يمكن أن يحدث اليوم أو غدا " ولم يغفل الاستعمار عن ذلك فإذ هو يعمد منذ عام ١٩٥٥ إلي اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا إلي قصص البطولة[3]، وهذا مجرد نموذج واحد من نماذج عديدة أشار لها فانون للتدليل على التبدلات الثقافية التي تحدث نتيجة حرب التحرير في غمار حركة التحرير الوطني.

فالثقافة القومية تتشكل من خلال تجارب الكفاح والاستقلال وليست سابقة عليها وإلا كانت نوعا من استدعاء الماضي وبالتالي تأصيل للجمود والتخلف ، وحين يخوض شعبا من الشعوب كفاحا مسلحا أو حتى كفاحا سياسيا فإن التقاليد تتبدل دلالاتها وما كان أسلوبا للمقاومة في السابق يمكن الآن أن يدان ، وإذن فإن الطريق إلى الثقافة الوطنية يمر من خلال معارك التحرير وأنه ما"من خطاب ولا نداء

(١) المرجع السابق، ص٢٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٨.

حول الثقافة ينبغي أن يصرفنا عن المهمة الأساسية التي هي تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه في كل لحظه ضد الأشكال الجديدة التي يتخذها الاستعمار"[١] لذلك فإن على الثقافة القومية في البلدان المتخلفة أن تضع نفسها في القلب من كفاح التحرير الذي تخوض هذه البلدان معاركه [٢]؛ لأنه لا ثقافة لأمة إلا في إطار حريتها وسيادتها.

رابعا : عن الوعي وأهميته

تمر حركة التحرير الوطني وصولا إلي تحقيق الاستقلال بمراحل عدة، وعلى طول هذه المراحل فإنها لا تسير في خط مستقيم واحد صاعد وإنما تتعرض لبعض الانتكاسات ويفرض عليها التقهقر أحيانا، فخطوة إلي الخلف قد تكون ضرورية للوثب خطوتين إلي الأمام ،وفي مواجهة كل ما يلم بحركات التحرير الوطني من مخاطر وصعاب فإن وعي القادة و المقاتلين في الميدان يصبح ضروريا وحاسما للاستمرار في النضال التحرري ولضمان تحقيق هدفه في النهاية ، فبدون الوعي تتعثر الخطي ويفقد المناضلون اتجاههم وتضل الجماهير طريقها، يتسرب إليها اليأس وتكون الحركة أكثر تعرضا لخطر الانتكاس. ولذلك يتعين على قيادات حركات التحرير أن تضمن إلى جانب التدريب العسكري لكوادرها ومقاتليها الإعداد السياسي والعقائدي من خلال برامج معدة بعناية تقدم للمقاتلين والكوادر على كل مستويات الحركة[٣].

لم يغب ذلك عن وعي فانون فأدرك أهمية الوعي لدي الجماهير والقادة وأولاه اهتماما بالغا وحدد عددا من المفاصل تستلزم هذا الوعي.

فلأسباب سبق توضيحها غالباً ما تنطلق شرارة الكفاح الأولى من الريف ويبدأ النضال عفويا وتلقائيا وفجائيا مما يربك قوي الاستعمار، ويحرز المناضلون في هذه المعركة انتصارات تعكس نفسها في جو من التفاؤل والانطلاق الفرح .. ثم تأتي مرحلة أخري ينظم فيها الاستعمار صفوفه ويستجمع قواه ويبدأ في الهجوم المضاد

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢١.

(3). José da Mota-Lopes, **op,cit.**, P.53.

مركزا على نقاط ضعف المقاتلين وبقوة تفوق قوتهم ويدخل المقاتلون في مواجهة مباشرة ومكشوفة " فجو التفاؤل الذي سيطر على المشاعر في المرحلة الأولى يجعل القوة الوطنية أكثر اندفاعا ولا تطيق أن تقاتل متراجعة، والفرق المحلية تواجه الهجوم المحلي مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح...وهذا الاندفاع يريد أن يصفي حسابه مع الاستعمار دفعة واحدة " وكنتيجة لهذا الاندفاع في مواجهة قوة أكبر يتعرض المقاتلون لخسائر كبيرة ويبدأ الشك بالتسرب إلى النفوس ومن خبرة هذه التجربة يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوروا جميع المقاتلين أن يعلموهم ويثقفوهم. أن يبثوا فيهم عقيدة ويدركون أن انتصار الكفاح يقتضي أن تكون الأهداف جلية وأن تكون أساليب العمل واضحة وأن تعرف الجماهير ما في جهودها من قوة دافعة مثمرة.

فالجماهير عادة تتحرك في المراحل الأولى للكفاح تحت تأثير الحقد المتراكم في الصدور وذلك يؤتي ثماره في المدى المحدود فقد تصمد ثلاثة أيام أو ثلاثة أشهر ولكن الفوز بالنصر في حرب تحريرية يحتاج إلي ما هو أكثر من السخط أو الحماسة والشجاعة .. النصر في المعركة يستلزم رفع مستوى الوعي لدي المقاتل[1] ليدرك أن" الحرب ليست معركة كبيرة واحدة ،وإنما هي سلسلة معارك محلية، ليست واحدة منها فاصلة في حقيقة الأمر"[2].

ومن جانب أخر فإنه مما يؤكد أهمية الوعي أن قوى الاستعمار عادة ما تقوم بمناورات لتفريق الصفوف وتعمد إلي إتباع أساليب سيكولوجية لتضليلهم فتعمل بطرق شتى على إحياء المنازعات القبلية القديمة وتقوم باستقطاب بعض الأفراد من الطبقة الدنيا بسبب أميتهم وجهلهم فتدفع لهم الأموال وتستأجرهم لارتكاب بعض الأعمال الاستفزازية أو تجندهم كمرتزقة في صفوفه ويعمل على تفتيت الوحدة القومية بتأليب القبائل على بعضها، أنه يحاول أن يخرب الأمة ويفسد الإجماع الذي كان بادياً في المراحل الأولى للثورة، وتلك ضرورة أخرى تصبح معها التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية[3].

(١) المرجع السابق، ص١٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص١٣١.

وثمة داع آخر يبرز أهمية الوعي في صفوف المقاتلين والجماهير، ذلك أن الاستعمار إلي جانب أتباعه أساليب الدس و الفرقة فهو يدرك من دراسته للشعب المستعمر ما هنالك من فقدان الثبات والاستقرار المعنوي في صفوف بعض السكان الأصليين ويحاول أن يكتسب عطف بعض هذه الفئات بتغيير أسلوبه في التعامل واصطناع التأدب والتهذب وشيئا من الروح الإنسانية ليوحي أن ثمة تبدلا قد حدث، وخطورة هذا الوضع تنشأ من أن المستعمر الذي كان ينظر إليه من قبل المستوطنين نظرة دونية وكان يعامل معاملة لا إنسانية، فإن جوعه إلى أن يعامل معاملة إنسانية تجعل مشاعره من الضعف والهشاشة وتجعله عرضة لأن يغرر به، وأمام فقدان الثبات هذا يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يشرحوا الأمور حتى لا يتوهم الشعب أن الغاية قد تحققت، يجب شرح الأهداف الحقيقية التي يسعى الكفاح إلي تحقيها وان بلوغ هذه الأهداف ليس مستحيلا، ولكي يتحصن الشعب ضد كل محاولات التغرير والتضليل "يجب أن يعرف إلي أين هو ماضي وكيف ينبغي له أن يمضى إلي حيث هو ماضي[1]" وأن يعرف مجموع الشعب أن هناك تنازلات ليست في حقيقتها إلا أغلالاً وأن ما يحصل عليه المستعمر بكفاحه ليس ثمرة حسن نية ولا طيب قلب من المستعمر وأن القبول بهذه التنازلات إنما يعني في حقيقة الأمر أن الشعب هو الذي يتنازل عن الجزء الأخر من حقوقه.

وفي هذه المسألة يفرق فانون بشكل واضح بين القبول بحل وسط وبين المساومة التي تقبل عليها أحيانا أحزاب البرجوازية ويقول: "لقد يمكن عند الاقتضاء أن يقبل المستعمر حلا وسطا، ولكن ما ينبغي له أبدا أن يقبل مساومة".

ومن أخطر ما يتعرض له الكفاح الوطني هو إحساس المناضلين بأن فريقا من الشعب وبالذات من أهل المدن يعيشون حياتهم وكأنهم يجهلون أن هناك نضالا قد انطلق ويكتفون بمشاهدة المعركة مما يثيرا شعورا بالمرارة والحنق لدي هؤلاء المناضلين من أهل الريف بالذات، عندئذ يجب على رجال التوجيه السياسي أن يشرحوا للشعب، أن هناك أجزاء من الشعب لها مصالح خاصة تتفق مع المصالح الاستعمارية ولا تلتقي التقاء كاملاً مع المصالحة الوطنية، حينئذ يصبح القرويين قادرين على التمييز والفرز و يدركون أن كفاح التحرير والاستقلال الوطني يبرز

(١) المرجع السابق، ص١٣٤.

عددًا من الوقائع المتناقضة، وهذا النوع من الوعي أمر هام جدا وحاسم ؛ لأنه ينقل الشعب نقلة نوعية من أفق الوطنية العامة إلي أفق الوعي الاجتماعي والاقتصادي[1]. وهذا الوعي بالذات يكون ضرورياً في المرحلة التالية للحصول على الاستقلال وفي مرحلة البناء حيث تتقاطع مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة وتواجه مرحلة ما بعد الاستقلال خطرا آخر يتمثل في أن القرويين وقد شاركوا في معركة الكفاح المسلح بفاعلية ن إلا أنهم في المرحلة التالية وهى مرحلة البناء فإنهم بحكم طبيعتهم المحافظة يقفون موقف التردد من أي تجديدات اجتماعية لها طابع تقدمي ،ويعود ذلك إلى أنه في أثناء الكفاح كان هناك حرص على تحقيق إجماع وطنى وبالتالي فإن قادة الثورة لم يهتموا ببرنامج ما بعد الاستقلال.

وإجمالا فإن الوعي السياسي يصبح ضرورة من أجل تحقيق الانتصار في المعركة وبه ينتقل الشعب من أفق الوطنية العامة إلى أفق أرحب وهو أفق الوعي الاجتماعي الاقتصادي وبالوعي يمكن تجاوز المخاطر التي تواجه الكفاح وتكون وسيلة الوعي الأساسية، إلي جانب الشرح الذي يقوم به قادة الثورة هو ضرورة إدخال الجماهير في السياسية فذلك هو السبيل لتثقيفها ورفع مستوى تفكيرها،وإدخال الجماهير في السياسة لا يتأتي بالقاء خطاب سياسي ولكنه يأتي بالعمل على إيقاظ العقول وإفهام الجماهير أن كل شيء رهن بإرادتها، والوعي المقصود ليس مجرد الوعى الفردى ولكنه وعى المجموع " فقد يعجز رجل منغزل عن فهم مشكلة من المشاكل أما الجماعة بكاملها فإنها تفهم الأمور بسرعة تحير العقل"[2].



(١) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٧.

المبحث الثالث

واقع الدول الأفريقية غداة الاستقلال

فرض الاستعمار على الشعوب المستعمرة واقعاً اقتصادياً ظلت تعاني من آثاره وتبعاته حتى بعد حصولها على الاستقلال.

وبرغم أن الإسهامات الفكرية لفانون انصبت في معظمها على تفسير وشرح المسألة الاستعمارية من ناحية وعلى شروط التحرر والانعتاق من ناحية أخرى، إلا أن بعض كتاباته اتجهت للاهتمام بقضايا التنمية وتحقيق التقدم، صحيح أنها ليست بذات القدر من الاهتمام الذي اهتم به بالقضايا الأخرى الملحة عليه في حينها، ولكنها في ذات الوقت تعتبر إسهامات تتسم بوضوح في الرؤية، وفي هذا المبحث نستعرض جملة هذه الآراء من خلال:

أولا : رؤية فانون وتوصيفه لواقع الدول الأفريقية غداة الاستقلال.

ثانيا : رؤيته لقضية المعونة والتعويضات.

ثالثا : رؤية لكيفية تحقيق التقدم.

أولا : رؤية فانون للواقع الأفريقي غداة الاستقلال

يتم في هذا السياق التعرض لرؤية فانون لطبيعة الواقع الأفريقي وما يفرزه من مخاطر وتحديات يرى ضرورة مواجهتها.

١- الواقع :

يمثل انتهاء الاستعمار التقليدي وحصول الدول المستعمرة على استقلالها السياسي- سواء تم ذلك عبر النضال بالوسائل العسكرية أو عبر نضال سياسي انتهى برحيل الجيوش المستعمرة،نقلة جديدة لدخول هذه الدول في مرحلة جديدة و مختلفة

هي مرحلة البناء الوطني.. وغداة هذه المرحلة وجدت الدول المستقلة حديثاً نفسها أمام واقع ساهمت في تشكيله إلى حد بعيد ظروف المرحلة الاستعمارية السابقة، فالاستعمار بنهبه لثروات هذه الشعوب تركها تعاني فقراً وتخلفا شديداً في جميع المجالات، رسم فانون ملامحه قائلاً: "إن البلاد المتخلفة لا تتمتع بتطور اقتصادي كبير، الجماهير في هذه البلاد تكافح فقرا واحداً وترسم ببطونها الضامرة جغرافية الجوع، هو عالم مختلف بائس، ظالم للإنسان، عالم لا أطباء فيه ولا مهندسين ولا إداريين"(١) ومن ثم فإن" تحرر البلاد المستعمرة يكشف القناع عن حالتها الراهنة ويجعل احتمال هذه الحالة أمراً لا يطاق"(٢) وتتضح حالة الفقر التي تعيش فيها الشعوب الأفريقية من الحقيقة البسيطة التي تقول بأن دخل الفرد في أفريقيا من أقل دخول الأفراد في العالم"(٣).

ذلك أن أكثرية سكان البلاد المختلفة، أكثر من ٩٥٪ من سكان البلاد المختلفة لا يحمل إليهم الاستقلال في معظم الحالات تغييراً مباشرا، لذلك يلاحظ المراقب الخبير" أن هناك نوعا من الاستياء الكامن يشبه تلك الحجرات التي تبقى بعد انطفاء الحريق وتهدد باندلاع النيران من جديد"(٤).

وقد طبع الاستعمار الأوضاع الاقتصادية في أفريقيا بطابع التخصص في إنتاج المواد الخام، بغرض تصديرها للأسواق الخارجية، في هذا النطاق كان الاستعمار يهتم بثروات معينة هي تلك التي تغذى صناعاته فضلا عن" أنه أنشأ دورات اقتصادية جامدة، وتري الأمم الناشئة نفسها مضطرة للإبقاء على هذه الدورات الاقتصادية والاستمرار فيها وإلا تعرضت إلي كارثة(٥).

ويظل هيكل الإنتاج والتصدير قائما لم يتغير فظلت الزراعة في أفريقيا هي النشاط الأساسي الذي يعمل فيه ما بين ٧٠٪- ٨٠٪ من السكان(٦). ويقوم هذا النشاط على أساس التخصص الضيق في إنتاج محصول واحد أو محصولين وتقوم الدول الأفريقية بتعويض نقص الأغذية للطعام عن طريق الاستيراد.

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٩٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) كوامى نكروما، م س ذ، ص ١٩.
(٤) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٧٦.
(٥) المرجع السابق، ص٩٧.
(٦) المرجع السابق، ص ١٩.

والصناعة في أفريقيا متخلفة بالرغم من إن القارة تمتلك ٥٣ معدنا من أهم معادن الصناعة الأساسية في العالم إلا أنها تأتي في الذيل من حيث التقدم الصناعي. ويعود تخلف الصناعة في أفريقيا إلي أن إنتاج المناجم موجه أساسا نحو التصدير في أشكال مواد خام لتغذية صناعات أوروبا وأمريكا وتبلغ نسبة الصناعة الاستخراجية نحو ٣٣٪ على حين أنها تبلغ ١٠٪ من البلاد المتقدمة[١].

وقد حال تأخر الصناعة دون قيام صلات اقتصادية وثيقة بين مناطق الريف والمدن وأدى ذلك بدوره إلي ضعف التجارة الداخلية. وتقوم التجارة الخارجية أساسا على تصدير المنتج المحلي من المواد الخام واستيراد معظم السلع المصنعة من الخارج وبذلك تعتمد البلاد الأفريقية أكثر ما تعتمد على الأسواق الخارجية، تكون في الغالب هي سوق الدولة الاستعمارية السابقة.

يتم كل ذلك بالرغم من الإمكانيات المتوفرة في باطن الأرض والتي تمتلكها القارة الأفريقية، فالقارة الأفريقية تكلك أكثر من ٤٠٪ من قوي العالم المائية وهو نصيب يفوق نصيب أي قارة مع ملاحظة أن المستغل من هذه القوى لا يتعدى ٥٪[٢].

وأيضا إذ أخذ في الاعتبار "الأراضي الشاسعة التي تشغلها الصحراء الكبرى فلا يزال بها أراضي قابلة للزراعة، و أراضى تحول إلي مراع أكثر مما هو موجود في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الاتحاد السوفييتي وتزيد على كل ما هو موجود في آسيا ولو استغلت موارد القارة المتعددة في النهوض بها لكانت من أحدث قارات العالم، ، ولكن الواقع أن مواردها كانت تستغل وما زالت للنهوض بمصالح البلاد الأخرى[٣].

٢- المخاطر والتحديات

يحمل الواقع المتردي للأوضاع الاقتصادية في القارة، غداة الاستقلال عددا

(١) نفسه

(٢) كوامى نكروما، م س ذ، ص ١٦.

(٣) نفسه

من المخاطر خاصة وان الاستعمار يعمل على سحب رؤوس أمواله وفنييه، ويضع حول الدولة الناشئة سياجا من الضغط الاقتصادي وبذلك تتحول نعمة الاستقلال إلي نقمة الاستقلال، إن القوة الاستعمارية تعلن جهارا نهارا " مادمتم تريدون الاستقلال فخذوه وموتوا "[١].

ويختلف رد الفعل إزاء هذه المخاطر والضغوط ، فيحدث أن بعضا من بلاد العالم الثالث ترضخ لهذه الضغوط وتقبل شروط الدولة التي كانت تسيطر عليها وتعقد اتفاقات وتنحاز و يتحول البلد الذي كان محتلا إلي بلد تابع من الناحية الاقتصادية[٢]. فيبقى على بعض العلاقات التجارية ذات الطابع الاستعماري.

"وفي بلاد أخرى فإن القادة الوطنيين يواجهون هذا التحدي بالالتفات نحو شعبهم طالبين منه أن يبذل جهدا ضخما ويقوم نظام أساسه الاكتفاء الذاتي وتحاول كل دولة بالوسائل الضئيلة التي تمتلكها أن تتدارك الجوع القومي الكبير أن تتدارك البؤس القومي الكبير ونشهد تعبئة شعب ينهك ويرهق يومئذ أمام أوروبا المترفة المتخمة"[٣].

وأمام هذه المخاطر والتحديات التي يواجهها الأفارقة فإن موقف فانون في مواجهتها كان حاسما فهو يؤكد " الحقيقة هي أن علينا ألا نقبل هذا الشرط، علينا أن نرفض رفضا قاطعا الوضع الذي تريد البلاد الغربية أن تفرضه علينا[٤].

وإزاء المخاطر ورفض فانون القاطع للإملاءات الغربية فإنه يحدد في خطوط عريضة طريق الخروج من الأزمة محلياً وإقليمياً ودولياً.

-عالميا.. يري أن الصراع الأساسي الذي يبدو صراعا بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار أو حتى بين الرأسمالية والاشتراكية .. هذا الصراع يفقد كثيرا من أهميته ويضع الإنسانية أمام مسؤولية أن المشكلة الأساسية التي تملأ الأفق إنما هي ضرورة إعادة توزيع الثروات، و على الإنسانية أن تلبي هذه المشكلة وإلا تزعزعت وتزلزلت . ومن هذا المدخل يرى فانون أن على الدول الأوروبية دفع تعويضات للشعوب

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص٩٥.
(٤) المرجع السابق، ص٩٨.

الأفريقية عن فترة الاستغلال الاستعماري ، ولأهمية هذه القضية ستناقش بشكل أكثر تفصيلا في الجزء التالي.

ثانيا : قضية المعونة والتعويضات

يربط فانون ربطاً واعياً بين حق دول العالم الثالث في الحصول على تعويضات من الدول الاستعمارية السابقة وبين تعرضها للاستغلال من جانب هذه الدول معتبرا أن التعويضات حق، يري فانون أن من حق دول العالم الثالث الحصول على تعويضات يدلا من فترة الحكم الاستعماري ويؤسس هذا الحق على قاعدة "أن الثروات التي تتخم أوروبا اليوم إنما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة"[١] . ويذكر بأن موانى هولندا وليفربول المتخصصة في تجارة الرقيق إنما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين، وأن ثروات البلاد الاستعمارية هي ثروتنا أيضا،" لقد اتخمت أوروبا ذهبا وموارد أولية من البلاد المستعمرة وبذلك فإن أوروبا إنما خلقها العالم الثالث"[٢].

وبالتالي فإن التعويض المعنوي الذي يحققه الاستقلال لا يعمي عن الحقيقة،؛ لأنه لا يطعم من جوع، وإذا كانت الشعوب الأوروبية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية أخذت تطالب بتعويضات عن الأضرار التي ألحقها بها النازي وكانت أوروبا كلها تردد عبارة واحدة(يجب أن تدفع ألمانيا) وإذا كانت ألمانيا على لسان المستشار الألماني كونراد أو أديناور تجدد العهد بأن تدفع لدولة إسرائيل المبالغ الضخمة تعويضا عن جرائم النازيين. فإن على الدول العالم الثالث أن تطالب بحقها في تعويض عادل يقدم إليها ، وألا تقبل أن تكون المساعدات التي تقدم إلي البلاد المتخلفة برنامج صدقات،وأن تنظر إليها باعتبارها جزء من التعويض وليس إحسانا والنظر إليها كالتزام دولي وواجب أخلاقي على الدول المتقدمة[٣]، فعلى دول العالم الثالث أن تدرك وتعي أن هذا حق وعلى الدول الرأسمالية أن تفهم أن عليها أن تدفع.

---

(١) المرجع السابق، ص٩٩.

(٢) نفسه.

(3) G. K Grohs, **op.cit.**, P.553.

ويشرح فانون في أسلوب غاية في الدقة وتحليل عميق واضح،لماذا على الدول الرأسمالية أن تدفع ؟ ... فإلي جانب أن هذا تعويض عن عملية نهب ونزح للثروات قد تمت في السابق، فإن منطق الأمور يفرض على الدول الرأسمالية أن تقدم هذه المعونة وإلا فإن منطق نظامها نفسه ستولي خنقها، ويوضح فانون استنتاجه هذا.. بأنه حين تتهيأ حكومات الدول المستعمرة عن الجلاء عن مستعمراتها فإن رأسمالي هذه الدول يقومون بسحب رؤوس أموالهم و استثماراتهم من هذه الدول خوفا من حالة عدم الاستقرار المتوقعة ويشترط لإبقاء رؤوس الأموال ضمانات وشروط مجحفة، غالبا ما تكون غير مقبولة؛ لأنها تمس بسيادة هذه الدول، كأن تطالب بدخول الدولة في معاهدات اقتصادية أو أحلاف عسكرية وأمام عدم القبول بهذه الشروط فإن رؤوس الأموال تحجم عن الدخول في أسواق الدول الناشئة وتظل محصورة في بلدانها وأمام ضآلة فرص الاستثمار وضآلة الأرباح التي تحصل عليها فإن رؤوس الأموال تظل جامدة ولا تتحرك... مما يشكل خاطرا يهدد الرأسمالية العالمية فضلا عن حرمان الصناعات الغربية من أسواق البلاد الناشئة إذا اتجهت شعوب هذه البلدان للتطور على أساس الاكتفاء الذاتي والاعتماد المتبادل فيما بينها، حينئذ تتعرض أسواق الدول الرأسمالية إلي كساد يؤدي إلي إغلاق المصانع وانتشار البطالة مما يفاقم من التناقضات الاجتماعية داخل هذه الدول ويدفع الطبقة العاملة الأوروبية إلي كفاح صريح ضد دولها.

ويكتسب هذا التحليل مصداقيته إذا نظرنا إلي الجانب المقابل للصورة وهو أن الدول الأوروبية كانت تعتمد على ثروات المستعمرات وأسواقها لإحداث حالة من الانتعاش في أسواقها وتوفير قدره توزيعية تحافظ بها على رضاء القسم الأعظم من شعوبها ، للتغطية على عوامل الصراع والتناقض داخل مجتمعاتها وبالتالي فإن فقدان الدول الأوروبية لهذه الأسواق والثروات سيضر بها ضررا بليغا.

وعند هذه النقطة ستدرك الاحتكارات الرأسمالية أن مصالحها تفرض عليها أن تساعد البلاد المتخلفة مساعدات ضخمة دون أن تفرض عليها شروطا كثيرة"[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠١.

وعليه فإن الشعوب المتخلفة بوعيها هذه المسألة فإنها تخطئ في استجداء المعونة من البلاد الرأسمالية وعليها أن تدرك أن مطالبتها بالتعويضات هو حق وعدل.

وتناول فانون هذه القضية بهذا الوضوح يؤكد على رؤية بعيدة النظر لسببين أولهما أنه يدرك أهمية وضرورة توافر رؤوس الأموال؛ لإنجاز مهام التنمية والتقدم الاقتصادي وثانيهما ..أن السبيل الوحيد لتوافر رؤوس الأموال من الخارج يكون إما على شكل قروض تثقل بفوائدها كاهل الشعوب الأفريقية وتشكل عبئا مضافا وإما على شكل مساعدات ...وكلاهما "القروض المساعدات" ستكون سيفا مصلتا على شعوب البلدان المتخلفة ، قد تدفعها للوقوع في فخ التبعية؛ لأنها دائما ما تكون مقترنة بشروط سياسية وهو ما أثبته واقع التجربة التاريخية في العقود اللاحقة حيث أن المعونات والقروض كانت تحكمها ما أسمى بالمشروطية السياسية وفرض سياسات اقتصادية وسياسية واجتماعية بواسطة الدول المانحة أو مؤسسات التمويل الدولية فضلا عن أن القروض وتركم فوائدها قد وصل إلي الدرجة التي عجزت فيها الدول الأفريقية عن الوفاء بمتطلبات التنمية وأصبح سداد الديون وفوائدها يلتهم جزءا كبيرا من الناتج القومي لهذه الدول.

هذا الواقع البادي الآن.. يوضح كم كان فانون واعيا ومدركا لهذه المخاطر وكان بعيد الرؤية في طرح مسألة التعويضات وهو يقول إن الشعوب تخطئ إذا هي استجدت البلاد الرأسمالية ....إننا أقوياء بحقنا وعدالة موقفنا[(١)].

ثالثا: الطريق إلي التقدم والتنمية الاقتصادية:

يري فانون بادئ ذي بدء أن تحقيق التقدم والتنمية الاقتصادية لا يمكن أن تتم عن طريق أسلوب التنمية الرأسمالية " إننا نعرف طبعا أن النظام الرأسمالي من حيث هو طراز الحياة لا يمكن أن يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية والعالمية فالاستغلال الرأسمالي والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة"[(٢)]

(١) نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٦.

ولا يقفز فانون على الواقع للوصول إلى هذا الفهم ولكنه يشرح بإسهاب دور البرجوازية الوطنية(المحلية) التي عادة ما تتسلم مقاليد السلطة في نهاية العهد الاستعماري ويصفها بأنها برجوازية متخلفة لا تمتلك أي قوة اقتصادية وقوتها الاقتصادية تكاد تكون صفر ومرد ذلك " أنه يستحيل على بورجوازية أن تجمع رأسمالا في ظل النظام الأستعماري"[(١)].

فهو يراها بورجوازية لا تملك رؤوس أموال، قليلة العدد، لا خبرة لها، تعجز عن إقامة صناعة وتوجه جهودها للإنتاج الزراعي بنفس النمط الذي كان قائماً في أثناء المرحلة الاستعمارية فلا يطرأ أي تغير على طرق الاستثمار فتظل البلاد تصدر موارد أولية، ويظل الأهالي يعملون مزارعين صغار لدي الأوروبيين وتظل البلاد اختصاصية في تقديم المحاصيل الخام[(٢)].

وكذلك فإن عجز البورجوازية الوطنية يستتبعه عدم القدرة على إقامة نظام التعددية الحزبية، ولذلك فهي تتجه الى ديكتاتورية الحزب الواحدة التي غالبا ما تنتهي إلى دكتاتورية عسكرية إن عاجلاً أم آجلا[(٣)].

ويرجع فانون عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بدورها التاريخي المفترض ومظاهره البادية من ضيق في النظرة والنقص في الهمة، إلي اختلاف الظروف التاريخية التي نشأت في ظلها البرجوازية الأوروبية والتي أنجزت مهام أساسية على طريق التصنيع والتقدم وبناء الدولة القومية.

فالبرجوازية المحلية في ظل ظروف نشأتها المختلفة عن مثيلتها الأوربية "ليس لها أفكار، مغلقة على ذاتها عاجزة عن التفكير في المسائل على أساس مجموع الأمة"[(٤)].

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٤

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٦

(3) Hussein Adam M." Frantz Fanon as a Democratic Theorist" : **African Affairs**,(Oxford: Oxford University Press, Vol. 92, No. 369 ,Oct., 1993), pp.503-504
http://www.jstor.org/stable/723236

(٤) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٤٨

كـل مـا تستطيعه هـو أن تعمـل وكـيلاً للبرجوازيـة الغربيـة وتبيـع نفسها للشركات الأجنبية ، ومطالبتها بالتأميم للمصالح الأجنبية لا يعني عندها أكثر من "نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعماري لتكون تحت سيطرتها"[١] . ويصف سلوكها في أخر الأمر أنه أشبه بسلوك عصابة من اللصوص[٢] .

ويرتب على ذلك، النتيجة الحاسمة، بأن المرحلة البرجوازية مستحيلة في البلاد المتخلفة ولـذلك يجب علينا" أن نعارض معارضة شديدة في نشوء برجوازية وطنية"[٣] .

وبذلك يكون فانون بطروحاته عن البرجوازية المحلية بسماتها المعروفة في دول العالم الثالث قد أوضح أنها تقود الاقتصاد القومي إلي طريق مسدود محدود الأفق وبالتالي فإن طموحات التقدم لا تجد سبيلها في إتباع أسلوب التنمية الرأسمالية. ويفهم من رفض فانون للنظام الرأسمالي انه يميل إلي تفضيل الخيار الاشتراكي ويقول في ذلك ".. أننا نعلم إن اختيار نظام اشتراكي يلتفت برمته إلي مجموع الشعب ويقوم على اعتبار أن الإنسان أثمن قيمة، سيتيح لنا أن نسير سيراً أعظم وأكثر انسجاما وسيحول بذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنه من الناس جملة القوي الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة[٤] .

ومن المهم ملاحظة أن فانون في تفضيله للخيار الاشتراكي لم يشر إلي نموذج بذاته لتطبيقه، ومجمل كتاباته تشير إلي انه مع الاشتراكية إلا أنه لم يذكر معالم محددة لتطبيقها وإنما رسم خطوط عريضة يفهم من خلالها أنه لا يحاكي أي نماذج قائمة و أنه يحبذ البحث عن طريق مستقل لتطبيق هذا النظام "إن البلدان المتخلفة التي استفادت من التنافس الضاري القائم بين النظامين ممن أجل أن تكفل انتصار كفاحها في سبيل التحرر الوطني، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الإقامة في نطاق هذا التنافس.. وعلى العالم الثالث أن لا يكتفي بتجديد ذاته على أساس قيم مسبقة، إن على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيما خاصة بها وأن تضع المناهج التي تناسبها وأن تتبع الأسلوب الذي

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦

(٢) المرجع السابق، ص١٦٥

(٣) المرجع السابق ص١٨٦

(٤) المرجع السابق، ص ١٩٧ .

يلائمها ... إن المشكلة المحسوسة التي نجد أنفسنا أمامها ليست أن نختار مهما كلف الأمر، بين الاشتراكية والرأسمالية كما حددها أناس يختلفون عنا زماناً ومكاناً"[1].

وتفضيل فانون للخيار الاشتراكي وبحثه عن مناهج مناسبة لواقع دول العالم الثالث وقيمه،دفعه؛ لأن يحدد عدداً من الخطوط العريضة التي يري أنها هامة لتحقيق التقدم فهو يري أن الحماسة وحدها لا تكفي فالحماسة قد تدفع إلي القيام بأعمال شاقة ولكن أي جهداً شاقاً لا يمكن أن يتواصل مدة طويلة على سرعة كبيرة.

فالأمر إذن يحتاج إلي ما هو أبعد من تشغيل الأفراد ودفعهم إلي القيام بأعمال شاقة (وأن الجهد الجبار الذي يهيب قادة الشعوب المتخلفة بشعوبهم أن يقوموا به لن يعطي الثمرات المرجوة) ويصبح من الضروري إعادة النظر في كل الأمور وأن يستأنف كل شيء استئنافاً جديداً وأن تبدل طبيعة عمليات التصدير لا الجهات التي يتم التصدير إليها فقط، ويجب البحث عن موارد جديدة غير تلك التي اهتم بها الاستعمار، وأن تبدل شروط العمل، و هذا الطرح لا يعني إلا شيئاً واحداً وهو أهمية التخطيط.

ويهتم فانون بمسألة الوعي وضرورته في حشد وتعبئة الأمة، "وكما كان كل مقاتل في مرحلة الكفاح يحمل الأمة كلها على ذراعيه فكذلك يجب في مرحلة البناء القومي أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط في عمله اليومي المحسوس بمجموع الأمة" وهنا تبرز قضية الانتماء فالانتماء والوعي لازمان في مرحلة البناء "إذا كان بناء جسر لا يغني وعي أولئك الذين يبنون الجسر، فلا كان الجسر، وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة"[2]. والمشاركة، حيث لا انتماء دون مشاركة ".. يجب أن لا يهبط الجسر من السماء، يجب أن لا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى، بل يجب أن يخرج من عضلات المواطنين وأدمغتهم.. يجب أن يستطيع المواطن أن ينسب الجسر إليه وعندئذ فقط يصبح كل شيء ممكنا"[3].

ومثال الجسر الذي استخدمه فانون يحمل مضامين عديدة في الفكرة التي يريد التعبير عنها ففيه نجد أنفسنا أمام ثلاثية الوعي- المشاركة- الانتماء وهي ثلاثية

(١) المرجع السابق، ص ٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٨.
(٣) نفسه.

مترابطة متفاعلة فلا مشاركة بدون وعي ولا انتماء بدون مشاركة وهذه القراءة لما أراد فانون أن يعبر عنه ربما تضع اليد على مكمن الخلل في مجتمعاتنا الحالية حيث تغيب حالة الوعي وتفتقد المشاركة وبالتالي يضعف الانتماء فيصاب المجتمع بالوهن والضعف، وإلي جانب هذه الخطوط العريضة فإن فانون يتطرق إلي مسائل غاية في الأهمية و فهو يتحدث عن أهمية الشبيبة في البلاد المتخلفة وأهمية رفع مستواها.

وعن النساء فهو يدعو إلى نبذ التقاليد الإقطاعية في البلاد المتخلفة التي تفضل عنصر الرجال على عنصر النساء " يجب أن تنال النساء منزلة كمنزلة الرجل سواء بسواء لا في مواد الدستور بل في الحياة اليومية في المصنع والمدرسة والمجالس المنتخبة[١].

وعن الجيش ودوره فالجيش ليس مدرسة حرب فقط بل مدرسة تنويرية للمواطنين، والجندي في أمة راشدة ليس جنديا مستأجرا بل هو مواطن يدافع عن الأمة بالسلاح. وفانون ضد الجيش النظامي ومع الميليشيا وهو ككل أعضاء حركات المقاومة ضد أن تكون العسكرية مهنة نظامية[٢].

وليس من اللازم وضع العسكريين في الثكنات وأن الإنشاءات الكبرى يمكن تنفيذها بواسطة المجندين ويجب تحاشى تحويل الجيش إلي هيئة مستقلة يحملها الفراغ على أن تعمل بالسياسة، فإن جنرالات الصالونات يحلمون باستلام السلطة ولعل فانون كان متأثرا في هذه الفترة بخبرة وتجربة الانقلابات العسكرية في أمريكيا اللاتينية ، ولقطع الطريق على ذلك يري ضرورة إدخال الجيش في حياة الآمة وإلى مضاعفة الحرس الوطني فالأمة كلها يمكن أن تقاتل وان تعمل فلا يكون هناك مجندون محترفون[٣].

ويرى Hussein Adam أنه ولأكثر من واحد وثلاثون عاما منذ موت فانون فإن المؤسسة العسكرية مستمرة في أن تشكل التهديد الخطير للديموقراطية[٤]

ويضع فانون لذلك كله إطارا عاما وهو ضرورة وجود برنامج تنتقل به

(١) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(2) G. K Grohs, **op.cit.,** P.553.

(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ،١٨٩.

(4) Hussein Adam **op,cit.,** p.504

الأمة إلي الوعي السياسي الاجتماعي الذي يجنبها النكسات " لا وجود للأمة إلا برنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقا قائما على الفهم الصحيح[1]. برنامج اجتماعي يتناول جميع فئات الشعب[2].

وكل ذلك لابد أن يتم ديمقراطيا "على الحكومة القومية إذا أرادت أن تكون قومية أن تحكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب أن تحكم من اجل المحرومين وبالمحرومين وما من زعيم مهما تكن قيمته يمكن أن يحل نفسه محل الإرادة الشعبية"[3]. وأن تناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل أن لا يستحيل الحزب أبدا إلي أداة طبيعة بين يدي الزعيم"[4].

وفي خاتمة كتابه معذبو الأرض يضع فانون إطارا شاملا يحتوي النموذج المبتغي من التقدم يحذر فيه من محاكاة التجربة الأوروبية والتي يرى أن محاكاتها ستؤدى إلي الإخفاق.

ويري أن على العالم الثالث حل المشكلات التي لم تستطع أوروبا أن تأتي لها بالحلول وان" المشكلات المطروحة تتطلب تجديدات مبتكرة"[5].

وعلينا أن نحاول خلق الإنسان الكلي الذي عجزت أوربا عن تحقيق الانتصار له وإذا كان الهدف هو الإنسان ،فإنه يرسم لتحقيق ذلك صورة بكلمات موحية مفعمة بالروح الإنسانية " يجب علينا أن لا نتحدث عن وفرة الإنتاج، أن لا نتحدث عن الجهد العنيف، أن لا نتحدث عن السرعة الكبيرة .... أن نشد البشر إلى اتجاهات تشوههم، يجب أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الإنسان وننزعه من ذاته... نحن لا نريد اللحاق بأحد، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت ليلا و نهارا في صحبة الإنسان، في صحبة جميع البشر. وعلينا أن نجعل القافلة متراصة غير متباعدة وإلا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يري الصف الذي تقدمه، ولم يستطع البشر أن يعرف بعضهم بعضا، وأصبحوا لا يلتقون إلا لماما ولا يتحدث بعضهم إلي بعض

(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ١٩٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨.

(٣) المرجع السابق ، ص١٩٢.

(٤) المرجع السابق ، ص ١٧٤

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٩٦.

كثير"[1].

هذا النص نستخلص منه أهمية الجهد الذي ينسجم وفق طاقة الإنسان وقدرته، الجهد المتصل الذي يخلق تراكما... وهو جهد جماعي وليس فردى ليؤتي ثماره وهو جهد يتم في نطاق إنساني يشد البشر.إلي بعضهم البعض ويدعم الأواصر بينهم هو جهد يستهدف خلق إنسان جديد يستحق من أجله " أن نلبس جلداً جديداً وأن ننشئ فكر جديدا"[2].

وهذه هي رؤية فانون للطريق التي يرى أن على دول العالم الثالث أن تسير في اتجاهها لتحقيق التقدم وهى رؤية شاملة مست كافة القضايا التي تخص الأفراد والمجتمع بكل فئاته ولم تقتصر على جانب واحد سياسيا كان أو اقتصاديا أو اجتماعيا وهى رؤية في ظن الباحث أنها في خطوطها العريضة مازالت تصلح للطرح على مجتمعاتنا في زمننا الحالي.



(١) المرجع السابق، ص ٢٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٩.

الباب الثالث

الثورة الجزائرية

فانون والمجتمع:

سافر فانون إلى الجزائر للمرة الأولى في عام ١٩٤٤ قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية حينها كان مقاتلا متطوعا في جيش فرنسا الحرة فأرسل إلي مدينة بجاية بالجزائر ليتلقي تدريبات عسكرية، في هذه الأثناء وقبل الرحيل رأي فانون في مدينة وهران مشهداً احتفظت به ذاكرته وسجله في كتاباته وأصبح هذا المشهد إحدى خبراته المبكرة في الحالة الاستعمارية.

وسافر مرة أخرى في عام ١٩٥٣ و ذلك بعد انتهاء دراسته للطب النفسي في جامعة ليون وكان فانون يتطلع وقتها للعمل بإحدى الدول الأفريقية، فقبل على الفور عرضا للعمل بمدينة بليدة بمستشفاها للطب النفسي.

سافر فانون إلي الجزائر للعمل وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرون عاما، محملا بعلمه كدارس للطب النفسي في جامعات فرنسا ومزودا بثقافة يغلب عليها الطابع الإنساني العام لاحتكاكه وارتباطه بالمثقفين الفرنسيين من أمثال سارتر وبصداقاته الواسعة مع قوي اليسار والديمقراطيين الفرنسيين بالإضافة إلى دراسته للأدب والفلسفة، سافر مختزنا في داخله خبرة التفرقة العنصرية التي عاشها في موطنه الأصلي "المارتينك" والتي عايشها مجدداً ولمسها أثناء تواجده في صفوف جيش فرنسا الحرة، ومتمثلا تجربة تعامله مع الجزائريين والأفارقة الفقراء ومعالجته لهم أثناء عمله في مستشفي سان البان إلي جوار د. توسكيل صاحب المعرفة الواسعة بحقل العلاج الاجتماعي والتأثير الكبير على فانون في هذا المجال.

ترافق سفر فانون للعمل في الجزائر وهى على أعتاب فترة حاسمة، كانت تتهيأ فيها لبداية معركة التحرير والكفاح المسلح في نوفمبر ١٩٥٤، ومع الثورة عاش فانون خبرة وتجربة جديدة لها عمقها وأصالتها ولها أبلغ الأثر عليه، في تطوره ونضجه الفكري وفي إسهاماته العملية.

وبهذا المعني فإن للجزائر وثورتها وضع متميز وشديد الخصوصية في حياة فانون وتطوره مما يجعل من الضروري أن يُفرد لها مساحة نتبين فيها،

أولا : علاقة فانون بالثورة الجزائرية وتأثير الثورة عليه وعلى مراحل تطوره الفكري.

ثانيا: دور الثورة وتأثيرها على المجتمع الجزائري، على مستوي الفرد و الأسرة والمجتمع.



المبحث الأول

فانون والثورة الجزائرية

بانتقال فانون للعمل في الجزائر يمكن بقدر من الاطمئنان التمييز بين مرحلتين من حياته الفكرية والعملية، مرحلة ما قبل الجزائر ومرحلة ما بعدها، ذلك أن تجربة انتقال فانون إلى الجزائر وهي تتهيأ؛ لانطلاق ثورتها الوطنية، أمدته بخبره عملية وأتاحت له ظروفاً لم تكن لتتاح لو أنه انتقل للعمل في مكان أخر، ذلك أن الثورة الجزائرية شكلت عامل جذب لفانون، و هو الانتماء إلي شعب أفريقي يكافح ضد الاستعمار.

ويناقش في هذا المبحث الأسباب والدواعي التي جعلت من هذا الانتقال فاصلا بين مرحلتين ثم نوضح طبيعة الأدوار التي أداها فانون في نطاق الثورة الجزائرية و بعض التحولات التي طرأت على فكره ودور الثورة في أحداث هذا التحول، وذلك من خلال :

أولا : ظروف الانتقال والأدوار التي قام بها :

١- ظروف الانتقال إلى الجزائر:

ذهب فانون للعمل في الجزائر عام ١٩٥٣ وهي الفترة التي كانت الجزائر تتهيأ فيها لإطلاق ثورتها الوطنية في نوفمبر عام ١٩٥٤ مما أتاح له معايشة الأجواء والظروف الموضوعية للثورة قبل انطلاقها، بالإضافة إلي أن عمله في مستشفي بليدة وعلاجه للمرضى الجزائريين كان بمثابة خبرة عملية تكشف له من خلالها مدي تأثير عمليات المسخ والتشويه التي يقوم بها الاستعمار في نفسية الإنسان الجزائري وإحداث المرض فيه.

في هذه الأثناء كان فانون يبحث عن تجربة يجد فيها استقراره النفسي والفكري خاصة أنه أثناء إقامته في فرنسا "لم يجد في مذاهب اليسار الفرنسي أجوبة

شافية،؛ لأن اليسار الفرنسي كان أجنبيا إلي حد كبير عن الاهتمامات الأساسية التي من شأنها أن تشد رجلا يشعر بالاضطهاد والعنصرية بسبب انتمائه إلي شعب ملون أي غير أوروبي"[١].

وكذلك فالتيارات الأخرى التي كانت تثير اهتمامه في أفريقيا السوداء والتي كان من الممكن أن تجذب إليها فانون ومن أبرزها تيار الزنوجة، "لم يكن محل اقتناع كامل لدي فانون[٢].

وهذا هو الذي يدعو إلي القول بأن انتقال فانون للجزائر قد هيأ له ظروفا لم تكن لتتاح لو أنه انتقل إلي مكان أخر" وليس من المستبعد أن تكون تجربة فانون كطبيب نفسي في الجزائر وخاصة بعد دراسته لحالات المرضى بعد قيام الثورة المسلحة، قد كشف له عن المشاكل المتولدة من الاستعمار فكان انضمامه إلي الثورة الجزائرية، وإذا كان" لون فانون قد حال دون اندماجه في الغرب" [٣] .فإنه وجد في الجزائر ميدانا يمكنه من خلاله خوض معركة ضد الاستعمار معركة كلية شاملة.

وبتلك الفرصة التي هيأتها له الثورة الجزائرية يكون فانون قد وجد ضالته "بالانتماء إلي وطن أفريقي يحل مشاكله ويشبع نهمه للنضال وحماسه للعمل"[٤] ،وبانضمام فانون إلي الثورة الجزائرية فإنه أصبح يشاهد الحقائق من خلال واقع ساخن عار، بعيد عن ضباب التجريد وتلوينات النظيرات الفلسفية"[٥] . مما مكنه وسهل له تغير أفكاره وتطورها بتفاعلها مع الأحداث.

٢- الأدوار التي أداها في فترة ما بعد الانتقال :

بانتقال فانون إلى الجزائر فإنه قام بأداء أدوار مختلفة

أ- الدور المهني

بسفره إلي الجزائر وعمله في مستشفي بليدة للأمراض النفسية، أصبحت أمامه الفرصة لتطبيق أساليب العلاج الاجتماعي الذي أتقنه مع أستاذه د.

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ٢٨

(٢) نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠

(٤) نفسه

(5) Renate Zahar, **Op.cit.**, P.XI

توسكيل ولكن فانون في محاولته لتطبيق الأساليب العلاجية والتي سبق إتباعها مع المرضي الغربيين، اصطدم بواقع أن الظروف الاجتماعية التي يجري في ظلها العلاج هي جد مختلفة وأن عدم أخذها في الاعتبار لا يؤدي إلي نتائج إيجابية، فضلا عن أن مشاهداته أوصلته إلي قناعة باستحالة علاج المرضي الجزائريين علاجا كاملا في ظل القهر والعنف الاستعماري الذي يمارس على الأهالي ... وأنه لمداواة المرض الجزائريين ينبغي وضع حد للاستعمار الفرنسي أولا.

وبوصوله إلي هذه القناعة، قدم فانون خطاب استقالته الشهير من عمله في مستشفي بليدة محتجا على هذه الأوضاع، ومهيأ نفسه للانتقال للقيام بدور أكثر راديكالية ذلك هو ما يمكن تسميته بالدور الكفاحي، هذا الدور المهني امتد في الفترة من نوفمبر ١٩٥٣ إلي ١٩٥٦ عام تقديمه لاستقالته. ب- الدور الكفاحي.

بعد استقالته، دخل فانون مرحلة جديدة من حياته اندمج فيها بالثورة الجزائرية وقطع كل صله له بماضيه ذلك أن التزام فانون الثوري وإن نشأ أصلا بشكل فطري من ممارساته المهنية إلا "أن راديكاليتها زادت خلال تجربته الشخصية في النضال التحرري الجزائري"[1] . وفي إطار هذه المرحلة قام فانون بعدة نشاطات منها ما هو على المستوي الفكري النظري وما هو على المستوي العملي والمشاركة الميدانية فعمليا قام فانون " بتدريب الممرضات الجزائريات على المقاومة السرية وقدم معلومات وأسلحة ولعب دورا رئيسيا في تدريب وحدات الفدائيين وعلم المجاهدين كيفية التحكم بالنفس وردود فعلهم في محاولتهم وضع المتفجرات وإلقائها وكيفية التحكم العقلي والجسدي في مواجهة التعذيب وتحمله[2] ومن الطبيعي أن جانبا من هذا الدور في كيفية التحكم في رد الفعل أداه فانون مستفيدا من خبرته وعلمه كطبيب نفسي.

و من أكبر المهام التي قام بها فانون هو العمل على بناء جبهة ثالثة على الحدود مع مالي جنوب الصحراء توجه فيها الأسلحة نحو الولايتين الأولي والخامسة"[3] .وذلك لحل مشكلة الواقع الميداني والمتمثل في صعوبة تموين الداخل عن طريق تونس والمغرب بعد إجراءات الحصار الفرنسية.

---

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص١٢٥

(1) Renate Zahar, **Op.cit.**, P.XI

(٢) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص١٨٤

وإلى جانب النشاط العملي فقد شارك فانون في الكتابة في صحافة الثورة معبراً عن آرائه ومقدما خبراته لقواعد الثورة وكوادرها وعاكسا رؤية قيادة جبهة التحرير في عدد من المسائل كما أصدر عددا من الكتب الهامة التي يبرز فيها خط تطوره الفكري وهو ما سيتم التعرض له لاحقا.

ج- الدور السياسي والدبلوماسي:

بدء هذا الدور في نهاية عام١٩٥٨ في نطاق ثورة الجزائر حينما عين عضوا في الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا عاصمة غانا "وهناك تعرف على نكروما ولومومبا، كما تعرف على فليكس هومييي رئيس اتحاد السكان الكاميرون"[١]. وعدد آخرون من قادة حركات الاستقلال الأفريقية....ففي مارس عام ١٩٥٩ تحدث فانون أمام المؤتمر الدولي الثاني للكتاب والفنانين السود المنعقد في روما، وفي يناير عام ١٩٦٠ أتيح له الاتصال بممثلي الحركات الأفريقية ضمن المؤتمر السنوي للشعوب الأفريقية الآسيوية المنعقد في تونس و القي في هذا المؤتمر خطابا عبر فيه عن إيمانه بأن العنف هو السبيل الوحيد التي يجب أن يسلكها المستعمرون.

ونوقش في هذا المؤتمر التطورات التي حدثت منذ المؤتمر الأول في أكرا وطالب فيه بتكوين فرقة من المتطوعين الأفارقة للكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

وفي مارس في نفس العام عين فانون ممثلاً دائماً للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في أكرا وكان فانون في كل حركاته " مجسدا للرابطة بين كل من أفريقيا التقليدية في شمال وجنوب الصحراء وبين العالم الثالث" .

وتواصل تمثيل فانون للثورة الجزائرية في أفريقيا وغيرها من المحافل، وأداؤه لهذا الدور أتاح له الإطلاع على تجارب هذه البلدان والاحتكاك المباشر بناسها ومشاكلها وكذلك فالتقاؤه بالقادة والنخبة من السياسيين الأفارقة أتاح له قدراً من التفاعل والتواصل المشترك كما أنه" يدمج الجزائر في حركة النضال الوطني الأفريقي"[٢]. ويؤسس لعلاقات مشتركة أكثر صلابة وأسهم هذا التفاعل بدوره

(١) محمد الميلي، فانون والثورة الجزائرية، م س ذ، ص ٢٥.

(2) Renate Zahar **op.cit.**,x111

في تطوير وعي و فكر فرانز فانون وفي صقله، وساهمت استخلاصات هذه الفترة في أن يكون فرانز فانون هو ذلك المفكر النظري والمؤلف المستقبلي لكتاب" معذبو الأرض.

ثانيا : مجالات تأثير الثورة الجزائرية على فانون :

سبق الحديث عن أن انتقال فانون إلي الجزائر كان خطا فاصلا بين مرحلتين من حياته، وفي إطار المرحلة الجزائرية والتي تبدأ منذ عام ١٩٥٣ وهو عام الانتقال للعمل في الجزائر يجري التميز في هذه المرحلة بين ثلاث مراحل يتم التميز فيها هي الأخرى على أساس درجة التفاعل والاندماج مع ظروف الجزائر الثورة والمشاركة في فاعليتها والتفاعل معها ويعبر عن هذه المرحلة كتاب(معذبو الأرض) الذي كتبه فانون على فراش المرض وانتهي منه وتم نشره قبل وفاته بأيام، ذلك أن هذا الكتاب يعكس الكثير من تأثير الثورة الجزائرية على فكر فانون في نفس الوقت الذي يعكس فيه تطور الفكر الثوري عند فانون متفاعلا مع هذه الثورة وملابستها حيث تكشف له من خلال ذلك التفاعل عن حقائق جديدة تتصل بأفريقيا كما تكشف عن حقائق أخرى[1] .تتصل بالعالم الثالث.

ويفند محمد الميلي ما اعتبره" خطأ تاريخياً وقع فيه بعض من تناولوا حياة فانون بحديثهم عن تأثير فانون على الثورة الجزائرية بما يوحي أنها كانت خالية من أي فكر سياسي حتى قيض لها الله فرانز فانون[2] . وأن هناك فكرة استقرت في الأذهان من كثرة ما ترددت في الكتابات وهي أن فانون أثر في الثورة الجزائرية وأن تأثيره كان حاسما حتى أن هناك من اعتبره منظر الثورة ومفكرها[3] ولم يتطرقوا في رأيه إلي مدي تأثير الثورة الجزائرية في فانون ومدي انصهاره بأصالتها وجذريتها، ويستدرك بأن دراسته هي لتصحيح وضع خاطئ لا ينال من مكانة فانون ولا التشكيك في أصالة تفكيره وأن ما ينكره هو سريان التأثير في اتجاه واحد من فانون إلي الثورة الجزائرية. وأن هدف الدراسة هو إظهار مدي تأثر فانون بالثورة الجزائرية والإشارة إلي بعض

---

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص١٩٦

(٢) المرجع السابق، ص٥

(٣) المرجع السابق، ص٣٢

الجذور الفكرية في فكر الثورة الجزائرية والنابعة من طبيعة الصراع الذي خاضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار.

وحدد عددا من القضايا للتدليل على صحة استنتاجه من أهمها:

- موقف فانون من اليسار الفرنسي وتطور نظرته إليه متأثرا بفكر الثورة.
- الموقف من الماضي والثقافة الوطنية.
- رؤية فانون لدور الفلاحين في الريف من الثورة.
- فانون واليسار الفرنسي.

يحدد فانون موقفه من اليسار الفرنسي في " أن الشعب الجزائري يعتبر أن اليسار الفرنسي لم يقم بواجبه في نطاق حرب الجزائر وأن المواقف التي يتبنونها تبدو متعارضة مع تبنيهم المبادئ المناهضة للاستعمار"(١).

وينطلق فانون في تحليله لهذه العلاقة الملتبسة بين اليسار وحركة التحرير الوطني الجزائري وللتهافت والتناقض في موقف اليسار إلى سيطرة فكرة أن الجزائر فرنسية واعتبار فرنسا أن التراب الجزائري امتدادٌ لفرنسا، وتحت تأثير هذه الفكرة المركزية والتي اكتسبت قبولا واسعا لدي الفرنسيين فإن الأحزاب الفرنسية أنشأت لها فروعا في الجزائر تتبنى نفس الشعارات التي تصدرها الأحزاب في الوطن الأم مما أدي باليسار الفرنسي إلي أن "يكتفي بالعمل من أجل تحقيق جزائر تزيد فيها نسبة الحريات الفردية والعدالة.." (٢).

وفي تفسيره لهذا الموقف الملتبس للمثقفين والديمقراطيين الفرنسيين يقول فانون، أنه منذ عام ١٩٦٥ أصبحت حرب الجزائر مقبولا بها من طرف الأمة الفرنسية وأن الآلة الإعلامية الاستعمارية كانت تستغل بعض العمليات التي يسقط فيها ضحايا مدنيين لتعزيز تهمة الإرهاب ضد المقاومين وأصبحت "تهمة الخيانة سلاحا رهيبا في أيدي الحكومة الفرنسية تهدد به المناهضين لحرب الجزائر"(٣).

---

(١) فانون ، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص٧٦.

(٢) نفسه.

(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

وأمام هذا المد اليميني المتطرف فإن اليسار الديمقراطي لزم حدود وجوده الضيق ذلك "أنه لا يملك جذور شعبية ولا يتمتع بسمعة وهيبة عند الشعب"[١].

وأصبح المثقفون اليساريون المحاصرون سياسيا يقدمون نصائحهم وشروطهم للشعب الجزائري كنوع من الوصاية الأبوية ويطالبونهم بوقف هذه العمليات كضرورة للاحتفاظ بصداقة اليسار، ويتوجهون بالخطاب إلي جبهة التحرير ليوجهوا " لها انتقادات أو نصائح سياسية تتعلق بهذا المظهر أو ذاك من حرب التحرير ... والمحرك لهذه النصائح هو الرغبة في قيادة وتوجيه حركة التحرر الوطني "[٢].

ويميز فانون بين موقفين متعارضين لليسار، اليسار غير الشيوعي واليسار الشيوعي، فاليسار غير الشيوعي يربط تأييده ومساندته للقضية الجزائرية ،بمطالبة الجزائريين بضمانات من أن الجزائر لن تنحاز إلي الكتلة الشيوعية ولن تتبع الكتلة المحايدة وإذا كان لابد من الانحياز فإنهم يطلبون منهم الانضمام إلي الكتلة الغربية ومن جانب أخر وفي خط معاكس فإن اليسار الشيوعي يحاول الحصول على ضمانات وأن ينتزع وعودا بأن لا تستقر الإمبريالية الأمريكية في الجزائر؛ لأنه لا فائدة يكسبها الشيوعيون الفرنسيون إذا ما حدث هذا.

إذن لكل أولوياته وأجندته الخاصة (وأصبحت الجزائر التي لم تستقل بعد محل صراع نفوذ على المستوي الدولي) ونسي الجميع أن المهم للشعب الجزائري هو استرجاع سلطته وتحقيق حريته الاقتصادية والسياسية.

ويدين فانون موقف المساومة على التأييد و الذي تقفه أقسام اليسار الفرنسي ويخلص إلي نتيجة حاسمة بأنه بمقارنة "(موقف اليسار الفرنسي) بأهداف كفاحنا يتضح لنا أنه لا يوجد أي قسم من أقسام هذا اليسار يقبل بإمكانية تحرير حقيقي"[٣].

ويري الميلي أن وجهة النظر هذه التي صاغها فانون عبر ثلاث مقالات وعنونها باسم (المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية) كان معبرًا فيها عن فكر الثورة الجزائرية مدللا عن ذلك" بان هذه الأفكار وردت في مقالات

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) فانون ، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص٧٤.

أخري من "المجاهد" لم يكتبها فانون كما نجدها في تصريحات رسمية للثورة الجزائرية"[١] .

ويري أيضا أن هذه الآراء تمثل تغيرا في موقف فانون وذلك بسبب اندماجه الكامل مع الثورة إذا أن موقف فانون في المرحلة الأولي " لا يختلف عن موقف الأوربيون الأحرار الذين رفضوا أساليب الاستعمار وأدواتها دون أن يتبنوا كلية مواقف الثورة الجزائرية"[٢] .

وأنه على عكس ما يراه البعض في أن كتابات قانون أسهمت في توجيه الثورة الجزائرية نحو الاتجاه الراديكالي فهو يري أن علاقة فانون باليسار الفرنسي قبل حرب التحرير واستعراض علاقة هذا اليسار بالحركة الوطنية الجزائرية تظهر أن الثورة الجزائرية هي التي أثرت في فانون ودفعت به إلي اتجاه نقد مواقف اليساريين الفرنسيين بأقساهم المختلفة، وأن فانون بقطعه كل صلة له بماضيه فإن موقفه من اليسار تأثر بشكل أساسي بتطور العلاقة بين الثورة وهذا اليسار الفرنسي.

ويمكن اعتبار أن هذا الذي ذهب إليه الميلي في هذه المسألة بالتحديد هو شيء منطقي ويتفق مع منطق الأمور ففانون بطبيعة الحال شأنه شأن أي مثقف ملتزم يتخذ من المواقف ما ينسجم مع موقفه المبدئي، وفي ذات الوقت فإن هذه المواقف ليست ثابتة أو جامدة ولكنها تتبلور وتتفاعل مع مقتضيات الحال وتطور الصراع ومواقف الآخرين، و كون فانون تلقي تعليمه الجامعي في فرنسا واتصل بمثقفيها وتياراتها الفكرية فأن علاقته باليسار حينئذ تحكمها العلاقات الودية فذلك هو ما كانت تقتضيه طبيعة التطور الفكري لفانون قبل عام ١٩٥٤ وأن نقده لليسار بعد انضمامه للثورة يأتي لتأكيد مصداقيته كمثقف يتفاعل مع الأحداث ويتطور بها..

الموقف من الماضي والثقافة الوطنية :

في مرحلته الأولى رفض فانون أي ارتباط بالماضي فالماضي عنده لا قيمة له فهو القائل "أنا لا أريد أن أتغني بالماضي على حساب المستقبل" وأيضا " إني لأسلم

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ١١٥.

(٢)المرجع السابق، ص١٣٠.

بأن وجود حضارة أزتكية[1] . قديمة ليس له على صعيد الحياة شأن كبير، فهو لا يبدل شيئا في النظام الغذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي ...وأن جميع البراهين التي يمكن الإتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قامت في الماضي لا تمثل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سونغاى اليوم"[2] . وبرفض الماضي فإن نقطة البدء عند فانون هي الثورة.

ويفسر الميلي هذا التوجه عند فانون بأن كونه من "المارتنيك " فموقفه من الماضي له ما يبرره حيث لا ماضي يعتمد ويعتز به، فتاريخ المارتنيك" هو تاريخ الرق ولم يكن ماضيه مقترنا بالكفاح من أجل الحرية وكذلك فالقضاء على الرق لم يتم بواسطة الكفاح وإنما تم بعمل خارجي.

وإدانة الماضي ورفضه، تلتقي مع الفكر الغربي الذي لا يعترف بأي ماضي آخر غير الماضي الغربي ويلتمس الميلى عذرا لفانون بأن الماضي الذي كان يمكن له أن يعتز به ويستلهمه هو ماض الجزائر ولكنه حتى عام ١٩٥٢ وهو وقت إعلان آرائه السابقة في كتاب "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" لم يكن تعرف بعد على الثورة الجزائرية وهو أيضا لم ينشأ في وسط متشبع بالثقافة العربية الإسلامية حتى يمكن له أن يكتشف قبل قيام الثورة" أهمية الثورة في توجيه الإنسان" وطرح الماضي عند فانون يعني ضمنا إنكار للتاريخ ودور الثقافة الوطنية وذلك هو ما يستخلص من آرائه عن عدم أهمية وجود حضارة قديمة وان وجود هذه الحضارة لا تبدل من الواقع المعاش شيئا.

هذا الرأي الذي عبر عنه فانون في مرحلة ما قبل الانتقال إلي الجزائر، بدأ في التغير بعد احتكاكه بالشعب والثورة، بدأ هذا التحول واضحا في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج الذي انعقد في باريس ١٩٥٦ ونشر في كتاب (من أجل أفريقيا) تحت عنوان(عنصرية وثقافة) في هذا المقال يؤكد فانون " أن الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها"[3] وبعد" أن كان ينكر كل دور للتقاليد ولا

(١) الأزتك مجموعة من المكسيك الأمريكان الهنود، هاجروا جنوبا لوادي المكسيك في القرن الثاني عشر، وبنوا عاصمتهم في منطقة بحيرة مارشلاند وهى نفس الموقع الحالي لمدينة مكسيكو سيتى.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص٤٠.

(٣) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص.٢٥

يعترف بالماضي ولا بالتاريخ ولا بالثقافات الوطنية فإنه أصبح يؤكد بأن الثقافة التي كانت مجمدة منذ السيطرة الاستعمارية يعاد لها الاعتبار"(١) .

وأن " الشعب الجزائري لم ينس ماضيه، فعلى الرغم من القمع الاستعماري استطاع أن يلوذ بقيمه الوطنية كما يلوذ بقلعة محصنة"(٢) .

وأن البرهان على وجود حضارة قومية قديمة " لا يرد الاعتبار وحسب لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم في المستقبل وحسب وإنما هو أيضا على صعيد التوازن النفسي يحقق للمستعمرين وثبه كبرى"(٣) . و ما كان مجرد تقاليد جامدة متأخرة أصبح بشكل جزء من الثقافة الوطنية رابطا بين ذلك و بين صمود الشعب الذي تحول في فترة لاحقة إلي مقاومة إيجابية ومسلحة ضد الاستعمار.

ويفسر الميلي هذا التحول في فكر فانون إلى أنه في عام ١٩٥٦ وهو عام إعلان هذه الآراء يكون قد مضي عليه في الجزائر ما يقرب من ثلاث سنوات وستين منذ بداية الثورة ، وان التحول الواضح في رؤية فانون كان يتعزز دائما بممارسته للعمل من داخل موقع الثورة التي أتاحت له أن يتعرف على الكثير من الحقائق التي كان يجهلها.

دور الفلاحين في الثورة :

وثمة وجه أخر من أوجه تأثير الثورة الجزائرية على فانون فكرياً، وهو الدور الذي أولاه فانون للفلاحين في الثورة وحركة الكفاح المسلح وفهمه لهذه الطبقة على أنها الطبقة الثورية الوحيدة في البلاد المستعمرة بسبب أنها ظلت محتفظة بهياكلها الاجتماعية منغلقة على كل تأثير استعماري فحافظت على تماسكها على النحو الذي سبق الإشارة إليه في الفصل السابق.

وفي هذا الشأن فإن فانون كان يحمل في داخله تمجيدا لقيم الريف ناتجاً عن تأثره بالكتابات الزنجية في مرحلة لاحقة وإذا كانت بعض تجارب شرق أسيا

(١) المرجع السابق، ص١٤٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٦.
(٣) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص١٩٩

كالتجربة الصينية تعطى مثالا ملهما، إلا أن المثال الجزائري كان واضحا في تأثيره فقد كان فانون يكتب وهو "يستعرض المعجزات التي حققتها جماهير الفلاحين في الريف الجزائري"[1].

فعنصر الريف والفلاحين بما أعطي لهما من قيمة في الثورة الجزائرية كان قائمين منذ اندلاع الثورة وعنصرا أساسيا من عناصرها.

ويري الميلي أن أول نوفمبر ١٩٥٤ نفسه كان انتصارا للمفهوم المنادى بالاعتماد على الريف في الثورة ضد الدعوة الأخرى التي ترى أن تحقيق أي تغير سياسي لا يمكن أن يتم إلا عبر المدن ، " وأن إعلاء قيمة الريف والفلاحين كان من بين العناصر التي استهوت فانون وساعدت على انجذابه نحو الثورة الجزائرية وأن تأثير الثورة عليه في هذه المسألة كان حاسما[2].

ثالثا: مراحل التطور في إطار الثورة:

يمكن متابعة مراحل التطور الفكري لفانون بتتبع إنتاجه الفكري ، أو بتقسيمه إلى مراحل زمنية حسب درجة تفاعله مع الثورة الجزائرية وفي واقع الحال فان كلا من الأسلوبين يتطابقان؛ لأن لكل مرحلة زمنية كتابها الذي يعبر عنها.

وإذا كانت مجريات الأحداث كما اتضحت في المطلب السابق تظهر أن للثورة الجزائرية دورا وتأثيراً في تطور بعض الأفكار التي تناولها فانون في كتاباته الأولي وإذا كان هناك ما اعتبره خطا فاصلا بين مرحلتين متميزتين في حياة فانون وتطوره الفكري فيكون من الطبيعي وللتدليل على جذرية هذا الانتقال الإشارة إلي طبيعة تكوين فانون الفكري في مرحلة ما قبل ثورة الجزائر ثم توضيح مراحل تطوره الفكري في إطار مرحلته الجزائرية وهذا ما سيتم تناوله على النحو التالي:

(١) محمد االميلي، م س ذ، ص ١٧٤.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص ص ٥٢-٥٣.

١- مرحلة ما قبل الجزائر :

وهي مرحلة قصيرة نسبياً يمكن قياسها بأنها أقرب إلى أن تكون مرحلة تكوين، وتشمل فيها تشمل فترة وجوده في فرنسا إبان دراسته في جامعاتها والفترة القصيرة التي أمضاها في أوروبا بعد تخرجه ويمكن العودة بها قليلا إلي الوراء لتستوعب فيها خبرته في القتال في الحرب العالمية الثانية وبعض مشاهداته في موطنه الأصلي "المارتنيك"، في هذه المرحلة كما ذكر سابقا درس فانون الفكر الغربي واستوعبه وارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة، كما أنه اتصل بالمثقفين الفرنسيين التقدميين واحتك بالحضارة الغربية بشكل عام وانعكس ذلك على فكره و شكله في إطار إنساني عام تعزز في داخله بدراسته الطب النفسي وما جبل عليه من تكوين فطري يرفض الظلم، هذا التكوين الذي دعاه إلي الانضمام إلي قوات فرنسا الحرة دفاعا عن فرنسا ضد الهجمة النازية ويظهر ذلك في قوله " أنا لست على وجه الأرض لأدافع عن السود فقط وإنما عن كل مظلوم ومضطهد " .

وساهم لون فانون الأسود في إحساسه بوطأة التفرقة العنصرية التي شاهدها في أثناء فترة تواجده ضمن القوات الفرنسية المحاربة.

هذه المرحلة بكل ملابساتها رسبت في أعماقه إحساس ضد الظلم وضد التفرقة وكان طابع تفكيره فيها يغلب عليه الطابع الإنساني العام، وفيها نشر أول كتاب له في عام ١٩٥٢ وعمره ٢٧ عاما. وقد مكنه هذا الكتاب - الذي كتب مقدمته الكاتب الفرنسي فرانسيس جانسون الوثيق الصلة بسارتر المثقف الأشهر في عصره - من أن يتبوأ مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين.

في كتاب (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) تحدث فانون عن معاناته من العنصرية "عندما استحدث إلي من يحبونني يقولون إنهم يحبونني على الرغم من لونى وحينما أتحدث إلي من يكرهونني يعتذرون بأنهم لا يكرهونني بسبب لونى وفي كلتا الحالتين أجدني حبيس الحلقة اللعينة إياها"[١] كما ناقش فيه موقفه من الزنوجة ورفضه للقيم الزنجية " لا ينبغي لي بأي شكل من الأشكال أن استمد هدفي الأساسي من ماضي الشعوب الملونة ولا ينبغي أن أكرس نفسي بأي شكل من الأشكال لبعث حضارة

(1) Fanon, Frantz , Black skin and White Masks, **Op.cit.**, P.116.

زنجية غير معترف بها"[1] وأن حل المشكل العنصري لا يكمن في الزنوجة " فالذي يمجد الزنوج لا يقل مرضا عن الذي يكرههم"[2].

فموقف فانون من العنصرية هو موقف إنساني عام ولهذا فإن رفضه للعنصرية البيضاء لم يكن ليقل عن رفضه للزنوجة التي اعتبرها نوع من العنصرية مضادة للعنصرية وذلك باعتبارها نقيضا للعنصرية البيضاء ومتولدة عنها وهي بنفس المعنى تخلوا من البعد الإنساني بنفس قدر خلو العنصرية البيضاء منها.

وباستعراض الخط العام لأفكار فانون في هذا الكتاب يصبح من الواضح مدي التطور الفكري الذي صاحب فانون في انتقاله إلى مرحلته الجزائرية.

٢- مرحلة ما بعد الجزائر :

تمتد هذه المرحلة زمنيا منذ انتقاله للعمل في الجزائر عام ١٩٥٣ حتى وفاته في نهاية عام١٩٦١ ويجري تقسيمها هي الأخرى إلي ثلاثة مراحل يتم التميز بينها على أساس درجة التفاعل والاندماج مع ظروف الجزائر الثورة، وذهب أحد المثقفين.إلي تحديد هذه المراحل على النحو التالي.

- مرحلة أولي هي مرحلة التعرف إلي الثورة الجزائرية
- مرحلة ثانية هي مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية.
- مرحلة ثالثة وهي مرحلة التفكير في نوع من الأممية على مستوي العالم الثالث.

يمكن تحديد مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية زمنيا بأنها الفترة منذ عام ١٩٥٣ إلي بداية عام ١٩٥٧ والتي وصلت إلي نهايتها بتقديم فانون طالب استقالة من عمله كطبيب في مستشفي بليدة إلا أن المرحلتين التاليتين لا يمكن الفصل الزمني بينهما لتداخلهما ويمكن اعتبار أن مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية هي مرحلة ممتدة ومستمرة منذ انضمامه الفعلي إلي حركة التحرير الوطني ومساهمته في كافة

(1) Ibed, P.226.

(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص ٦٢.

فعالياتها وحتى وفاته في أخريات عام ١٩٦١ وأن المرحلة الثالثة هي نتاج الاندماج والتفاعل مع الثورة ويجري تحديدها وتصنيفها على هذا النحو باعتبارها تمثل مرحلة متميزة من التطور الفكري الناتج من مجمل الخبرة المتحصلة من الاندماج في الثورة وبما أتاحته له من فرصة الاحتكاك خارج الإطار المحلي أفريقيا وإقليميا.

المرحلة الأولي وهى مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية لا توجد فيها أية إسهامات فكرية يمكن العودة إليها لتبين مجمل أفكار فانون فيها وهي فيما يدل عليه عنوانها فترة تعرف – يجري فيها متابعة الأحداث ومراقبتها– وهي أقرب الى أن تكون فترة تكوين، كان فانون يقوم خلالها ببعض التحقيقات الميدانية في بعض جهات الجزائر، ومن خلال خبرة تعامله مع المرضي الجزائريين وما تبين له من الأثر السلبي الذي يحدثه القهر الاستعماري والعنف الممارس ضد الأفراد على شخصيتهم فمن مجموع هذه الخبرة المتحصلة وصل فانون إلى لحظة الحسم إلي القناعة التي أوصلته إلي تقديم خطاب استقالته والسابق الإشارة إليه وبما يحمله من مضامين منهيا بذلك تلك المرحلة الانتقالية في حياته ومتقدما إلي خطوة أبعد بانضمامه إلي جبهة التحرر الوطني مشاركا نشطا في فعاليتها ليدخل بذلك في مرحلة الاندماج في الثورة، وينحو دافيد كوت نفس المنحني حين يذكر: أما بالنسبة لفانون فقد كانت الفترة الحاسمة التي أعاد فيها قولبة أفكاره هي تلك الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦[1].

المرحلة الثانية و بدايتها اندماج فانون في الثورة الجزائرية وتوليه أدوارا متعددة ابتداء من مشاركته في تحرير صحف الثورة والكتابة فيها ،مرورا بتوليه مهمات نضالية سواء بتدريب الكادر أو العمل على بناء جبهة الجنوب مع الحدود المالية أو دوره السياسي والدبلوماسي حسب ما تم تفصيله في المبحث السابق، هذا الاندماج أتاح لفانون مجالا أوسع للحركة وأفقا أرحب للمشاركة يتعدى في مرحلته الأخيرة أفق المحلية وذلك بما هيأته له الثورة من اتصال بأفريقيا في نهاية عام ١٩٥٨ وبتعرفه إلى قادة وممثلي حركات التحرر الأفارقة وإطلاعه على تجارب هذه البلاد والاحتكاك المباشر بواقعها.

أدت هذه التجربة إلي تطور كبير في فكر فرانز فانون منذ ظهور كتابه الأول وحتى صدور كتابه الأخير معذبو الأرض في عام ١٩٦١، "وإذا كانت الفترة الأولي؛

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.34

لانتقاله في صفوف الثورة قد مكنته من اكتشافات هامة مثل اكتشافه لدور الثقافة الوطنية ودور التاريخ وأهمية الماضي في صنع صموذ الشعب ضد محاولات المسخ والتشويه، فقد مكنه اتصاله بالخارج عبر الثورة من اكتشاف جوانب جديدة سرعان ما ظهرت آثارها في كتاباته الأخيرة"[١].

وعبر كل مرحلة من المراحل صاغ فانون خبرته وسجلها في أحد كتبه فظهر كتاب " خمس سنوات على الثورة الجزائرية والذي صدر أحيانا تحت عنوان "سوسيولوجية ثورة" ونشر في عام ١٩٥٩ بمناسبة خمسة سنوات على الثورة،وفي هذا الكتاب يشرح فانون ويرصد أغلب جوانب الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع الجزائري قبل وبعد اندلاع الثورة وكيف أن" الكفاح المسلح يولد حركة تحرر وتقدم سريعة في التركيب الاجتماعي والذهني للجزائريين"[٢]،و يبين كذلك حجم التغيرات التي إحداث التغير الاجتماعي.

والمرحلة الثالثة والأخيرة من حياة فانون وهي كما وقد سبق الإشارة امتداد لمرحلة سابقة وتميزها الأساسي أن فانون خرج في إطارها من مجرد العمل في نطاق جزائري محلي إلي التفاعل والتعامل مع العالم الخارجي بما أسندته إليه الثورة من مهام تمثيلها في الخارج وتعينه سفيرا لها في في أكرا ويأتي ذلك التطور متسقا مع كون أن الثورة الجزائرية" تشتمل على أبعاد عالمية مؤكدة : من الطابع العربي الإسلامي إلي البعد الأفريقي، إلي التفاعل مع العالم الثالث وظهور هذه الأبعاد بوضوح في كتابات الثورة الجزائرية"[٣]. وبالتالي فأنها كانت" أبعد ما تكون عن المحلية الضيقة ... باختصار كانت الثورة الجزائرية تشتمل على بذور مؤكدة لنوع من "الأممية"، عملي على مستوي المضطهدين في العالم[٤].

وفي هذه المرحلة صدر لفانون كتاب(معذبو الأرض) الذي جاء في فترة مناسبة وضمنه خبرته التي حصلها في ظل الثورة وينعكس فيه الكثير من تأثير الثورة الجزائرية في تطور فكره متفاعلا مع الثورة وملابساتها ، في هذا الكتاب طرح فانون

---

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص١٦٥.

(2) David Caute, **Op.cit.**, P.51.

(٣) محمد الميلي، م س ذ ، ص ١٨٩

(٤) المرجع السابق، ص١٦٦.

ودرس كثيرا من قضايا الاستعمار وحركة التحرر والتي كانت مدار البحث في هذه الدراسة في فصولها السابقة فطرح قضايا تعميق الثورة. وكشف عن النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث.

وعمم خبرته وتجربته المستقاة من واقع الثورة الجزائرية على بلدان العالم الثالث، وأظهر الحاجة إلى تضامن شعوب العالم الثالث الرازحة تحت الاستعمار وأسماهم بحق معذبو الأرض.



المبحث الثاني

الجزائر والثورة

انطلقت الثورة الجزائرية المسلحة مع أول نوفمبر ١٩٥٤ في وسط أجواء كان يبدو فيها استحالة قيامها ،ذلك أن الاستعمار الفرنسي وبنهاية الحرب العالمية الأولى كان قد استطاع القضاء على المقاومة المسلحة التي واجهها منذ الغزو في عام ١٨٣٠ والتي استمرت وإن بشكل متقطع لمدة ثمانون عاما،وبدا الجهاز الاستعماري متمكنا إلى الحد الذي أصبحت فيه المقاومة المسلحة عملا انتحاريا .

ومع انسداد أفق العمل المسلح والاتجاه إلى العمل من خلال الأشكال السياسية ،لم يعد أمام الشعب إلا ملجأ وحيد هو التمسك بشخصيته وثقافته الوطنية والانغلاق عليها فدخل المجتمع الجزائري (شأن كل المجتمعات المستعمرة)في حالة من الركود أصاب كل مناحي الحياة ،ويصف فانون هذه الحالة قائلا"فليست الأرض هي المحتلة ،ولا المطارات والموانئ ..فإن النظام الاستعماري الفرنسي قد استقر في صميم الفرد الجزائري نفسه ،وشرع فيه بعمل مدعم لإخراجه من ذاته ،وللاجتثاث العقلي فليس هناك احتلال للأرض واستقلال للأشخاص ،إن البلاد كلها وبتاريخها ونبضها اليومي ،هي التي ينكر وجودها وهاهي التي تشوه على أمل الوصول إلى محقها نهائيا وفي ظل هذه الشروط فإن تنفس الفرد يكون تنفسا مراقبا، ومحتلا "[1] .

وبقيام ثورة نوفمبر ١٩٥٤ تبدل الوضع تماما وحدثت على أرض الواقع تغيرات هائلة مست كلا من الأفراد والمجتمع والقيم السائدة، وللوقوف على مدى التغير الذي أحدثته الثورة يلزم أن نقف على بعض ملامح مجتمع ما قبل الثورة، فهو مجتمع.

(١) فانون، سوسيولوجيا الثورة، م س ذ، ص٥٩.

يمارس العنف ضد أفراده ويستنفذه في خصومات يقتتل فيها الأخوة على نحو ما سبق توضيحه

مجتمع يسلك أفراده سلوكا هروبيا، يبدو ذلك واضحا في صراعات القبائل ومعارك الثأر فيما بينها "حين يخوض المستعمر معارك الثار بكل قوة إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له ..هذا نوع من السلوك الهروبي فذلك يعميه عن رؤية العدو الحقيقي"[(١)].

مجتمع تنتشر فيه الجريمة ذلك أن الأهالي في ظل الوضع الاستعماري " يكونون منحصرين فيما بينهم،فكل واحد منهم يجنح إلى اتخاذ الآخر ستارا له، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته"[(٢)].

مجتمع يقف موقفا سلبيا من التقدم العلمي والتقنيات الحديثة لارتباطها بالمستعمر فيشير فانون إلى رفض الجزائريين لاقتناء أجهزة الراديو ،باعتبار أن راديو الجزائر قبل الثورة كان يمثل في نظر الشعب صوت الثقافة الاستعمارية ومن ثم لم يكن القليلون من الجزائريين يقدمون على ابتياع أجهزة الراديو،وكذلك الموقف من الطب الحديث حيث كان الجزائريون لا يثقون في الطبيب الأجنبي الذي كان يمثل سلطة الاستعمار وينظرون إليه على أنه جزء لا يتجزأ من النظام الاستعماري .

ومع بدء الكفاح المسلح وتوجه العنف في مجراه الصحيح إلى العدو الحقيقي، اختفت كافة المظاهر السلبية من اقتتال الأخوة و القبائل ليحل محلها تكاتف وتضامن وانتهت الصراعات القبلية كما لوحظ اختفاء جرائم الحق العام منذ عام١٩٥٤" فكأن النضال القومي قد وجه الغضب كله، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الانفعالية قومية"[(٣)] وبنفس القدر فقد تغير الموقف من التقدم العلمي والتقنيات الحديثة، وذلك ما سيتم تناوله في هذا المبحث على النحو التالي :

أولا: الثورة والمرأة.

ثانيا: الثورة والأسرة .

ثالثا: الثورة والمجتمع.



(١) فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٩.
(٣) نفسه.

أولا : الثورة والمرأة

للمرأة بشكل عام وباعتبارها نصف المجتمع وعلى أي وضع كانت ، دور كبير في أي مجتمع ،وفي الجزائر بوضع خاص لعبت المرأة دورا أساسيا في الحفاظ على الشخصية الوطنية في مواجهة محاولات فرنسة المجتمع الجزائري فكانت هي الملاذ الذي لجأت إليه الشخصية الوطنية في شبه عفوية ورد تلقائي[١] .

وفي هذا السياق نتطرق إلى دراسة الأساليب التي لجأ إليها الفرنسيون في تعاملهم مع قضية المرأة ودور الثورة الجزائرية في التغير الذي طرأ على المرأة الجزائرية وعلى تغير القيم التي حكمت تعامل الأسرة والمجتمع معه.

١- الاستعماريون الفرنسيون والمرأة الجزائرية :

يرى فانون "أن مسألة المرأة الجزائرية كانت من الأمور غير المفهومة في دنيا الاستعمار فقد حفلت دراسات علماء الاجتماع بدراسات حول المرأة الجزائرية التي توصف تارة بأنها عبدة للرجل وتارة أخرى بأنها سيدة البيت بلا منازع"[٢] ، وأدرك الفرنسيون أن المرأة الجزائرية هي محور المجتمع الجزائري وأن لها " ولاية أساسية أكثر أهمية تقف خلف ولاية الأب المرئية الظاهرية"[٣] ، واستخلصوا من ذلك أن كسب المرأة إلى جانب القيم الأجنبية وانتزاعها من نظام حياتها الخاص يحقق الحصول في نفس الوقت على سلطة حقيقية على الرجل، ومن ذلك الفهم صاغت الإدارة الاستعمارية نظرية سياسية مفادها"إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم أجزائه وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء"[٤] وفق صيغة" لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر الشعب سوف يتبع"[٥] ، ويحلل فانون الميكانزم الاستعماري المتمثل في السعي لتمزيق المجتمع الجزائري وذلك باتخاذه وضع المرأة موضوعا للعمل في أكثر من اتجاه،فعلى مستوى المرأة تنبري الإدارة

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص١٤٤.
(٢) فانون، خمس سنوات على الثورة الجزائرية، م س ذ، ص٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص٢٨.
(٤) نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٢٧.

الاستعمارية بالدفاع عن حقوق المرأة المهانة والمهملة وتتكاثر جمعيات التضامن مع النساء الجزائريات مستخدمة المساعدات الاجتماعية في تطبيق خطة متكاملة لتسريب الأفكار" وأن ما يشرع به منذ البداية هو حصار النساء المعسرات، حيث يبذر مع كل كيلو من الدقيق يجرى توزيعه مقدار من السخط على الحجاب وعلى نظام الحرب ...ويوصف لهن الدور المترتب عليهن القيام به، وترصد الإدارة الاستعمارية مبالغ ضخمة لهذه المعركة"[1].

وفيما يخص الرجال الجزائريون فإن الإدارة الاستعمارية تحاول أن تحيطهم بإسار من الذنب ،فتوصف إمكانيات المرأة التي أهدرها الرجل وحولها إلى شيء عديم القيمة وغير إنساني ويصبحون من ثم موضع انتقاد زملائهم الأوروبيين.

وفي سياق محاولة تحطيم أصالة الشعب، أولى المسؤولون عن الإدارة الفرنسية اهتماما كبيرا بالحجاب لإدراكهم أن الحجاب أضحى رمزا للمرأة الجزائرية وتمسكها بالتقاليد في مواجهة عمليات التغريب والفرنسة، وبهذا المعنى أصبح الحجاب مدار معركة ضخمة تعبئ لها قوى الاحتلال كل إمكانياتها،وبدأت هذه المعركة منذ سنوات ١٩٣٠ -١٩٣٥ وجند فيها كل الخبراء مستندين إلى تحليلات علماء الاجتماع ،وكان نجاح هذه الجهود يعنى بأن المجتمع الجزائري أصبح" مجتمعا مفتوحا تأذن نظمه الدفاعية بالتفسخ ويكشف على نحو سلبي بأن الجزائر بدأت في التنكر لنفسها"[2] ، ويروى فانون في كتابه (خمس سنوات على الثورة الجزائرية) واقعة لها دلالتها،أثناء استقبال ديجول في الجزائر عام ١٩٥٨ ،حيث طلبت السلطات الفرنسية من ابنة أحد الموظفين في إدارتها أن ترتدي الحجاب وتقف في صفوف المشاهدين الجزائريين حتى إذا اصدر ديجول أمرا بالتخلص من الحجاب تبادر فورا يرمى حجابها فيما يفهم منه أنه استجابة لطلب الزعيم الفرنسي.

ويرصد فانون رد الفعل التلقائي لهذا الحدث الذي أدى بعدد كبير من الفتيات السافرات إلى العودة للحجاب حتى لا يتصور الناس أن سفورهن جاء استجابة للطلب الفرنسي.

ويخلص فانون من هذه الواقعة إلى أنه في مواجهة الإستراتيجية الاستعمارية

(١) المرجع السابق، ص٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤.

لتفتيت المجتمع الجزائري وتصميمه على نزع الحجاب عن المرأة الجزائرية ،فإن ذلك يدعو المستعمر إلى تحديد موقف معاكس و بذلك اكتسب الحجاب أهمية متزايدة لم تكن موجودة من قبل،واستخلص ما اعتبره فانون علم النفس الخاصة بالاستعمار وهو :" أن الفعل ومشاريع المحتل هي التي تحدد في المراحل الأولى مراكز المقاومة التي تنتظم حولها إرادة البقاء في شعب ما"[1]،ويكون من الطبيعي في هذه الحالة أن يقارن موقف الجزائرية من الحجاب بموقفها الكلي من الاحتلال، ويتخذ الصمود أمام المحتل معنى إلحاق الفشل والهزيمة به ، وبهذا المعنى يكتسب الحجاب صفة التابو ويصير من المحرمات التي لا يجوز المساس بها، وذلك هو ما سيلحقه التغيير مع اندلاع الثورة.

٢- الثورة والمرأة الجزائرية:

بعد قيام الثورة الجزائرية ومع اتساع نطاق العمليات ولضرورات نضالية اتخذت قيادة الثورة قراراً بإشراك المرأة في نشاطات جبهة التحرير الوطني وأسندت لها مهام نضالية متنوعة،مما استدعى سفورها حتى لا تثير الريبة بحجابها، وفي مرحلة لاحقة بعد انتباه المستعمر الفرنسي لدور النساء في الثورة وأصبح حذرا من السافرات وأصبحن محل توقيف وشبهه، عادت الجزائرية المناضلة لارتداء الحجاب مرة أخرى مخفية السلاح تحته، وبهذا المعنى فقد الحجاب صفته القديمة كتاب و لا يمس به، واكتسب معنى عمليا باعتباره أداة مقاومة، فقد كان في البداية آلية في عملية المقاومة حينما كان المحتل ينظر إليه كرمز للتمسك بالثوابت الوطنية وسعى إلى نزعه وفي مواجهة ذلك كان الإصرار على التمسك به، وفي غمار الثورة وحيثما وجدت ضرورة للسفور كان ذلك يتم، وحينما رؤى لضرورات العمل العودة إليه تمت عملية الرجوع ،فهو حجاب يخلع ثم يعاد ،حجاب يستخدم كآلة، يحول إلى فن للتمويه ووسيلة للكفاح، وهكذا اختفت الصفة التي كانت عالقة به في ظل الوضع الاستعماري، اختفاءً يكاد يكون تاما أثناء كفاح التحرير.

مما يدفع إلى القول بأن الثورة كان لها الدور الأكبر في هذا التطور،إلا أن تأثير

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

الثورة في المرأة الجزائرية لم يقتصر على هذا المجال وحسب وإنما كان أبعد مدى،فأصبحت النساء الجزائريات اللاتي كن حتى وقت قريب يلزمن بيوتهن، وجدن أنفسهن أمام دور اجتماعي يؤدينه؛ لأن الزوج الذي يكون منخرطا في الكفاح غالبا ما يتعرض للاعتقال ،فتكون النساء حينئذ هن المكلفات بالتماس وسائل العيش لضمان استمرار الحياة لأبنائهن وكذلك فإن الجزائرية التي لم تغامر بالسير في المدينة الأوروبية من قبل، ويصبح من مهامها الانتقال من مكان إلى آخر ،يكون عليها وهي تواجه عالم المحتل أن تقهر جملة وافرة من الأمور والمخاوف الداخلية،وللتدليل على حجم الثقة بالنفس التي اكتسبتها الجزائرية وعلى تحررها النفسي يقول فانون: " إن هذه الفتاة الصغيرة التي نزعت الحجاب بالأمس والتي تتقدم في المدينة الأوروبية التي يخترقها رجال الشرطة والمظليون والجنود، إنها لم تعد تمشي في ظل الحيطان كما كان ينزع بها الميل لمثل ذلك قبل الثورة"[١] ،وفضلا عن ذلك فإن المرأة الجزائرية والتي أصبحت موضع شبهة بصرف النظر عن كونها محجبة أم لا وأصبحت معرضة أيضا للتعذيب، المرأة التي تنقل القنابل اليدوية عبر طرقات الجزائر، والتي تحتل مكانا بارزا في العمل الثوري و تطور شخصيتها وتعمل على نسف العالم الضيق الذي كانت تعيش فيه فتمضي جنبا إلى جنب مع الرجل متعاونة في تحطيم النظام الاستعماري وفي ميلاد امرأة جديدة ..وبالتدريج تختفي المرأة من أجل الزواج وتحل محلها المرأة من أجل العمل"[٢] ،ويشير فانون إلى سلوكا مغايرا يتمثل في تلك المرأة التي تنتقد زوجها إذا استشعرت عدم مشاركته في المعركة، هذا اللوم الذي يعتبر مخالفا للمألوف أصبح سلوكاً متقبلاً،ذلك أن المجتمع الجزائري وهو في معركة التحرير،يجدد نفسه ويعمل على إيجاد قيم لم تكن معروفة من قبل، مبنية على علاقات جديدة بين الجنسين "فقد كفت المرأة عن أن تكون متممة للرجل وبمعنى أدق فإنها انتزعت مكانها بقوة ساعدها"[٣] .

والمرأة الجزائرية التي أدت أدوارا متعددة في الثورة ولعبت دورا رئيسيا في الكفاح التحرري، تظهر إلى أي مدى لعبت الثورة دورها في التجديد الداخلي للمرأة وكيف رفعت مكانتها إلى مستوى غير مسبوق و ربما يجرى التطلع إليه في وقتنا الراهن.

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٩.

ثانيا: الثورة والأسرة:

رأينا كيف كان للثورة الجزائرية دور في تبدل المرأة، ومن الطبيعي أن هذا التحول لم يكن ليتم بدون أن يشمل أكثر من منحى من الحياة الجزائرية، ذلك أن الثورة قامت بطرح جميع القضايا المتعلقة بالمجتمع وبذلت جهدا في اتجاه خلق مجتمع جزائري جديد يقوم على إعادة فرز وتقييم مجموعة القيم السائدة وخلق نظاما قيميًا جديدًا، يتحدد على أساسه موقف الإنسان الجزائري وخياراته وموقعه،ومع إعادة الفرز هذه تعرضت الأسرة الجزائرية لعدد من التغيرات والتحولات فلم تعد تلك الأسرة تشكل كتلة واحدة يتمتع فيها الأب بسلطة مطلقة،و أصبحت" المواقف المسلكية المألوفة التي كانت متينة البنيان وينظر إليها كحقائق ثابتة لا تتبدل ،تتكشف فجأة عن أنها عقيمة فتهجر"[1] ،وأصبح أعضاء الأسرة يجدون أنفسهم أمام اختيارات وانتقاءات جديدة وسحب ذلك نفسه على العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة فتبدلت العلاقات فيما بين الأب والابن والابنة وبين الإخوة (الأخ الأكبر والأصغر) وكذلك مابين الزوج والزوجة وعلاقات الزواج والطلاق بما يعني أن هناك تغييرًا شاملًا مس جوهر المفاهيم والأفكار، وهو ما تحاول الدراسة توضيحه على النحو التالي:

١- علاقة الأب والابن :

حين يقرر الابن أن ينضم إلى حركة الكفاح المسلح،يكون ذلك بداية التغير في علاقته بالأب ؛ لأن القضايا التي تطرح على الابن حينئذ هي قضايا جوهرية تمس الوطن والثورة وتتعدى النطاق الأسرى المحدود، هذا الوضع يدفع بالابن إلى أن يتخلص من كل ما من شأنه أن يعيق الوضع الثوري، ويبدأ الابن في النمو ويستقل ذاتيا بعيداً عن أية وصاية ومن شأن ذلك الوضع أن ينهى التعلق الطفولي القديم بالأب،ويبدو ذلك واضحا في مسلك الابن إزاء النصائح التي تقدم له بالتزام الحذر والهدوء ففي مواجهة هذه النصائح يتجنب الابن المناقشة ولكن حين يطالب بترك الكفاح والعودة إلى كنف الأسرة فإنه يدافع عن موقفه وعن شرعية مسلكه الذي يتبناه، هو لا يصطدم بالأب ولكنه يسعى إلى اكتسابه إلى جانب أفكاره،و هذا هو

(١) المرجع السابق، ص٩٨.

غالبا ما يحدث مع تطور الثورة، فإن الأب ينضم إلى الابن وعندئذ يكون الأب قد قطع مسافة الألف ميل ودفن قيمه القديمة وأسلس القياد لابنه "إن الأب هنا يمحى أمام العالم الجديد، والفتى الجزائري هو الذي يدفع بالأسرة كلها في الحركة الواسعة للتحرر الوطني"(١).

ويشير فانون في كتابه إلى نص أورده جاك لانزمان في مؤلفه يحيا كاسترو وفيه يتحدث عن نفس الظاهرة في المجتمع الكوبي خلال ثورة كاسترو قائلا: "إن واجب الأب في زماننا –في جميع الأزمنة– أن يعلم ابنه وأن ينقل إليه تجربته .وكانت هذه التجربة هي الوشيجة التي تشد أعضاء الأسرة الواحدة بعضهم إلى بعض ....فلم يكن الابن والأب حتى ذلك الوقت إلا رجلا واحدا، إلى أن جاء ذات يوم رجل لاجئ إلى الجبل فانتزع منا أبناءنا،مع أنه هو نفسه صغير السن جدا.هذا الرجل هو نوع من يسوع المسيح .. فما هو وزن أب إذا ما وضع في مقابل يسوع ؟ لا شيء يا سيدي. وقد تساءلنا عندئذ نحن الآباء لماذا غادرنا أبنائنا وبحثنا في رأسنا عن سبب مثل هذا الانفصال،..إن تجربتنا الموروثة تقريبا جيل بعد جيل كانت خاطئة ،فلم تكن تجربتنا تساوي شيئا،فهي لم تكن سوى نسق من الحياة كان ينتقل منذ أجيال على هذا النحو ،من الأب إلى الابن بدون كبير تأمل فيه، وقد كفي لذلك رجل واحد، رجل لم يكن لديه ما يقدمه إلا المثل الأعلى والطهارة ، فكان ذلك أفضل من تجربتنا ومن مالنا ومن مراكزنا"(٢) ،هذا النص نقل بالكامل؛ لأنه يجسد بشكل واضح كيف تؤثر الثورة في جيل الأبناء بما تقدمه لهم من مثل وقيم جديدة .

ولا يتوقف التغيير عند حدود العلاقة بين الابن والأب ولكنه يتعداها إلى العلاقة مع الابنة.

٢- علاقة الأب مع الابنة :

وهذه العلاقة هي الأكثر تعقيدا خاصة في المجتمعات الزراعية فالبنت تقف مسافة إلى الوراء من الصبي حيث يتمتع الذكر بمركز سيادي، والفتاة لا تملك في هذه

(١) المرجع السابق، ص١٠٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٢.

المجتمعات أي فرصة لتنمية ذاتها وقدراتها وليس أمامها إمكانية المبادرة،فهي في وضع القاصر الموصى عليه دائما وهى خجولة من نفسها ومن كونها امرأة أمام ذويها وتتجنب المناقشة مع الرجال أو الظهور أمام الأب في نطاق الأسرة، وتعيش في عالم جامد من التقاليد والقيود التي تشكل سياجا حولها،هذه الفتاة حينما تدخل معترك حرب التحرير، ستتغير جميع المعادلات والقيم التي كانت تحكم علاقتها بالأب والأسرة، فهي وفي إطار نشاطها الثوري "قد تضطر إلى الاختفاء والهرب وتذهب إلى حيث لا يعلم أحد ولا يجسر الأهل على المعارضة... لأنه بالنظر إلى المأساة التي يعيشها الشعب يصبح الخوف القديم من العار، خوفا أحمق... فلم يعد مسموحا وضع أخلاقية فتاة وطنية موضع الشك"[1]،ويتقبل الأهل فكرة أن تصعد الفتاة إلى الجبل بمفردها مع رجال آخرين دون أن تصلهم أخبارها،وحين تنزل الفتاة من الجبل في أجازة فهي تحمل شخصية جديدة، تجلس قبالة الأب تنظر إليه نظرة مستقيمة وتتحدث إليه، والأب فرح بلقاء ابنته ولا يرى في نفسه حاجة للاستفسار منها عن سلوكها في مراكز المقاومة ذلك أن الأب يقدر الخطوات التي خطاها المجتمع وتفقد هذه الأسئلة معناها وتكون غير ذات قيمة و ويلاحظ أن موقف الأب من ابنته ينسحب على موقفه من الأخريات فيتبدل موقفه منهن بطريقة جذرية، وهكذا فإن البنت في إطار العمل الثوري "تدعو أباها إلى نوع من التحول ومن الاقتلاع للذات ويغدو سؤال امرأة عما إذا كانت (جدية) وهى تواجه خطر الموت يوميا، سخرية وهزءا لاذعا، فالفتاة المناضلة تتبنى مواقف مسلكية جديدة وتختفي القيم والمخاوف المجدبة التي تبقى على الإنسان في هالة الطفولة"[2].

ويذهب التغيير مداه فيطال علاقة الإخوة ببعضهم البعض فلم يعد الأخ الأكبر هو خليفة الأب كما كان من قبل ، وما كان لا يؤتى في حضرة الأخ الأكبر أخذ في التبدل هو الآخر،فأصبح الأخوة يناضلون في موقع واحد ويقاتلون معا يواجهون نفس المخاطر وينخرطون في عمل واحد فتتبدل العلاقات القديمة التي كانت تجرى في الدائرة المغلقة للأسرة وينشأ بينهم نموذج جديد للعلاقات ومختلف عما ألفوه من قبل،وكما تتبدل العلاقة مابين الأخوة،فإن طبيعة المعركة الدائرة والكفاح تبدل العلاقات بين الزوجين.

(١) المرجع السابق، ص١٠٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٩.

٣- العلاقة بين الزوجين:

أصبحت الفتاة الشابة التي لم يكن من حقها أن تختار زوجها بنفسها وكانت ترى في الزواج" خلاصا من وضعها الغير طبيعي في منزل الأسرة بوصولها إلى مرحلة البلوغ وسن الزواج "[١]،هؤلاء الفتيات هن نفسهن اللائي أصبحن في خضم المعركة "يقسمن الأيمان فيما بينهن على عدم الزواج بمن لا ينتسب إلى جبهة التحرير الوطني"[٢].

وفي العلاقة بين الزوجين فإن طبيعة الكفاح والمعركة التي يخوضونها معا فرضت نمطًا جديدًا من السلوكيات،فلم يعد على سبيل المثال لكل فرد وظيفته المحددة في المنزل فلم تعد العلاقة بينهما هي نفس العلاقات القديمة،فالزوجة المناضلة" والتي كانت تغيب عن منزلها وتعود بعد أربعة ساعات أو أربعة أيام، لم تكن تقدم لزوجها أي تفسير وكان الزوج بدوره يقدر ما تقوم به ؛ لأنه هو الذي جندها وهو الذي لقنها قواعد السرية، هذه التجربة النضالية جعلت الزوجين الجزائريين أكثر التصاقا وعلاقتهما أكثر متانة ذلك أنهما لم يعودا منغلقين على ذاتيهما بل انتزعا من نفسيهما نقاط الضعف التقليدية، فالاختلاط مابين التجربة المقاتلة والحياة الزوجية يعمق العلاقات بين الأزواج ويوثق الروابط فيما بينهما ،فثمة تفتح يحدث للزوج المواطن والوطن في وقت واحد"[٣].

من الاستعراض السابق للتبدل في العلاقات داخل الأسرة يكون واضحاً أن تغيراً بهذا الحجم لم يكن وارداً أن يحدث في أي مجتمع في سياق تطور طبيعي ولكنه يحتاج لكي يتم على هذا النحو إلى قوة دفع كبيرة لا توفره له إلا أجواء معركة كبيرة هي معركة التحرر،و التي لا تقتصر على الخلاص من المستعمر فقط ولكنها توفر في سياقها تحرر الإنسان الفرد من كثير من قيم الجمود وتنزع به نحو التحرر الإنساني الشامل وعلى كافة الأصعدة.



(١) المرجع السابق، ص١٠٥.
(٢) المرجع السابق، ص١١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ص ١١٢-١١٣.

ثالثا : الثورة والمجتمع :

فرضت السيطرة الاستعمارية على المستعمر إلى أن يقف موقف الرفض لكل ما يأتي به الاستعمار، وإلى أن ينأى بنفسه عن هذا العالم ويظل بمعزل عنه،ويتم موقف الرفض هذا دون ما تمييز أو تفريق بين ما يمكن أن يكون إيجابيا أو سلبيا،ذلك أن المستعمر لأسباب متعددة قد يضطر إلى إدخال بعض أساليب التطوير أو التحديث،والمستعمر إدراكاً منه لحقيقة أن أي عمل إيجابي يقوم به المحتل إنما يهدف إلى تيسير وإطالة أمد احتلاله وبالتالي فإن التقدير لأي عمل إيجابي يقوم به المستعمر سيتم توظيفه في إعطاء مشروعية للوجود الاستعماري برمته،وهذا الموقف رغم أنه صحيح تماما إلا أن له جانباً سلبياً يتمثل في أن عملية الربط بين الاستعمار وبين أي محاولة لإدخال التقنيات الحديثة والتي يمكن أن تفيد منها البلاد يؤدى إلى تكريس حالة من التخلف تستمر طوال فترة الخضوع والاستسلام ،هذه الحالة هي نفسها التي نجدها تتبدل وتتغير بقيام الثورة وتتطور مع تطور كفاح التحرير ويصير المواطن منفتحا على التجدد وينزع إلى التعامل مع ما كان يرفضه سابقا ويتخذ منه موقفا سلبيا متشككاً،يبدو ذلك واضحاً في مسألتين خصهما فانون بالدراسة وهما التعامل مع التقنيات الحديثة(في زمانها)وأخذ على ذلك مثلا بالتعامل مع أجهزة الراديو والمسألة الأخرى هي الموقف من الطب الحديث وكيفية التعامل معه.

في دراستها عن الاستعمار والاغتراب ترى R Zaharأن فانون يفسر ميل المستعمَرين إلى رفض التكنولوجيا الوافدة كنوع من عدم الثقة في هذه الأدوات التي من شأنها أن تزيد في استغلالهم وفي نفس الوقت كتعبير صامت وغير منظم للمقاومة السياسية ضد المستعمِرين[١] .

١- أجهزة الراديو:

قبل الثورة لم يكن الجزائريون يهتمون بحيازة أجهزة الراديو ولم يكن مرد ذلك إلى عدم القدرة الاقتصادية"؛ لأن كثيراً من الأسر الجزائرية التي كان مستوى حياتها يجعل حيازتها لأجهزة الراديو ممكنة إلا أنها لم تفعل ذلك"[٢] .

(1) R Zahar, **op,cit,**. p.36.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤ .

ويفسر فانون ذلك بأن راديو الجزائر هو عبارة عن محطة إذاعة فرنسية مقامة في الجزائر منذ مئات السنين وأن الشعب الجزائري كان ينظر إليها باعتبارها صدى لمحطات البث الفرنسية المقامة في باريس ويعبر عن المجتمع الاستعماري وقيمه ،ولقد عرف الجزائريون راديو الجزائر بأنه" فرنسيون يتحدثون إلى فرنسيين"(١) و بالتالي فإنها لا تلبي أي حاجة حيوية للمواطن الأصلي، وصار الجزائري يتعامل مع هذه المحطة على أنها عالم المستعمر الناطق وأنها تعمل على غرس ثقافة رجل الاحتلال كما أنها رمز للوجود الفرنسي وبذلك فإن جهاز الراديو كجهاز مادي يكون داخل في الشكل الاستعماري، وإزاء هذا الموقف السلبي فقد عملت الإدارة الاستعمارية على ترويج هذه الأجهزة دون جدوى.

وبقيام الثورة وكفاح التحرير أصبح الجزائري يشعر باحتياجه لمتابعة تطور المجابهة خطوة بخطوة، وأصبح الحصول على جهاز للراديو هو" الوسيلة الوحيدة لحيازة مصدر غير فرنسي للأخبار عن الثورة،وتتخذ هذه الضرورة صفة الأمر الملح عندما يعلم الشعب أن هناك جزائريين يقدمون كل يوم من القاهرة سجلا بكفاح التحرير"(٢) ،وحدث التحول الحقيقي في آخر عام ١٩٥٦ إذ وزعت منشورات تنبئ بوجود صوت الجزائر الحرة حددت فيها ساعات الإرسال فقام الجزائريون بشراء هذه الأجهزة لدرجة نفاذها من الأسواق خلال عشرين يوما، وما كان ينظر إليه على أنه قبول بتكنيك حديث للإعلام الاستعماري فقد صفته السلبية وأصبح ينظر إليه على أنه الوسيلة الوحيدة لمباشرة الاتصال بالثورة ومعايشتها،فلم يعد الراديو جزء من ترسانة الضغط الثقافي الذي يمارسه رجل الاحتلال ، بل أنه أصبح وسيلة للمقاومة؛ لأن الجزائري أصبح يملك إمكانية الاستماع إلى صوت" يشرح له المعركة ويعمل على اندماجه في تنفس الأمة الجديد"(٣)،ذلك أن الاستماع إلى صوت الجزائر المقاتلة هو إتحاد بجسم الأمة التي تكافح .

الغريب أن السلطات الفرنسية التي كانت تعيب على الجزائريين عدم حيازتهم لأجهزة الراديو وعملت بكل الوسائل على ترويج مبيعات هذه الأجهزة في السابق،هي نفسها مع الظروف المتغيرة وبعد أن أدركت أهمية هذا الجهاز والذي

(١) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص٨٢.

أصبح يستخدم لمتابعة إنجازات الثورة وكوسيلة من وسائل الإعلام بالثورة، صارت تأخذ موقفا مغايراً فأصبح بيع هذه الأجهزة ممنوعاً إلا بعد الحصول على موافقة بذلك من الجهات العسكرية والأمنية الفرنسية.

هذا المثال الذي استخدمه فانون يعبر أصدق تعبير عن طبيعة التبدل والتحول الذي تحدثه الثورة ومعارك التحرير في إمكانية تطور المجتمعات.

٢- الطب الحديث:

كما سبق القول، فإن المستعمَر ينظر بعين الشك إلى كل ما يأتي به المستعمِر، ذلك أن التناقض بين ما يمكن أن يكون عقلانية جزئية لبعض المؤسسات وتزامنه مع عدم العقلانية الكامل للنظام الاستعماري ككل يولد اضطراباً في نفس المستعمَرين ويجعل كل سلوكهم مضطربا تجاه كل مؤسسات النظام[1] ولأن العلم الطبي الحديث أدخل إلى الجزائر متزامناً مع الاستعمار، فقد أدى ذلك إلى إفساد العلاقة بين الطبيب والمريض،إذ أن النظرة إلى الطبيب أصبحت محكومة دوما بأنه يمثل قوة الاحتلال وأنه يمثل حلقة في النظام الاستعماري، وساعد في تكريس هذه النظرة، أن الزيارة التي كان يقوم بها الطبيب الأوروبي إلى القرية، كانت تسبقها مساعي سلطات البوليس لحشد الأهالي، فصار هناك ربطا عضويا بين الطبيب والشرطي،هذا الوضع الملتبس أدى بالمستعمر إلى أن ينظر إلى ما ينشر عن الإنجازات الصحية، على أنها تأكيد من رجل الاحتلال على إظهار إنجازاته، وبالتالي فأي اعتراف بهذه الإنجازات سيؤخذ على أنه دعوة لإدامة الاحتلال، ويترتب على ذلك موقف الرفض الذي يعبر عن نفسه في مقولة "لم يطلب منكم أحد شيئا،من ذا الذي دعاكم ؟ خذوا مستشفياتكم وتجهيزاتكم وعودوا إلى بلادكم "[2]،هذا الموقف السلبي يعززه سلوك الأطباء الأوروبيين الذين ينعمون بمستوى حياة مرتفع من ممارستهم؛ لأنشطة بعيدة عن مهنتهم الطبية، فغالبيتهم من أصحاب الأراضي الزراعية وبساتين البرتقال وأصحاب مطاحن وخوابي للخمر، و بالتالي فالطبيب الأوروبي لا يتحدد مركزه

(1) R Zahar, op,cit,. p.38.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٥.

الاجتماعي بممارسته للمهنة، كما أن كسبه لا يأتيه من زبائنه وإنما من موارد أخرى، ويعكس ذلك نفسه على أخلاقيات المهنة والممارسة الطبية التي تصيبها حالة من التردي.

ويسبب من مستوى الحياة المرتفع الذي يوفره الوضع الاستعماري فإن الأطباء الأوروبيين يهتمون ببقاء الاضطهاد الاستعماري وأصبحوا يشكلون في المستعمرات جزءا من الهيئة الاستعمارية ومن السيطرة ومن الاستغلال وتمادوا في تعاونهم مع السلطات الاستعمارية، باستخدام وسائلهم الطبية في إطالة أمد التعذيب للمواطنين الجزائريين الموقوفين في مراكز الشرطة حيث يقومون اثر كل جلسة تعذيب بإعادة المعذب إلى حالته الطبيعية فيجعلون من الممكن إجراء جلسات التعذيب مرة أخرى هذا إلى جانب كثير من المخالفات الأخرى، هذه الأمور كانت تجرى يوميا في الجزائر فحلت التصرفات السيئة محل الأخلاق الطبية واحترام الذات.

جملة هذه الممارسات السيئة دفعت المواطن إلى يقيم بينه وبين الأطباء الأوروبيين حاجزا وفرضت عليه مواقف الشك والريبة فيهم، حتى وصل الأمر إلى أن المواطن الجزائري كان يفسر الموت الطبيعي لأحد المرضى في المستشفيات، على أنه تصميم على القتل، فيتولد إحساس من الشك في إنسانية الطبيب المستعمر يؤدى بالجزائريين إلى الهروب من دخول المستشفى، وفيما يبدو فإن أزمة الثقة هذه تأخذ صفة العموم في كل المجتمعات المستعمرة، "فيشير الصحافي الأرجنتيني جيللى إلى أنه سأل مرة رجلا بوليفيا فقيرا من عمال المناجم عن السبب الذي منعه من إرسال ابنه إلى مركز الخدمة الصحية الأمريكي المجاور ليجرى تطعيمه فرد على الفور (من يدرى أي نوع من المطاعيم القذرة يحقننا بها هؤلاء الأمريكيون لكي يحولوا الشعب البوليفي إلى شعب يتصف بالبلاهة والغباء ليسهل استغلاله)" [(١)] ويخلص فانون إلى أن هذا الوضع المأساوي يعني في النهاية أن التلاقي مستحيل في ظل الوضع الاستعماري....فليس ممكنا أن يتوصل المجتمع المستعمَر والمستعمِر إلى أن يكونا على اتفاق لاحترام قيمة وحيدة في وقت واحد وفي مكان واحد[(٢)].

وفيما يتعلق بالطبيب الأهلي فالنظرة إليه لا تختلف كثيرا عن الطبيب الأوروبي،

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.89.

(٢) فانون، سوسيولوجيا الثورة، م س ذ، ص ص ١٢٨-١٢٩.

فأصبح الطبيب الأهلي في نظر الأهالي أوروبيا غربيا لا يشكل جزءا من المجتمع الخاضع للسيطرة، إنه في معسكر الخصم ولا يختلف عن الشرطي المنتمي للسكان الأصليين.

وبقيام الثورة نشأ واقع مختلف وأصبحنا أمام حقائق مختلفة،فأصبح الشعب يتخلى عن سلبيته القديمة والطبيب الجزائري الذي كان يعتبر سفير رجل الاحتلال، أصبح الآن مندمجا في الجماعة، وجُرِدّ التكنيك الطبي من صفاته الأجنبية، وتم فك الارتباط بينه وبين تلازمه مع الاستعمار، وأصبح الطبيب الأهلي هو طبيب"نا" نحن وخبير"نا" نحن وأدخلت حرب التحرير الخبرة الطبية والطبيب الأهلي في الحياة اليومية، وأصبح الأطباء يقيمون وسط قراهم فالثورة والطب يتواجدن معا وأصبح الشعب يريد أن يشفي وأن يعالج وبدأت الطرق التقليدية تنمحي فانهارت أعمال السحر، ونتيجة للعمل والممارسة الثوريين تزعزعت جميع الأمور الراسخة والمستقرة.

و اللافت للنظر في هذه الحالة أيضا أن موقف الاستعماريين قد تبدل هو الآخر بشكل عكسي فبعد أن كانت زيارة الطبيب الأوروبي تتم في ظل قوة الشرطة لتجميع الأهالي وبعد أن كان الاستعماريون يتباهون بما حققوه من إنجازات صحية وكان " العلم الطبي والاهتمام بالصحة يفرضان دائما على الشعب بواسطة القوة المحتلة"[1]، أصبح الاستعماريون يفرضون على أي طبيب يساعد جزائريا ويشتبه في جرحه أن يأخذ اسم المريض وعنوانه ومرافقيه ويسلم الملف الخاص بهم إلى السلطات، ومنع الصيادلة من تسليم بعض الأدوية المهمة والضرورية وفرضت رقابة أمنية على الصيدليات لضمان تنفيذ هذه التعليمات، والمفارقة هنا أيضا واضحة في "أنه في اللحظة التي يقرر فيها الشعب الجزائري التقدم للعلاج الطبي، يقدم النظام الاستعماري على منع بيع الأدوية إليه، وفي اللحظة التي يريد فيها الجزائري أن يحيا ويعتني بنفسه وصحته فإن القوة المحتلة تحكم عليه بأن يكابد الموت"[2]. والمعنى الذي يمكن استخلاصه من طبيعة التغيرات التي تحدث في موقف المواطن الأهلي وفي نظرته إلى جميع الأمور بما فيها الموقف من التقدم العلمي والتحول الإيجابي الذي يحدث في هذا الخصوص أثناء كفاح التحرير وفي غماره تعني شيئا أساسيا وهو أن "

(١) المرجع السابق، ص١٤٤

(٢) المرجع السابق، ص١٤٥.

الشعب الذي يتسلم زمام قدره بيديه يستسيغ بإيقاع يكاد أن يكون خارقا للعادة أحدث أشكال التكنيك"[1].

وإجمالًا فإن ما تم استعراضه في هذا المبحث يصل إلى تأكيد حقيقة أن الثورة التي يقوم بها الشعب للحصول على استقلاله وحريته يمتد تأثيرها إلى كل مناحي الحياة وعلى كل المستويات الفردية الشخصية أو الجماعية على مستوى الأسرة والمجتمع ككل، وأن الثورة تحمل معها روحا جديدة وقوة دفع تضع المجتمع كله على أعتاب مرحلة جديدة يتخلص فيها من سلبيات المرحلة الاستعمارية وجمودها.

(١) المرجع السابق، ص١٥١.

خاتمة

يمكن تصنيف هذا الكتاب بأنه من كتب الفكر السياسي،ومن المعروف أن الفكر السياسي في أحد جوانبه،يقوم على دراسة الإنتاج الفكري لأحد المفكرين، بغية التعرف إلى سمات المرحلة التي عاصرها وقضاياها وعلى الحلول المطروحة لحل مشكلاتها،وبهذا المعنى يهتم الكتاب بإلقاء الضوء على فرانز فانون، باعتباره مفكرا له إسهاماته الفكرية المتعددة المشتبكة مع قضايا العصر كما طرح رؤى استدعت جدلا واسعا بين أوساط المثقفين من كافة الاتجاهات مابين مؤيد ومعارض،ويدورها، وفي هذا الكتاب حاولت تتبع سيرة هذا المفكر الاستثنائي وكيف تفاعل مع عصره تأثرا وتأثيرًا من خلال دراسة ظروف النشأة والتكوين وتجاربه الشخصية،مستخلصة كيف أثرت هذه الظروف على أفكاره، ثم التطرق إلى قضايا العصر والتحديات الكبرى التي عاصرها، بتناول قضايا الاستعمار والتحرير الوطني و التفاوت الاقتصادي بين الدول المتقدمة ودول العالم الثالث، وذلك في إطار السياق الحضاري للعصر وتياراته السياسية والفكرية،ثم التطرق إلى دراسة إنتاجه الفكري بهدف التعرف إلى طبيعة المضامين الفكرية والسياسية التي طرحها في كتاباته وتفسيرها، والإجابة على تساؤل: إلى أي مدى استطاع فانون الاستجابة لقضايا عصره والتصدي لمشكلاته، و مدى صحة ما ذهب إليه في مواجهة العصر، وإلى أي مدى تلاءم هذه الأفكار واقعنا المعاصر.

وتوصلت الدراسة على مدى فصولها الثلاثة إلى الاستخلاصات التالية:

أولا: أن ظروف النشأة والتكوين والخبرات والتجارب التي عاشها كان لها أثرها الكبير على أفكاره وتوجهه المستقبلي،فكون مولده من أسرة تنتمي الى النخبة الميسورة الحال في جزر المارتنيك الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي الذي يتبع سياسة الاحتواء للمستعمرات الواقعة تحت سلطته، مكنه ذلك من استكمال تعليمه العالي في جامعات فرنسا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية،فدرس الطب النفسي في جامعة ليون، ومكنته دراسته للطب النفسي من التحليل العميق للظاهرة الاستعمارية ومكنه

التفسير النفسي لهذه الظاهرة من التوقف أمام التأثيرات التي يحدثها الخضوع للمستعمِرْ على نفسية المستَعمَرِين

والدور الذي يقوم به المستعْمِرْ في مسخ المستَعمَرِين وتيسير خضوعهم له،إلى جانب أن ممارسة فانون للعلاج النفسي واحتكاكه بالجزائريين والأفارقة الفقراء في مستشفيات باريس أولا ثم بالجزائريين في مستشفي بليدة، هذه الممارسة أغنت مفاهيمه وأوصلته إلى بعض القناعات الأساسية ومنها اقتناعه "بأن توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية "وهذا مما حدا به إلى تقديم استقالته من عمله في مستشفي بليدة في لحظة صدق مع النفس بعد وصوله إلى استحالة العلاج الكامل للمرضى الجزائريين في ظل النظام الاستعماري الذي يمارس أقصى درجات القهر والعنف على الجزائريين.

وخلصت الدراسة إلى أن دراسة فانون للطب النفسي كان لها أعمق الأثر على تكوينه الفكري وفهمه ورؤيته للاستعمار وعلى جتمية وضرورة التخلص منه والقضاء عليه.

ومن جانب آخر فإن تواجد فانون في فرنسا في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مع ما كانت تموج به باريس في ذاك الوقت من تيارات فكرية وفلسفيه مع وجود مشاهير المثقفين والفلاسفة المعاصرين وفي مقدمتهم جان بول سارتر،مما أتاح له فرصة الالتقاء بعديد من الشخصيات التي تركت بصماتها على تفكيره وعلى رؤيته وتوجهاته، وفي هذا الصدد فإن سارتر هو كاتب المقدمة لكتاب فانون الشهير "معذبو الأرض".

وفي فرنسا وإلى جانب دراسته للطب النفسي، فقد انخرط فانون في دراسة الفلسفة وقرأ لماركس وهيجل وسارتر وآخرين، ودرس الفكر الغربي بكافة مدارسه، وارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة مما أمده بثقافة إنسانية واسعة كان لها انعكاسها على أعماله الفكرية فيما بعد.

وعن تجاربه الشخصية وخبراته العملية ومدى تأثيرها عليه، فقد وضح أن تجربة فانون في التحاقه بقوات فرنسا الحرة تحت قيادة الجنرال ديجول وانخراطه في صفوف المقاومة ضد النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، هذه التجربة حملت إليه وعياً مبكراً في أكثر من اتجاه، ففيها عايش واقعاً من الظلم وعدم المساواة والاستعلاء

العنصري الذي كان يمارسه الجنود الفرنسيون البيض على غيرهم من الجنود الملونين والمفترض أنهم مواطنون فرنسيون، وفانون وهو الأسود والذي تطوع ليدافع مع الفرنسيين عن قضيتهم فوجئ بهذا السلوك العنصري الذي شكل وعيه المبكر بوضع الإنسان الأسود وضرورة تحرير الإنسان من كل الأغلال والقيود، وفي إيجاز لتجربة الحرب ودورها في التكوين الفكري لفانون، يمكن القول أنه اكتشف أثناءها الممارسات العنصرية الشائعة، كما أنها من الممكن أن تكون قد أكسبته ثقافة المقاومة والتي قد تكون هي البداية الجنينية في وعيه والتي ترجمت نفسها فيما بعد في انضمامه إلى الثورة الجزائرية وتبنيه قضايا "معذبى الأرض".

وتجربته الحية الأخرى، هي تجربة الانتقال إلى الجزائر للعمل في مستشفاها للطب النفسي ثم الانتقال بعد ذلك للعمل في صفوف جبهة التحرير الجزائرية، ومن خلال هذه التجربة فإنه وجد ما كان ينشده، حيث هيأت له ميدانا يسمح له بأن يخوض معركة كلية ضد الاستعمار، وفي نطاقها تم أول اتصال له بأفريقيا بتعيينه عضوا في الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا حيث تعرف الى عدد من القادة الأفارقة(نكروما ولومومبا وفيليكس موميه)، وتخلص الدراسة إلى أن للثورة الجزائرية والممارسة الفعلية في إطارها دوراً كبيراً في إنضاج أفكار فانون فباندماجه الكلي في الثورة وملاحظاته على المجتمع الجزائري والتحول الذي حدث له بسبب الثورة، تشكلت خبرة عملية كانت هي الأساس في معظم ما كتبه فانون في هذه المرحلة.

وعن سماته الشخصية، فإنه كان مؤمنا بالإنسان كقيمة. وهيأه ذلك لتبنى قضية الإنسان في الجزائر و المستضعفين في كل مكان، مما حدا بالبعض أن يعتبره مناضلاً أممياً يعشق الحرية ويقدس العدالة، وعلى الرغم من أن الباب كان مفتوحاً أمامه ليلتحق بصفوف النخبة إلا أن سجاياه والقوى الشخصية المميزة له دفعت به بعيدا عن الاستفادة من مهاراته الشخصية الخاصة، وعلى الرغم من محنة المرض والموت الذي بات وشيكا منه، إلا أن همه الشاغل كان هو الإنتهاء من كتابه "معذبو الأرض"، وكان قوله لأحد أصدقائه " إنى مازلت أفكر في الناس الجزائريين، في ناس العالم الثالث، وأن ما قمت به كان من أجلهم"، ذلك مما دفع بالدراسة؛ لأن تعتبره على درجة عالية من الإخلاص للهدف والقضية التي كرس نفسه لها،ودليلا على طبيعة تكوينه المتميز.

• **ثانيا:** وفيما يخص قضايا العصر وتحدياته، نتتهي الى أن الاستعمار بمفهومه الحديث يعود إلى تاريخ قيام النهضة الأوروبية بدءا من القرن الخامس عشر وإلى حركة الكشوف الجغرافية، وأن التوسع الاستعماري قد ازداد خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد تمكن البورجوازية الأوروبية من إقامة الدولة القومية وانتهاجها أسلوب الإنتاج الرأسمالي ودخولها مرحلة التنافس والصراع فيما بينها من أجل الاستحواذ على المناطق الغنية بالمواد الخام الأولية اللازمة لمصانعها ولفتح أسواق جديدة أمام منتجاتها. وفي استجابة للمتغيرات الدولية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وظهور الكتلة الاشتراكية وتنامي الوعي السياسي والفكري لدى شعوب الدول المستَعمَرة، اضطرت الدول الاستعمارية إلى الانتقال من طور الاستعمار التقليدي المباشر إلى الطور غير المباشر والذي اتخذ مسمى الاستعمار الجديد وهو الأكثر تنوعا في تعقيده وأدواته، ويكمن خطره في استخدامه لأساليب أكثر تمويها واتباعه أساليب غير مباشرة في السيطرة على الدول المستقلة حديثا ولكن يبقى جوهر الاستغلال واحدا في الحالتين.

وقد عرفت أفريقيا إلى جانب الاستعمار التقليدي والجديد أسوأ أنواع الاستعمار وهو الاستعمار الاستيطاني وعانت آثار السيطرة الاستعمارية المتمثلة في نهب الثروات وتدمير البني الاجتماعية التقليدية وطمس التاريخ والهوية الأفريقية، والعمل على تفتيت القارة للوقوف أمام تحقيق وحدتها والإبقاء على تخلفها، وبتقويض الأبنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تكون الدول الاستعمارية قد وفرت كل شروط التخلف الذي ظلت أفريقيا تعانى منه طوال الفترة الاستعمارية والذي امتدت آثاره إلى الآن.

وعن قضية التحرير الوطني، توصلنا إلى أن المتغيرات الدولية وفي مقدمتها قيام الحروب العالمية الكبرى خلال النصف الأول من القرن العشرين، وتغير موازين القوى العالمية التي أدت إليه نتائج هذه الحروب، هذا إلى جانب الممارسات العنيفة للدول الاستعمارية، قد وفرت شروط قيام ونهوض حركة تحرير وطني ردا على التحدي الاستعماري.

وبشأن التفاوت الاقتصادي بين دول المراكز الاستعمارية ودول العالم الثالث، فإن هذا التفاوت يعود بالأساس إلى النهب الاستعماري الذي مورس طوال الفترة

الاستعمارية، إلى جانب استحواذ الدول الرأسمالية على الجزء الأكبر من الفائض الاقتصادي الذي يتولد في الدول النامية، مع فرض نمط من النمو غير المتكافئ، مما أدى إلى غنى متزايد لدول المراكز الاستعمارية وفقر يزداد حدة في الدول المستعمَرة.

ثالثا: وعن طبيعة المضامين الفكرية والسياسية لكتابات فرانز فانون، وإلى أي مدى كانت تعبيرا عن قضايا عصره، فإن الدراسة تخلص إلى أنه أولى قضايا العصر كل اهتمامه فتناولت كتاباته بشيء من التفصيل كل من قضايا الاستعمار والتحرير الوطني والتفاوت الاقتصادي بين الدول المتقدمة والعالم الثالث.

فعن الاستعمار يتبين أن فانون كان ذا نظرة شاملة له، فهو يراه تنظيم سيطرة أمة على أخرى إثر غزو عسكري، وأنه نفي منظم للآخر وإنكار كل صفة إنسانية عليه، ويتناول في كتاباته خصائص الاستعمار، من أنه يفرض على العالم انقساما ثنائيا ويستمد شرعيته من القوة وأن العنصرية تشكل أحد قسماته البارزة، كما أنه أوضح الأساليب التي يتبعها الاستعمار في مواجهة الشعوب المستعمرة، وكذلك التأثيرات السلبية التي يحدثها الاستعمار على مستوى الأفراد والبنيات الاجتماعية، ويحدد كذلك أسلوب المواجهة، ورؤيته بأن الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالإقناع، وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف الذي يراه كرد فعل على عنف المستعمر، وهو في ذلك يُحمِّلْ المستَعْمِر المسؤولية عن ثقافة العنف بخلقه مناخاً عاماً من الممارسات العنيفة الوحشية، وتخلص الدراسة إلى أن للعنف عند فانون سماته وخصائصه، فهو ليس عنفا للعنف ولكنه عنف مفروض وضروري وهو عنف ثوري ومشروع، يستمد شرعيته من كونه دفاعا عن النفس وأنه ينشأ كرد فعل لحالة القهر والقمع الاستعماري. وتخلص الدراسة إلى أن أفكار فانون حول العنف والاستعمار والتحرير الوطني هي انعكاس لتجربة معاشة في سياق حركة تحرير وطني تخوض نضالاً مسلحاً من أجل التحرير، ولذلك فإن أعماله يجب أن تقرأ ليس كفكر نظري عن الطبيعة الاستعمارية ولكن أيضا كنتيجة لخبرة شخصية شاملة، وتخلص الدراسة أيضا وتتفق مع الرأي الذي يرى أن بعضا من ناقدي أفكار فانون حول العنف، والذين ربطوا بينه وبين الإرهاب، قد وقعوا في خطأ منهجي في تجاهل السياق الزماني والمكاني لأفكاره، وأن قراءة فانون من جانبهم كانت قراءة انتقائية عزلت بعضا من أفكاره عن نصوصه وأفكاره الأخرى، وارتأت الدراسة أن هذه القراءة الانتقائية تتعدى كونها مجرد قصور منهجي؛ لأنه من الصعوبة بمكان تصور أن تغيب

أبجديات البحث العلمي عن أي باحث يتحرى الحقيقة، وأن هذا الذي ذهب إليه بعض النقاد، إنما تم عمداً بغية تشويه أعمال فانون وتفريغها وتجريدها من مضمونها ومحاصرة تأثيرها على زنوج أمريكا الذين قاموا بحركة الحقوق المدنية وعلى الشباب الأوروبي والذي قام بما عُرِف بثورة الطلاب في فرنسا في عام ١٩٦٨، وترتكز الدراسة في هذه الرؤية إلى ما هو معروف من أن للمراكز الاستعمارية مفكريها ومراكز دراساتها وأبحاثها التي تعمل على توظيفها لخدمة أهدافها وأغراضها السياسية، وتعمد في ذلك إلى أسلوب خلط الحقائق وتزييف الواقع والوقائع.

وفي سياق قضية التحرير الوطني، فإن الكاتب تتبنى رؤية فانون من أن حركات التحرير لا تنبت من فراغ فهي امتداد لكفاح متصل لأجيال سابقة، وكذلك فهي لا تدور في فراغ وإنما إلى جانب اعتمادها على الشعب فهي تركن إلى تضامن دولي وإلى ظروف دولية ملائمة، وأن البيئة الدولية ومناخ ما بعد الحرب العالمية الثانية هي بيئة ومناخ يعمل لصالح قضية التحرير الوطني.

وعن دور القوى الاجتماعية المختلفة في حركة التحرير الوطني، فإن العامل الحاسم في تحديد خيارات كل قوة هو تكوينها الثقافي وأين تكمن مصلحتها فبقدر ما تكون هذه القوى بعيدة عن التأثير الثقافي الاستعماري وبقدر ما أن مصالحها لا تلتقي مع المصالح الاستعمارية فإنها تكون أقرب الى فكرة المقاومة المسلحة وأكثر جذرية في العمل من أجل التحرر والاستقلال، ووفق هذه المحددات فإنه يرى الفلاحين قوة ثورية لها دورها الرئيسي في النضال ضد الاستعمار ويُلحق بهم في الأهمية فئة

البروليتاريا الرثة، وهم الفئة الدنيا من الفلاحين الذين هجروا الريف بحثاً عن عمل ولم يستطيعوا دخول المدينة فاستقروا في أطرافها، واعتبر أنهم لظروفهم المعيشية الصعبة فإنهم يشكلون احتياطياً كبيرا للعمل الثوري، وأنهم يكونون رأس الحربة لنقل المعارك إلى المدن بشرط أن تبادر قيادة الثورة إلى تنظيمهم.

وعلى العكس من الفلاحين والبروليتاريا الرثة فإن فانون يعتبر أن بروليتاريا المدن هي فئة لا يستغنى عنها الاستعمار لحسن سير الآلة الاستعمارية ولذلك فهي تتمتع ببعض الامتيازات في ظل النظام الاستعماري وينفي عنها أي طابع ثوري نظرا؛ لأن لديها ما تخسره بالثورة.

وفيما يخص البورجوازية الوطنية فإن فانون يخلص إلى أن البورجوازية

المحلية ليس لها دور إيجابي في حركة التحرير الوطني في مرحلتها الأولى وهي الكفاح المسلح من أجل الاستقلال ولا ينبغي أن يكون لها دورٌ في المرحلة اللاحقة للاستقلال وأي دور تقوم به هو دور معوق للتقدم ولا يصب في صالح التنمية. وقد أوردت الدراسة الرؤى المختلفة مع رؤية فانون لدور الطبقات الاجتماعية وخلصت في ذلك إلى أن معظم الرؤى المختلفة تستند إلى أسانيد نظرية أو عقائدية في فهمها لدور الطبقات. بينما فانون يستمد رؤيته من خلال تجارب واقعية معاشة وفي إطار حركة تحرير وطني وأن معظم هذه الاختلافات تسقط لو أن الحديث عن الطبقات ودورها كان يتم في ظروف ما بعد إنجاز مهام التحرير الوطني .

وفيما يخص العلاقة بين حركة التحرير الوطني والثقافة الوطنية، فإن الدراسة تخلص إلى أن الاستعمار يعمل على تجميد الواقع الثقافي للمجتمع المُستَعمَر، وأن هناك علاقة ارتباط متبادل بين نضوب الواقع القومي واحتضار الثقافة وبذلك فإن التحرر القومي وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة وازدهارها، ويُرَتِب ذلك على المثقف دورا يؤديه وهو المشاركة في معركة التحرير؛ لأن الثقافة القومية تتشكل من خلال تجارب الكفاح وليست سابقة عليها وإذن فإن الطريق إلى الثقافة الوطنية يمر من خلال معارك التحرير.

وعن الوعي وأهميته في معارك التحرير، أدركنا أهمية الوعي وضرورته من أجل تحقيق الانتصار في معركة التحرير، وبالوعي يمكن تجاوز المخاطر التي تواجه الكفاح وبه ينتقل الشعب من أفق الوطنية العامة الى أفق أرحب وهو أفق الوعي الاجتماعي الاقتصادي، والوعي المقصود ليس مجرد الوعي الفردي على أهميته ولكنه وعي المجموع.

وفي جانب تَنَاوُلِ رؤيةِ فانون لواقع الدول الأفريقية غداة الاستقلال، نستخلص رؤية فانون في أن هذا الواقع يحمل عدداً من المخاطر التي يقف في مواجهتها موقفا حاسماً برفض الإملاءات الغربية وشروطها التي تحاول فرضها، ويرى في هذا الإطار أن المساعدات الغربية يجب النظر إليها على أنها حق وليست منحة، وأن الشعوب المتخلفة تخطئ إذا هي استجدت المعونة من البلاد الرأسمالية وعليها أن تدرك أن مطالبتها بالتعويض عن النهب الاستعماري الذي تعرضت له هو حق وعدل.

وعن رؤية فانون للطريق الذي يرى أن على دول العالم الثالث أن تسير في اتجاهها لتحقيق التقدم، هي رؤية شاملة مست كافة القضايا التي تخص الأفراد والمجتمع بكل فئاته ولم تقتصر على جانب واحد سياسيا كان أم اقتصاديا أم اجتماعيا وهي رؤية (كما ترى الدراسة) مازالت تصلح للطرح على مجتمعاتنا في وقتنا الحالي.

رابعا: وفي الباب الثالث الذي خصص لدراسة للعلاقة بين فانون والثورة الجزائرية وعلاقة الثورة بالمجتمع، فقد تم التوصل إلى عدد من الاستخلاصات:

- أن انتقال فانون إلى الجزائر يمثل فاصلاً بين مرحلتين متميزتين في حياة فانون، وأن انتقال فانون إلى الجزائر هيأ له ظروفا لم تكن لتتاح لو أنه انتقل إلى مكان آخر.

- أن انضمامه إلى الثورة الجزائرية قد مكنه من مشاهدة حقائق الواقع بعيداً عن التجريد و التنظيرات الفلسفية مما مكنه وسهل له تغير أفكاره بالتفاعل مع الأحداث وتطورها.

- أن تمثيل فانون للثورة الجزائرية في أفريقيا أتاح له التعرف على تجارب هذه البلدان وكذلك فالتقاؤه بالقادة والنخبة من السياسيين الأفارقة أتاح له قدرا من التفاعل والتواصل المشترك وأسهم هذا بدوره في تطوير وعى وفكر فرانز فانون وفي صقله وساهم ذلك كله في أن يكون فانون هو ذلك المفكر النظري والمؤلف لكتاب "معذبو الأرض".

- أن الثورة الجزائرية أحدثت تغييراً كبيراً على أرض الواقع، مس كلا من الأفراد والمجتمع والقيم.

وفي هذا الخصوص فإن المرأة الجزائرية لعبت أدوارا متعددة في الثورة الجزائرية تظهر إلى أي مدى لعبت الثورة دورها في التجدد الداخلي للمرأة وكيف أنها رفعت مكانتها إلى مستوى غير مسبوق ربما يتجاوز طموحاتها التي تتطلع إليها في الوقت الحاضر، وامتد التغيير ليطال كل العلاقات الأسرية بالشكل الذي لم يكن واردا في سياق التطور الطبيعي لأي مجتمع، ولا توفره إلا أجواء معركة كبيرة هي معركة التحرير والتي توفر في سياقها تحرر الإنسان الفرد من كثير من قيم الجمود وتنزع به نحو التحرر الإنساني الشامل على كل الأصعدة.

وعن تأثير الثورة في المجتمع، توصلنا إلى أن السيطرة الاستعمارية تفرض على المستعمَر أن يقف موقف الرفض لكل ما يأتي به الاستعمار دون تفريق بين ما يمكن أن يكون إيجابيًا أو سلبيًا، مما يؤدى إلى تكريس حالة من التخلف تستمر طوال فترة الخضوع الاستعماري، وبالثورة فإن هذه الحالة تتبدل وتتغير وتتطور بتطور كفاح التحرير ويصير المواطن منفتحا على التجدد وينزع إلى التعامل مع ما كان يرفضه سابقا ويتخذ منه موقفا سلبيا متشككا، وتصل الدراسة إلى خلاصة مؤداها، أن الثورة التي يقوم بها الشعب للحصول على استقلاله وحريته يمتد تأثيرها إلى كل مناحي الحياة وعلى كل المستويات الفردية الشخصية أو الجماعية على مستوى الأسرة والمجتمع ككل، وأن الثورة تحمل معها روحاً جديدة وقوة دفع تضع المجتمع كله على أعتاب مرحلة جديدة يتخلص فيها من سلبيات المرحلة الاستعمارية وجمودها.



قائمة المراجع

أولا: مراجع باللغة العربية

أ- كتب:

١. إدوارد سعيد، كمال أبو ديب (مترجم)، الثقافة والإمبريالية (بيروت: دار الآداب، ط٣، ٢٠٠٣).

٢. أكوديبا نولى (محرر)، ا. د إبراهيم نصر الدين (مراجعه وتقديم)، الحكم والسياسة في أفريقيا (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٣).

٣. د. جودة عبد الخالق، الاقتصاد الدولي من المركز الى الهامش (القاهرة: دار النهضة العربية، ط٦، ٢٠٠٦).

٤. د. حمدى عبد الرحمن حسن، دراسات في النظم السياسية الأفريقية (القاهره: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٢).

٥. د. عبد الملك عودة، سنوات الحسم في أفريقيا (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩)

٦. ----------، جذور الثورة الأفريقية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٩).

٧. على حسن كمارا، مشكلات الغزو الفكري في غرب أفريقيه (القاهره، النهار للطباعة والنشر والتوزيع -٢٠٠٢).

٨. فرانز فانون، محمد الميلى (مترجم)، من أجل أفريقيا (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦).

٩. -------، ذوقان قرقوط(مترجم)سوسيولوجية ثوره (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٠).

١٠. -------، سامي الدروبي وجمال الأتاسي (مترجمان)، معذبو الأرض (بيروت : دار الطليعة ، ط٢، ١٩٦٦)

١١. كويس .ك .براه ،حلمي شعراوى ، إسماعيل زقزوق (مترجمان)، أفريقى من القرن الثامن عشر : دراسة نقدية في الهيمنة الفكرية (القاهرة: دار الأمين للنشر و التوزيع، ٢٠٠٦).

١٢. كوامى نكروما،عبد الحميد حمدى (مترجم)، الاستعمار الجديد آخر مراحل الإمبريالية (القاهره: دار القاهرة للطباعة والنشر، ١٩٦٦).

١٣. مهدى عامل ،مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطنى (بيروت : دار الفارابى، ط٥ ،١٩٨٦).

١٤. محمد الميلى ،فرانز فانون والثورة الجزائرية (بيروت :دار الثقافه ، ط ٢، ١٩٨٠).

١٥. ى سافليف ، ج فاسلييف ، أمين الشريف (مترجم)موجز تاريخ أفريقيا (القاهرة : مؤسسة العصر الحديث، د ت).

ب- مقالات

- د. إبراهيم نصر الدين "في نقد العقل والممارسات الغربيّة ، نحو رؤية جديدة لتنمية أفريقيا" آفاق أفريقية(القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، السنة الرابعة ،العدد ١٥)

ج- رسائل علمية

- أ.د إبراهيم نصر الدين ،حركة التحرر الأفريقي في مواجهة النظام السياسي بجنوب أفريقيا (رسالة دكتوراه مقدمة إلى معهد البحوث والدراسات الأفريقية،جامعة القاهرة، ١٩٨٠)

د – موسوعات

- محمد محمود ربيع ، إسماعيل صبرى مقلد (محرران) ،موسوعة العلوم السياسية (الكويت: جامعة الكويت، د ت).

ثانيا :مراجع باللغة الإنجليزية :

A-BOOKS

1-Alessandrini, Anthony C. (ed.), Frantz Fanon Critical Perspestives (London : Routledge, 1999).

2- Amhe, Rst , Rethinking Fanon: The Continuing Dialogue (New York: (Humanity Books,1999

3-Bullhan, Hussein Abdilahi, Frantz Fanon and the Psychology of Oppression (N.Y.: Plenum press, 1985).

4- Caute, David, Fanon (London: Fontana, 1970)

5- Fanon, Frantz , Charles Lammarkman (Translator), Black skin and White Masks (NY :Grove Press ,1967)

6- Fanon, Frantz, Haakon Chevalier (Translator), Towards The African Revolution (N.Y.: Grove Press, 1988)

7- Geismar, Peter, Fanon (N.Y.: Grove Press, 1971)

8- Hansen, Emmanuel, Frantz Fanon Social and Political Thought (Nairobi: Oxford University Press, 1978).

9- Macey, David, Frantz Fanon: Abiografy (N.Y.: Picador Press, 2000).

10- McCulloch, Jock, Black Soul White Artifact Fanon's Clinical Psychology and Social Theory (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).

11- Sharawy, Helmi, Afro Arab Times (Cairo: Dar Elalam Elthalith, 2006).

12- Zahar, Renate, Willefried F. Feuser(Translator) FrantzFanon: Colonisation&Alienation (N.Y.: Monthly Review Press, 1974).

B-ARTICLES

1-Adam Hussein M, "Frantz Fanon as a Democratic Theorist ", African Affairs,(Oxford: Oxford University Press, Vol. 92, No.369 ,Oct., 1993).

http://www.jstor.org/stable/723236

2-Blackey Robert," Fanon and Cabral: A Contrast in Theories of Revolution for Africa"

The Journal of Modern African Studies,(Cambridge: Cambridge University Press, Vol. 12, No. 2 ,Jun 1974).

http://www.jstor.org/stable/159719

3-Fairchild, Halford, H. "Frantz Fanon's The Wretched of the Earth in Contemporary Perspective" Journal of Black Studies,(London: SagePublication,Inc , Vol. 25, No. 2 ,Dec., 1994).

stable/2784461http://www.jstor.org/

4-Grohs G. K. "Frantz Fanon and the African Revolution "The Journal of Modern African Studies, Vol. 6, No. 4 ,Dec ,1968.

http://www.jstor.org/stable/159334

5 Kebede , Messay" The Rehabilitation of Violence and the Violence of Rehabilitation: Fanon and Colonialism" Journal of Black Studies, Vol. 31, No. 5,May 2001.

http://www.jstor.org/stable/2668075

6-Klein Martin," Africa and the West: a Documentary History from the Slave Trade to Independence"Africa Studies review, (Toronto: African Studies Association, dec2003)

7-Kumar Thakur, manish," Beyond post Colonial Theory", Journal Of Third World Studies, (N Y: St.Martns Press, 1999)

8-Mota-Lopes José da," Re-Reading Frantz Fanon: Language, Violence, and Eurocentrism in the Characterization of Our Time"human architecture:journal of the sociology of self-knowledge, (Boston: Okcir Press,.v.special Double-Issue. Summer 2007)

http://www.okcir.com/Articles%20V%20Special/JoseMotaLopes.pdf

9-Martin, Guy," Revisiting Fanon's Life, Times, and Thought" African Studies Review, Vol. 47, No. 3 ,Dec., 2004.

http://www.jstor.org/stable/1514947

10-Perinbam,.B, Marie," Fanon and the Revolutionary Peasantry - The Algerian Case" The Journal of Modern African Studies, Vol. 11, No. 3, Sep., 1973.

http://www.jstor.org/stable/159609

11-Sonnleitner Michael W." Of Logic and Liberation: Frantz Fanon on Terrorism" Journal of Black Studies, Vol. 17, No. 3 Mar., 1987.

http://www.jstor.org/stable/2784217

12-Seshadri-Cross, Kalapana, "Terrorism, And Political Violence in Frantz Fanon" Parallax,(London :Routledge, Vol.8, No., 2002)

13-Turner Lou, "RacingThe Ego: Sarter, Modernity And Fanons Theory of Consciousness" Parallax, Vol..8, No.2,

14-Uwineza, SJ Marcel, Zimbabwe: the Prophetic Voice of Frantz Fanon

http://www.thinkingfaith.org/articles/20080623_

C-THESES

1- Usmani Adaner,Reimagining the Revolutionary Vanguard:
Frantz Fanon and the Task of the Intellectual (Harvard: Harvard College Press,N.D)
http://www.hcs.harvard.edu/thesis/repo/42/1/full_thesis_revised.pd

D -PAPERS.

1-Ato Seky,Out, Fanon And The Possibility Of Post Colonial Critical Imagination Paper Prepared For The Codesria (Accra: University Of Ghana, Sep 2003)

2-Frazer, Elizabeth, On Power And Violence; Arndt Contra Fanon, Paper Presented To APSA, Philadelphia 31 Aug-3Sep 2006

E- Internet Resources

1- www. Frantz-Fanon .co

2-www.English. Emory.Edu\bahri\fanon.html

3-www.Kirjasto.sci.Fi\Fanon.html

4- Postcolonialweb.org\poldiscourse \Fanon.html

5-www.marxists.org\Subject\Africa\Fanon\National-Culture.htm

6-www.Nathanielturnes.com

7-www.bosla.org

8-www.Alarab.com

9-www.voltaire net. Org

10-www.ksakef.com



قائمة مطبوعات

مركز البحوث العربية والأفريقية

١٩٨٧- ٢٠١١

١. فؤاد مرسى، مصير القطاع العام في مصر، ١٩٨٧.

٢. لطيفة الزيات (تحرير)، المشكلة الطائفية في مصر، ١٩٨٨.

٣. رشدى سعيد وآخرون، أزمة مياه النيل، ١٩٨٨.

٤. عواطف عبد الرحمن، المدرسة الاشتراكية في الصحافة، ١٩٨٨.

٥. وداد مرقس، سكان مصر، ١٩٨٨.

٦. أبوسيف يوسف وآخرون، النظرية والممارسة في فكر مهدى عامل: أعمال ندوة فكرية، ١٩٨٩.

٧. إبراهيم برعى، دليل قرارات المجلس الاقتصادى والاجتماعى العربى ١٩٥٣/١٩٨٩.

٨. إبراهيم العيسوى، المسار الاقتصادى في مصر وسياسات الإصلاح، ١٩٩٠.

٩. إبراهيم بيضون وآخرون، ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية أعمال ندوة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ١٩٩٠

١٠. أحمد عبد الله (تحرير)، انتخابات البرلمانية في مصر، نشر مشترك مع دار سينا ١٩٩٠.

١١. حيدر إبراهيم، أزمة الإسلام السياسى، الجبهة الإسلامية القومية في السودان، ١٩٩٠.

١٢. نادر فرجانى، الأزمة العربية الكبرى ودور المثقفين، نشر مشترك مع لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، ١٩٩٠.

١٣. محمد عبيد غباش، من لا يعرف شيئا فليكتب، خربشات رجل بلاد النفط، ١٩٩١.

١٤. ألفت الروبى، الموقف من القص في تراثنا النقدى، ١٩٩١.

١٥. محمد على دوس، حياة موارة في العمل السياسى العربى الأفريقى، ١٩٩١.

١٦. أحمد نبيل الهلالى وآخرون، اليسار المصرى وتحولات الدول الاشتراكية : أعمال ندوة عقدت بالمركز ١٩٩٢.

١٧. أمينة رشيد وآخرون، قضايا المجتمع المدنى في ضوء فكر جرامشى (مع دار عيبال بدمشق)، ١٩٩٢.

١٨. سمير أمين، من نقد الدولة السوفييتية إلى الدولة الوطنية، ١٩٩٢.

١٩. المسألة الفلاحية والزراعية في مصر :أعمال ندوة عقدت بالمركز، ١٩٩٢.

٢٠. جويل بنين، زكارى أوكمان، العمال والحركة السياسية في مصر ج،١ ترجمة أحمد صادق سعد، ١٩٩٢.

٢١. إشكاليات التكوين الاجتماعى والفكريات الشعبية في مصر: أعمال ندوة بالمركز نشر مع دار كنعان، ١٩٩٢.

٢٢. أحمد يوسف أحمد: منطق العمل الوطنى - حركة التحرر الوطنى الفلسطينية في دراسة مقارنة مع حركات التحرر الأفريقية بالتعاون مع مركز القدس للدراسات الإنمائية عمان، ١٩٩٢.

٢٣. ليلى عبد الوهاب، سوسيولوجية الجريمة عند المرأة، ١٩٩٢.

٢٤. أحمد محمد البدوى، لبن الأبنوس يازول، ١٩٩٢.

٢٥. مركز دراسات المرأة الجديدة ومركز البحوث العربية، المرأة وتعليم الكبار،١٩٩٢.

٢٦. إدريس سعيد، عظام من خزف، ١٩٩٣.

٢٧. دارام جاى (تحرير)، صندوق النقد الدولى وبلدان الجنوب، ترجمة/ مبارك عثمان، نشر مع اتحاد المحامين العرب، ١٩٩٣.

٢٨. مايكل دراكوه (تحرير)، الأنهار الأفريقية وأزمة الجفاف، نشر بالتعاون مع منظمة البحوث الاجتماعية لشرق وجنوب أفريقيا ١٩٩٤.

٢٩. عادل شعبان وآخرون، الحركة العمالية في معركة التحول، ١٩٩٤.

٣٠. نادية رمسيس فرح (تحرير) السكان والتنمية في مصر نشر مع دار الأمين،١٩٩٤.

٣١. آمال سعد زغلول، دور الحركة الشعبية في حرب السويس، ١٩٩٤.

٣٢. لجنة الدفاع عن الثقافة القومية (دراسات ووثائق ١٩٧٩-١٩٩٤)(من مقاومة التطبيع إلى مواجهة الهيمنة) ١٩٩٤.

٣٣. على عبد القادر، برامج التكيف الهيكلى والفقر في السودان، ١٩٩٤.

٣٤. حلمى شعراوى وعيسى شيفجى، حقوق الإنسان في أفريقيا والوطن العربى،١٩٩٤.

٣٥. لطيفة الزيات (ترجمة وتعليق)، حول الفن، ١٩٩٤.

٣٦. جودة عبد الخالق (تحرير)، تطور الرأسمالية ومستقبل الاشتراكية في مصر والوطن العربى : ندوة مهداة إلى فؤاد مرسى، ١٩٩٤.

٣٧. عبد الغفار شكر، التحالفات السياسية في مصر ١٩٩٤.

٣٨. صادق رشيد، أفريقيا والتنمية المستعصية، ت/ مصطفي مجدى الجمال، ١٩٩٥.

٣٩. عبد الغفار أحمد، السودان بين العروبة والأفريقية، ١٩٩٥.

٤٠. بيترنيانجو، من تجارب الحركات الديمقراطية في أفريقيا والوطن العربى، مع اتحاد المحامين العرب ترجمة حلمى شعراوى وآخرون، ١٩٩٥.

٤١. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة في الوطن العربى: حالة مصر، نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٦.

سمير أمين (تحرير) المجتمع المدنى والدولة في الوطن العربى : حالة لبنان، مشترك مع مدبولى ١٩٩٦.

٤٣. مصطفي كامل السيد (تحرير)، حقيقة التعددية السياسية في مصر، نشر مشترك مع مدبولى ١٩٩٦.

٤٤. سيد البحراوى (تحرير)، لطيفة الزيات : الأدب والوطن، نشر مشترك مع دار المرأة العربية، ١٩٩٦.

٤٥. عبد الباسط عبد المعطى: بحوث الطفولة في الوطن العربى، نشر مشترك مع المجلس العربى للطفولة والتنمية، ١٩٩٦.

٤٦. جويل بنين، زكارى لوكمان، العمال والحركة السياسية في مصر الجزء الثانى، ترجمة إيمان حمدى، نشر مع دار الخدمات النقابية والعمالية، ١٩٩٦.

٤٧. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات الأهلية وأزمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في مصر، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٧.

٤٨. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة في الوطن العربى : حالة المشرق العربى نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٧.

٤٩. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة في الوطن العربى : حالة المغرب العربى نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٧.

٥٠. كمال مغيث (تحرير)، التعليم وتحديات الهوية القومية، نشر مشترك مع دار المحروسة، ١٩٩٨

٥١. عبد الغفار شكر، اليسار العربى وقضايا المستقبل ١٩٩٨. نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٨.

٥٢. عاصم الدسوقى (تحرير)، عمال وطلاب في الحركة الوطنية المصرية. نشر مشترك مع دار المحروسة، ١٩٩٨.

٥٣. محمد أبو مندور وآخرون، الإفقار في بر مصر، نشر مشترك مع دار الأهالى، ١٩٩٨.

٥٤. عبد الغفار أحمد (تحرير)، إدارة الندرة، ترجمة صلاح أبو نار وآخرون، ١٩٩٨.

٥٥. لايف مانجر وآخرون، البقاء مع العسر، ترجمة صلاح أبو نار- مجدى النعيم، ١٩٩٨.

٥٦. نجاتى عبد المجيد وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥ : الجزء الأول بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ١٩٩٨.

٥٧. لايف مانجر، لفوفة النوبة، ترجمة مصطفي مجدى، ١٩٩٩.

٥٨. أمينة رشيد (تحرير): التبعية الثقافية : مفاهيم وأبعاد، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٩.

٥٩. محمود عودة، (إشراف)، الأسر المعيشية في الريف المصرى، نشر مشترك مع جامعة عين شمس، ١٩٩٩.

٦٠. محمد محيى الدين، (إشراف)، نساء الغزل والنسيج : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٩٩.

٦١. عبد الحميد حواس وآخرون، المأثور الشعبى في الوطن العربى، نشر مشترك مع المنظمة العربية للتربية وللثقافة وللعلوم، ١٩٩٩.

٦٢. عبد الباسط عبد المعطى(تحرير)، العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربى، نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٩.

٦٣. عزة خليل (إعداد)، خريطة سياسات وخدمات الطفولة في مصر، نشر مشترك مع المركز القومى للثقافة والطفل، ١٩٩٩.

٦٤. يوسف درويش وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥ : الجزء الثانى بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ١٩٩٩.

٦٥. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحزير)، (أفريقية - عربية: مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الأول، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ١٩٩٩.

٦٦. أمينة رشيد (تحرير)، الحريات الفكرية والأكاديمية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠.

٦٧. فاروق القاضى، فرسان الأمل : تأمل في الحركة الطلابية المصرية، ٢٠٠٠.

٦٨. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الأولى- يناير ٢٠٠٠ حول (مشكلات تدريس اللغات في مصر)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة.

٦٩. محمد سيد أحمد وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥ : الجزء الثالث بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٠.

٧٠. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثانى، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، مارس ٢٠٠٠.

٧١. أحمد مختار منصور، الجراحة في الحضارة العربية الإسلامية، دراسة تاريخية، ٢٠٠٠.

٧٢. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الثانية- نوفمبر ٢٠٠٠ (دراسات حول اللغة العربية في مصر)، الورقة الثالثة، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة.

٧٣. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثالث، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ٢٠٠٠.

٧٤. حلمى شعراوى، أفريقيا في نهاية قرن، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠

٧٥. أديب ديمترى وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء الرابع بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠١.

٧٦. مصطفي مجدي الجمال (تحرير)، فلسطين والعالم العربى، نشر مشترك مع دار مدبولى، ٢٠٠١

٧٧. عبد الغفار شكر (تحرير)، تحديات المشروع الصهيونى والمواجهة العربية. نشر مشترك مع دار مدبولى، ٢٠٠١.

٧٨. فرانسوا أوتار وفرانسوا بوليه، في مواجهة دافوس، ترجمة : سعد الطويل، نشر مشترك مع دار ميريت، ٢٠٠١.

٧٩. عبد الغفار شكر (إشراف)، الجمعيات الأهلية الإسلامية في مصر، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠١.

٨٠. كويسى براه، اللغات الأفريقية وتعليم الجماهير، ترجمة وتحرير حلمى شعراوى، بالتعاون مع مركز الدراسات المتقدمة للمجتمع الأفريقى بكيب تاون، الناشر، دار الأمين، ٢٠٠١.

٨١. فيتينو بيكيلى، وآخرون، دراسات مختارة/ التحولات الاجتماعية والمرأة الأفريقية، بالتعاون مع منظمة أوسريا بأديس أبابا، تقديم د. عبد الغفار محمد أحمد، الناشر دار الأمين، ٢٠٠١.

٨٢. أحمد القصير وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥ : الجزء الخامس بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠١.

٨٣. رمسيس لبيب (تحرير)، العمال في الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الأولى بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥،٢٠٠١.

٨٤. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية: مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الرابع، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ٢٠٠١.

٨٥. سعد الطويل (تحرير)، الأجانب في الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الثانية، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٨٦. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الثالثة- مايو ٢٠٠٢ (مساهمات في اللغويات العربية)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة.

٨٧. سمير أمين، مستقبل الجنوب في عالم متغير، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

٨٨. أكيكي بى موجاجو وآخرون، دراسات اجتماعية في شرق وجنوبي أفريقيا، بالتعاون مع منظمة أوسريا بأديس أبابا، الناشر دار الأمين، ٢٠٠٢.

٨٩. سمير أمين وآخرون، العلاقات العربية الأوروبية: قراءة عربية نقدية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

٩٠. يسرى مصطفي (تحرير)، المجتمع المدنى وسياسات الإفقار في العالم العربى، نشر مشترك مع دار ميريت، ٢٠٠٢.

٩١. فخرى لبيب، حلمى شعراوى (تحرير)، منظمة التجارة العالمية ومصالح شعوب الجنوب، بالتعاون مع منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وعدد من المنظمات غير الحكومية، الناشر مركز المحروسة، ٢٠٠٢.

٩٢. إسماعيل عبد الحكم وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء السادس بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٣. عبد الغفار محمد أحمد، في تاريخ الأنثروبولوجيا والتنمية في السودان، ترجمة: مصطفي مجدى الجمال، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

٩٤. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات التعاونية كمنظمات شعبية تنموية- الجزء الأول، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٢.

٩٥. حنان رمضان (تحرير)، المرأة في الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة الثالثة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٦. عريان نصيف (تحرير)، الفلاحون في الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة الرابعة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٧. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الخامس، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٢.

٩٨. سمير أمين وآخرون، الاشتراكية واقتصاد السوق: تجارب (الصين- فيتنام- كوبا)، نشر مشترك مع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

٩٩. عبد الحميد حواس، أوراق في الثقافة الشعبية في مضر، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٠. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات التعاونية كمنظمات شعبية تنموية- الجزء الثانى، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٣.

١٠١. مدحت أيوب (تحرير)، الأمن القومى العربي، نشر مشترك مع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

١٠٢. طايع آصيفا وآخرون (تحرير)، العولمة والديمقراطية والتنمية: تحديات وآفاق، نشر مشترك مع منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أديس أبابا)، ومركز المحروسة، ٢٠٠٣.

١٠٣. فخرى لبيب (تحرير)، الطلبة في الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الخامسة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٣.

١٠٤. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الرابعة- مايو ٢٠٠٣ (قضايا حول اللغة العربية والتعبير العلمى)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة.

١٠٥. هويدا عدلى (تحرير)، ثقافة وسائل الاتصال في الوطن العربى: الإعلام والهوية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٦. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد السادس، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٧. سمير أمين، فرانسوا أوتار (تحرير)، مناهضة العولمة : حركة المنظمات الشعبية في العالم، ترجمة: م.سعد الطويل، نشر مشترك مع المنتدى العالمى للبدائل، ودار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٨. أحمد برقاوى وآخرون، الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربى، نشر مشترك مع مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية دمشق ومكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

١٠٩. رمسيس لبيب(تحرير)، الانقسامية وأزمة الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة السادسة والسابعة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٣.

١١٠. محمد ماهر الجمال، أحمد لطفي السيد: دراسة في الخارطة المعرفية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١١١. عبد الغفار شكر (منسق البحث)، نظام الخدمة العامة في مصر وآفاق تطويره: دراسة حالة محافظة دمياط، بالتعاون مع شبكة الجمعيات الأهلية للتنمية وقضايا النوع بدمياط، ٢٠٠٣.

١١٢. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد السابع، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٤.

١١٣. ريمى هيريرا وآخرون، ترجمة باتسى جمال الدين، الثورة الكوبية... إلى أين....؟ دراسة في ملامح التاريخ الكوبى واستشراف القرن الواحد والعشرين، نشر مشترك مع منتدى العالم الثالث ودار العالم الثالث،٢٠٠٤.

١١٤. أليون سال (تحرير)، ترجمة: سعد الطويل، أفريقيا ٢٠٢٥، أى مستقبل؟ نشر مشترك مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٥. دينيس فينتر وآخرون، دراسات اجتماعية في شرق وجنوبي أفريقيا، العدد الثالث نشر مشترك مع منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا) بأديس أبابا، الناشر المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٦. هاين ماريز، جنوب أفريقيا:حدود التغيير: الاقتصاد السياسى لمرحلة الانتقال، ترجمة صلاح العمروسى وعزة الخميسى، نشر مشترك مع منتدى العالم الثالث وآخرون، الناشر دار الأمين، ٢٠٠٤.

١١٧. د.أحمد زايد – د.عروس الزبير (تحرير)، النخب الاجتماعية: حالة الجزائر ومصر، نشر مشترك مركز البحوث في الاقتصاد التطبيقى من أجل التنمية بالجزائر، مع الناشر دار مدبولى، ٢٠٠٤.

١١٨. د. حمدى عبد الرحمن –عزة خليل، المجتمع المدنى ودوره في التكامل الأفريقى، نشر مشترك مع مركز المجتمع المدنى –جامعة ناتال، الناشر المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٩. فاروق القاضى، آفاق التمرد: قراءة نقدية في التاريخ الأوروبى والعربى الإسلامى، نشر مشترك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالأردن، ٢٠٠٤.

١٢٠. جوزيف بوسير وآخرون، دراسات اجتماعية في شرق وجنوبي أفريقيا، العدد الرابع نشر مشترك مع منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا) بأديس أبابا، الناشر المدينة برس، ٢٠٠٤.

١٢١. سمير أمين وآخرون، الصراع حول المياه: الإرث المشترك للإنسانية، ترجمة: م. سعد الطويل، نشر مشترك مع منتدى البدائل العالمى الثالث، الناشر مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥.

١٢٢. عبد العال الباقورى، وعد بوش.. بلفور الجديد: الحصاد المُر للساداتية، الناشر مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥.

١٢٣. رمسيس لبيب (تحرير وتقديم)، اليسار في الثقافة المصرية، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الناشر دار الثقافة، ٢٠٠٥.

١٢٤. ألفريد نهيما (تحرير)، قضايا السلم المنشود في أفريقيا: التحولات والديمقراطية والسياسات العامة، ترجمة:مصطفي مجدى الجمال، نشر مشترك مع منظمة بحوث العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا) بأديس أبابا، الناشر دار الأمين، ٢٠٠٥.

١٢٥ . شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثامن، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٥.

١٢٦ . جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الخامسة- يونيه ٢٠٠٥ (اللغة والإيديولوجية والسلطة)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة.

١٢٧ . عزة خليل (تحرير)، تقديم سمير أمين، الحركات الاجتماعية في العالم العربى، نشر مشترك مع المنتدى العالمى للبدائل، الناشر مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥.

١٢٨ . سامية الهادى النقر، الجمعيات الأهلية والإسلام السياسى في السودان، الناشر مكتبة مدبولى، ٢٠٠٥.

١٢٩ . عروس الزبير، الجمعيات الأهلية الإسلامية- حالة الجزائر، نشر مع دار الأمين، ٢٠٠٦.

١٣٠ . أحمد سليّم وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤي : من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية جـ٧ بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتي عام ١٩٦٥، ٢٠٠٦.

١٣١ . عبد الأمير السعد، الاقتصاد العالمى: قضايا راهنة، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٦.

١٣٢ . حسام رضا، إسرائيل في الزراعة المصرية، الناشر مركز المحروسة، ٢٠٠٦.

١٣٣ . زهدى الشامى وآخرون، دراما أمريكا اللاتينية، دروس التنمية والتحدى الديمقراطى، الناشر مركز المحروسة، ٢٠٠٦.

١٣٤ . شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال (مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد التاسع، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٦.

١٣٥ . عبد الله على إبراهيم، أصيل الماركسية: النهضة والمقاومة في ممارسة

١٣٦. الحزب الشيوعي السوداني، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٦.

١٣٧. آرشي مافيجي، التشكيلات الاجتماعية في أفريقيا- دراسة في النظرية والتطبيق إقليم البحيرات العظمى، ترجمة: مصطفي مجدى الجمال- تقديم حلمى شعراوى، الناشر، مركز المدينة للإعلام والنشر، ٢٠٠٧.

١٣٨. ب. بيكمان- ل.م. ساشيكوني (تحرير)، أنظمة العمل واللبرلة: إعادة هيكلة علاقات الدول- المجتمع في أفريقيا، ترجمة: عزة خليل، الناشر مركز المحروسة، ٢٠٠٧.

١٣٩. سمير أمين (إشراف)، الفلاحون وتحديات القرن الواحد والعشرين، ترجمة: باتسى جمال الدين- غادة طنطاوى، مراجعة سعد الطويل، الناشر دار العالم الثالث، ٢٠٠٧.

١٤٠. وداد مترى: قلب بحجم الوطن، إعداد مركز البحوث العربية والأفريقية، مطبعة مركز المدينة، ٢٠٠٧.

١٤١. سعد الطويل وآخرون (تحرير)، وثائق الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، المجلد الأول من ١٩٤٤-١٩٥٢، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ونشر مشترك مع دار العالم الثالث، ٢٠٠٧.

١٤٢. مصطفي مجدى الجمال، كتاب البوليفاري، تشافيس : جدل الثورة والكاريزما، نشر مشترك مع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٧.

١٤٣. عبد الأمير السعد، قضايا رأس المال والعمل، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٧.

١٤٤. حسنين كشك- حنان رمضان (تحرير)، أحوال الزراعة والفلاحون في ظل سياسات التكيف الهيكلى، نشر مشترك مع مركز المحروسة والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠٠٧.

١٤٥. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة السادسة- سبتمبر ٢٠٠٧ (قضايا في الازدواجية اللغوية العربية)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة، ٢٠٠٧.

١٤٦. سمير أمين (إشراف)، العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين، الناشر دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٤٧. سمير عبد الباقى (تحرير)، هديل اليمام وراء القضبان: مختارات من قصائد الشعراء الشيوعيين المصريين في السجون والمعتقلات من ١٩٤٥-١٩٦٥، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، نشر مشترك مع دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٤٨. سعد الطويل (تحرير)، المهنيون وأزمة الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة التاسعة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٨.

١٤٩. إلهامى الميرغنى(تحرير)، حوارات ساخنة بين اليسار العربى والأوروبى، بالتعاون مع مؤسسة روزا لوكسمبورج الألمانية، الناشر دار العالم الثالث، ٢٠٠٨. وصدر أيضًا باللغة الإنجليزية.

١٥٠. زهدى الشامى (تحرير)، في البحث عن بديل لمشاكل الزراعة والفلاحين في مصر بالتعاون مع مركز المحروسة، ٢٠٠٨.

١٥١. سعد الطويل وآخرون (تحرير)، وثائق الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، المجلد الثانى من ١٩٥٢-١٩٥٣ ، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٨.

١٥٢. إيمان البسطويسى (تحرير)، الثقافات المحلية في ظل العولمة: دراسات مصرية أفريقية، بالتعاون مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية- جامعة القاهرة، الناشر دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٥٣. مدحت أيوب (تحرير)، بدائل التنمية، بالتعاون مع الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، الناشر دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٥٤. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة السابعة، نشر مشترك مع جماعة اللغويين في القاهرة، ٢٠٠٨.

١٥٥. محمد جويلي، الثأر الرمزي: تماس الهويات في واحات الجنوب التونسي، تقديم د.الطاهر لبيب، بالتعاون مع دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٥٦. مجموعة من العلماء الصينيين، أحوال الصين: دراسات نقدية، ترجمة مصطفي مجدى الجمال وآخرون، بالتعاون مع دار العالم الثالث، ٢٠٠٨.

١٥٧. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد العاشر، نشر مشترك مع كوديسريا ودار العالم الثالث، إبريل ٢٠٠٩.

١٥٨. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الحادى عشر، نشر مشترك مع كوديسريا ودار العالم الثالث، إبريل ٢٠١٠.

١٥٩. عبد الغفار شكر، الصراع حول الديمقراطية في مصر، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٩.

١٦٠. عبد العال الباقوري(تحرير)، الإستراتيجية الإسرائيلية تجاه الوطن العربى، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٩.

١٦١. ضياء الدين زاهر(تحرير)، تمويل التعليم في مصر، نشر مشترك مع كوديسريا، ٢٠٠٩.

١٦٢. حلمى شعراوى (تحرير)، في رحاب فاروق كدودة: التنمية والديمقراطية، ٢٠٠٩.

١٦٣. حلمى شعراوى، أفريقيا من قرن إلى قرن، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد، ٢٠١٠.

١٦٤. عاصم الدسوقى (تقديم)، حنان رمضان (الإعداد والتصنيف)، مجلة الفجر الجديد، المجلد الأول، والثانى، مطبوعات المركز بالتعاون مع صندوق التنمية الثقافية، ٢٠١٠.

١٦٥. عبد الغفار شكر وآخرون، الأحزاب السياسية وأزمة التعددية في مصر، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

١٦٦. سعد الطويل وآخرون (تحرير)، وثائق الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، المجلد الثالث من ١٩٥٣-١٩٥٤، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠١١.

١٦٧. عطيه الصيرفى، تاريخ عمال الزراعة والتراحيل في مصر والعالم: منذ عهد السخرة حتى سنة ١٩٦٩، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد للنشر والتوزيع ٢٠١١.

١٦٨. حلمى شعراوى، عبد الغفار شكر (تحرير)، نحو نهوض اليسار في العالم العربى: حوارات مع أطروحات كريم مروة، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد للنشر والتوزيع ٢٠١١.

١٦٩. حلمى شعراوى، السودان في مفترق الطرق، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد للنشر والتوزيع ٢٠١١.

١٧٠. باسم رزق عدلى رزق، أفريقيا والغرب، دراسة لآراء المفكر الأفريقى اللاتينى ولتر رودنى، نشر مشترك مع مكتبة جزيرة الورد للنشر والتوزيع ٢٠١١.

١٧١. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفي مجدى الجمال(مسؤول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثانى عشر، نشر مشترك مع كوديسريا والمركز، ٢٠١١.

كراسات المركز

١. أحمد هنىء، حول إجراءات الإصلاح الاقتصادى في الجزائر، ١٩٨٨.

٢. عصام فوزى، ترجمة ثلاثة قراءات سوفييتية في البيريسترويكا، ١٩٨٨.

٣. أشرف حسين، ببليوجرافيا الطبقة العاملة، ١٩٨٨.

٤. عبد العظيم أنيس، قراءة نقدية في كتابات ناصرية، ١٩٨٩.

٥. مصطفي نور الدين عطية، المجتمعات التابعة ومشكلات التنمية المستقلة، ١٩٨٩

٦. موشى ليوين وآخرون، تقديم/ فؤاد مرسى، البيريسترويكا في عيون الآخرين، ١٩٩٠

٧. محمد أبو مندور وآخرون، أزمة المياه في الوطن العربى، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٩.

٨. إسماعيل زقزوق، المهمشون بين النمو والتنمية، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٩.

٩. عبد الغفار شكر، تجديد الحركة التقدمية المصرية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠.

١٠. حنان رمضان (إعداد)، العراق تحت الحصار، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠.

١١. أحمد صالح، الإنترنت والمعلومات، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠١.

١٢. عريان نصيف (تحرير)، الأرض والفلاح، نشر مشترك مع دار الأمين ٢٠٠١.

١٣. أحمد عبد الله، عمال مصر وقضايا العصر، نشر مشترك مع دار المحروسة، ٢٠٠٢.

١٤. عريان نصيف (تحرير)، التشريع التعاونى في مصر: الواقع.... وآفاق المستقبل، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

١٥. د.محمد ماهر الجمال، مضامين التربية الشعبية، في مجلة "الأستاذ" لعبد الله النديم، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٦. مدحت أيوب، قضايا في الاقتصاد المصرى بعد التكيف الهيكلى، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٧. كلود كاتز وآخرون، ترجمة يوسف درويش، إمبريالية القرن الواحد والعشرين، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٨. سمير أمين، الفيروس الليبرالى: الحرب الدائمة وأمركة العالم، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٤.

١٩. محمد إسماعيل زاهر، أزمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٤.

٢٠. بهيج نصار، البحث عن مفهوم للديمقراطية في مرحلة الثروة العلمية والتكنولوجية الراهنة، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٤.

٢١. الحركة العمالية المصرية: الخبرة النضالية وآفاق المستقبل، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٤.

٢٢. د.حامد الهادي، إحصاءات السكان والحيازة الزراعية: تحليل اجتماعي، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٥.

٢٣. د.سيد عشماوى، الدراسات الحديثة في تاريخ مصر الاجتماعي الحديث خلال السنوات العشر الأخيرة، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٥.

كتيبات كوديسريا

١- أوكوادبا نولى، الصراع العرقى في أفريقيا،١٩٩١.

٢- ايبو هو تشغول، الجيش والعسكرية في أفريقيا، ١٩.٩١.

٣- ديساليجن رحماتو، منظمات الفلاحين في أفريقيا : قيود وإمكانيات، ١٩٩١.

٤- جيمى آديسينا، الحركات العمالية وضع السياسة في أفريقيا، ١٩٩٢.

٥- موممار ديوب، ممادو ديوف، تداول السلطة السياسية وآلياتها في أفريقيا، ١٩٩٢.

٦- أديمولات - سالو، البيئة العالمية: جدول أعمال بحث لأفريقيا، ١٩٩٣.

٧- م. مامدانى،آخرون، الحركات الاجتماعية والعلمية الديمقراطية في أفريقيا، ١٩٩٣

٨- ثانديكا مكانداويرى، التكيف الهيكلى والأزمة الزراعية في أفريقيا، ١٩٩٣

٩- آرشى مافيجى، الأسر المعيشية وآفاق إحياء الزراعة في أفريقيا، ١٩٩٣.

١٠- سليمان بشير ديانى،المسألة الثقافية في أفريقيا، ١٩٩٦.

١١- ميشيل بن عروس، الدولة - والمنشقون عليها، ١٩٩٦.

١٢- عبدو مالك سيمون، عملية التحضر، والتغير في أفريقيا، ١٩٩٩.

١٣- أمينة ماما، دراسات عن المرأة ودراسات النساء في أفريقيا، ١٩٩٩.

١٤- تادى آكين آنيا، العولمة السياسية الاجتماعية في أفريقيا، ١٩٩٩.

١٥- ممادو ديوف، ليبرالية سياسية أم انتقال ديمقراطى : منظورات أفريقية، ١٩٩٩.

١٦- حكيم بن حمودة نظريات ما بعد التكيف الهيكلى، ٢٠٠٠.

١٧- كلوديو شوفتان، ماذا بعد ممارسات التنمية المشوهة في أفريقيا؟، ٢٠٠٠.

١٨- أشيلى ميمبى، عن الحكم الخاص غير المباشر، ٢٠٠٠.

١٩- تشيكيلاك. بيايا، الشباب والعنف والشارع في كنشاسا: نسمع ونفهم ونصف، ٢٠٠١.

٢٠-سليمان بشير ديانى، إعادة بناء المعنى: نصوص ورهانات لقراءة مستقبل أفريقيا، ٢٠٠١.

٢١- عثمان كان، المثقفون الأفريقيون المتحدثون بلغات غير أوروبية، ٢٠٠٥.

٢٢- جومو كوامى صندارام، الاعتبارات الاقتصادية للتجديد الوطنى، ترجمة: إسماعيل زقزوق، بالتعاون مع كوديسريا، ٢٠٠٨.

٢٣-آدم با كونارى، التاريخ والديمقراطية والقيم، خطوط جديدة للتأمل، ٢٠٢٠، ترجمة: مصطفي مجدى الجمال.

٢٤-مايلن شونج كنج وآخرون، بحوث الطفولة في أفريقيا، ترجمة منى مصطفي الجمال، ٢٠١٠.

سلسلة كراسات اللجنة الاقتصادية لأفريقيا

أ- التنمية بالمشاركة

١- تعزيز التواصل بين مؤسسات صنع السياسة الحكومية وبين الجامعات والمراكز البحثية من أجل دعم الإصلاح الاقتصادى والتنمية في أفريقيا.

٢- تحسين أداء المشروعات العامة في أفريقيا: دروس من تجارب قطرية.

٣- تحسين أداء المشروعات العامة في أفريقيا.

٤- تعبئة وإدارة الموارد المالية في الجامعات الأفريقية.

٥- تحسين إنتاجية الخدمات العامة في أفريقيا.

٦- دعم حيوية الجامعة الأفريقية في التسعينيات ومابعدها .

٧- تهيئة البيئة لتنمية الفعاليات التنظيمية في أفريقيا .

٨- تعبئة القطاع غير الرسمى والمنظمات غير الحكومية من أجل الإصلاح الاقتصادى والتنمية في أفريقيا.

٩- الأخلاقيات والمساءلة في الخدمات العامة الأفريقية.

١٠- أعمال ندوة حول الديمقراطية والمشاركة الشعبية لقادة نقابات العمال في أفريقيا .

١١- الإثنية والصراع السياسى في أفريقيا.

١٢- ميثاق عمل للمنظمات غير الحكومية في أفريقيا.

ب- سلسلة التنمية بالمشاركة

١- دراسة حالة في ناميبيا.

٢- دراسة حالة في أوغندا.

٣- كيف تؤثر المنظمات الأهلية في السياسات عن طريق البحث والضغط والدعوة.

٤- المبادئ الأساسية لتعزيز الحوار والتعاون والتداخل بين الحكومات والمنظمات الشعبية.

٥- دراسة حالة في جامبيا.

٦- دراسة حالة في إثيوبيا.

ج- سلسلة الدليل التدريبى للتنمية بالمشاركة الشعبية

١- الاتصال في خدمة التنمية بالمشاركة.

٢-المنظمات المحلية غير الحكومية وتحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء في المجتمعات المحلية.

٣- مناهج تطوير المنظمات الأهلية للمشروعات.

٤- تخفيف الفقر وصيانة البيئة.

٥- تعريف دور وأهمية اتصال دعم التنمية من أجل المشاركة الفعالة في عملية التنمية.

٦- إدارة المشروعات الصغيرة

٧- تصميم فعال لخدمات تنظيم الأسرة

٨- دور مؤسسات المجتمع المدنى في منع وإدارة وحل الصراعات في أفريقيا.

النشرات

١- نشرة البحوث العربية: من العدد التجريبى يناير ١٩٩٠ إلى العدد (١٥-١٦) سبتمبر ٢٠٠٣- مارس ٢٠٠٤.

٢- نشرة المجلس الأفريقى لتنمية البحوث الاقتصادية والاجتماعية (كوديسريا): من العدد الأول أبريل ١٩٩١ إلى العدد الخامس والخمسون، ٢٠١٠.

٣-نشرة العلوم السياسية الأفريقية: من العدد الأول إلى العدد الثامن والثلاثون، أغسطس ٢٠٠٣.

٤- نشرة الذاكرة الوطنية- مع لجنة التوثيق- العدد الثانى-أكتوبر ١٩٩٦.

٥- نشرة مبتدى العالم الثالث بداكار: العدد الأول يوليو ١٩٩٦- العدد الثانى يونيو ١٩٩٧.

٦- نشرة المنتدى العالمى للبدائل: العدد الثالث- فبراير ٢٠٠٢.

٧- نشرة منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا)، العدد الثانى، يناير ٢٠٠٦.

تحت الطبع.

١. الجزء الرابع من وثائق الحركة الشيوعية المصرية من ١٩٥٤ - ١٩٥٥ .

٢. شهادات ورؤى: الجزء الثامن.

٣. أدب السجون.

٤. بحث الحركات الاحتجاجية.

٥. الفكر السياسى الصهيونى (كتب جائزة حلمى شعراوى للدراسات الأفريقية).

الفهرس

الموضوع	الصفحة